مدخل إلى الاستدلال القرآني

تأليف

دكتور
عبد الله يوسف الشاذلي
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى ١٤٠٧ — ١٩٨٧

قـال تعـالى :

« قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » ٠

الأنعام ١٤٩

صـدق الله العظيم

اهـــداء

الى زوجتى الوفية ، الى من عرفت فيها القلب الطيب الـذى لا يعرف العداء ، ولا يساكنه البغض ، الى الروح النقى الذى لا يمل الذكر ، والذى يعشق القرآن ، الى الانسان العفيف الذى لا يستطيع رد الاعتداء فضلا عن أن يبدأ ذلك ، الى الانسان الطاهر العابد الذى أطاع ربه فى الصغر ، وأخلص له فى الشباب ، وما زالت تواصـل رحلة العبادة فى خضوع جم ، وتواضع ذليل •

الى الصفاء والنقاء والحياء المستفيض ، والخجل المحمود ، الى من فى الشدة تحملت وفى العسر صبرت ، وفى الرخاء شـكرت وبذلت ، الى اليد الجواده ، والنفس الراضية الى زوجتى حسـنة الدنيا ، ومن أرجو الله أن يجمعنى بها فى الآخرة كما جمعنا فى الدنيا على سنته وطاعته •

اليها والى أولادى الأحبة أهدى هذه السطور راجيا الله سبحانه أن يجعلنا أسرة تقية ، وأن يحفظنا ويسترنا ، ويجعل منهم جميعا قرة عين لى ، وأن نكون سويا من أئمة المتقين المهديين ، وأن يستعملنا فى طاعتـه ومرضاته ، ويجعـل الحيـاة خالصـة لوجهه ، واللقـاء يوم القيامة فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصـالحين وحسن أولئك رفيقـا •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين ، جلت قدرته ، وتعالت عظمته ، ودقت حكمته ، ونفذت ارادته ، رحم العبـاد فاحتجب بذاته ، ولو ظهـر لصعقوا ، ولو تجلى عليهم لدكوا وغاروا كما دك الجبل عند التجلى ، ولقد صعق الكليم عندما رأى أثر التجلى على الجبل ، وعندما شاهد الرواسى تدك في الأرض ، فما باله لو شاهد جناب الذات ، وجـلال الحق ، وجمال الوجه ، وبهاء النور •

لقد خر صعقا من أثر التجلى فماذا يكون حاله لو شاهد المتجلى، هكذا نفهم حجاب الذات ، ونوقن بسر لن ترانى ، وبمعنى لا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، ان الاحتجاب ليس تعجيزا للعقـول ، وليس تعذيبا للبشر ، وليس حرمانا الطالبين ، وليس غيرة على قدسية الذات الجليلة أن تكون محل أنظار البشرية الصغيرة •

ولكنه فى الحقيقة احتجاب الرحمة ، وتنائى الحكمة ، رحمت الذات خلقها أن يذوبوا فى ضوئها فاحتجبت عنهم ، ورحم النور قبسات من روحه أن تتلاشى تحت سـطوة أشراقاته فأقام حجب الأنوار سترا للنور الأزلى ، ورحمت القدرة الجبارة أصحاب القدر الضعيفة فغابت العظمة الأزلية وراء أستارها كى لا يمحق من سـواها تحت قـوة سلطانها •

وفى تجليها ضياع وصعق ، وفقدان وتلاش ، وفى احتجـابها شوق وحنين ، وحب وتطلع ، وأمل ورجاء ، ألسنا نشتاق للغائب الذى نعرفه لا ما لا نعرفه ، ألسنا ننجذب بحنين الى مستور ندركه ولا نتملى به ، أنه كذلك •

اننا نعرف الله ، وهو غائب عنـا ، ويدفعنا احتجابه وغيبه الى

الانجذاب اليه ، وينبثق شوقنا اليه من معرفتنا به فيتجه اليه فى ستره الأزلى ، ويحتدم لهيب الشوق كلما اتسع نطاق المعرفة ، وازدادت دائرة الايمان به فى أعماق قلوبنا ، وبذا تكون المعرفة ، ويكون الايمان هما دافعا الشوق والمحبة الى ذات موجودة وغائبة .

ولو ظهرت لنا دائما ما استطعنا البقاء ، ولو أعطت القــوة على رؤيتها والنظر اليها لفقدنا أغلى شىء وهو الحب والشــوق لأنهمــا عاطفتان يشتعلان بالفقد ، ويطفآن بالحضور ، ولو فقدناهما لخسرنا أقوى محرك للشعور الايمانى الرقيق ، وزال من عواطفنا أغلى درتين يسطعان على صفحة القلب وهو يتجه الى الله فى طاعة وعبادة .

أرأيت كيف كان الاحتجاب رحمــــة حتى لا نزول ، وكيف كان حكمة حتى نحب ونشتاق ثم هــو احتجاب بالذات الأزلية وأنوارها وسـطوتها وجــلالها ، وليس احتجابا عنا بأثارها وفعلها وتدبيرها وكلامها ، هنالك الذات خلف أستار الغيب ، وهنا الفعل والشأن كل يوم

هنالك النور الأزلى اللانهائى الذى لا ندرى فى أى العوالــم احتجب عنا وهو نور السموات والأرض ، وأى عالم يحويه وهو منزه عن الاحتواء ، وأى آفاق تقله وهو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، اننا نؤمن أنه موجود ومنزه عن الرؤية فى الدنيا ، ومحتجب عنا ، ونؤمن بالغيب ، ونوقن أنه محتجب بذاته ، فهو غيب الغيب وسر السر ، ونور الأنوار .

وهو الذى أطل فخلق الأكوان . وبدا بقدرته فأبدع العــالم والانسان ، والملك والجان ، وأعد ملكوت الجنة والنيران ، نعرفه بالأثر الكونى ، والخبر الوحيى ، والبرهان العقلى ، نشاهد عالمـــا متقنـــا بديعا فنوقن بأنه صنع حكيم ، ويوحى الله الى أنبيائه حديثا نقـــرأه فنهتدى به ، ولدينا قوة نستطيع الوصول الى الحق ، وقد أودعها الله فينا لتسير وتنظر ، وتعرف وتؤمن ، ثم تخضع وتعبد .

انه وان احتجب بالذات فقد ظهر بالأثر ، وان لم نسمع صوته فقد اصطفى صفوة من خلقه ليوحى اليهم فيبلغوا كى يقرأ الناس ويسمعوا كلامه من أنبيائه ، وان العقل فينا قبس من حكمته يستطيع معرفته ، واقامة الدليل على وجوده •

سبحانك ربى سبحانك ، تعاليت وتعاظمت ، وتنزهت وتقدست ، وغبت وظهرت ، واوحيت وتكلمت ، لا لسان ولا آلة بذا نؤمن ، سبحانك واصطفيت من خلقك لخلقك هداة وقداة ، وأنبياء ومعلمين ودعاة ومرشدين صلى الله عليهم ، وصلى الله على نبينا وحبيبنا وصفينا سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا •

أوحى الله اليه بكتاب أحكمت آياته هو القرآن ، ليبلغ به عن الله ما يريد ، ويدعو الى ما فيه من ايمان وتشريع وأخلاق ونظام ، ولكى يصوغ البشرية صياغة جديدة ، قواعدها تقوم على دين الله الذى ارتضاه لعباده وأحكامها تنبع من آياته وتشريعه ، وسلوكها منضبط بميزانه وقسطاسه ، وطريقها يستند على الاقناع والحجة •

وكان من الممكن أن يأمر الله عباده فى كتابه بما يريد استنادا على أنه الخالق المبدع ، القادر المريد ، الفعال القهار ، فأن فعلوا نالوا الأجر والمثوبة ، والا خضعوا لألوان التعذيب فى الدنيا والآخرة ، وبذلك يكون اعلام الله خلقه بما يريد قائما على السلطة المطلقة لله وحده ، والتى تدعمها قدرة وارادة لا يقهران •

ولكن الله لم يفعل ذلك بل خاطب البشر خطاب المقنع ، وحاور وجادل ، ودلل وبرهن ، وأبلغ الرسل ذلك وكلفهم أن يقنعوا الأقوام بالبرهان قبل أن ينذروهم بالويل والعذاب ، وطالب العبد جميعا أن يعتمدوا على هذا النهج الاقناعى أو الاستدلالى وأن يطبقوا ذلك على كل قول أو فعل دينى أو دنيوى ، وأن يقيموا حياتهم كلها على أساس من الوعى والفهم والتعقل والحجية •

وازاء ذلك حدثهم من خلال عدة مجالات منها المحاورة ، والمناظرة، والمجادلة ، ونبههم الى أن تلك المجادلات وغيرها تخرج أنواعا من الأدلة منها ما هو قوى جلى وما هو متفاوت فى تلك الدرجة ؛ وربما كان السر فى ذلك هو أن الله أودع فينا عقلا من أهم خصائصه التعقل والتمييز والاستنتاج ، فأراد الله سبحانه أن يخاطب الانسان على حسب ما أودع فيه، ثم ينظر هل وعى جيدا فآمن عن قناعة ، أو تنكب الطريق وضل ، وبعد ذلك يكون الثواب أو العقاب •

وهذه الدراسة التى تحت أيدينا تعتبر حلقة مترتبة على سابقتها، وتكون مع غيرها سلسلة فكرية مترابطة ، تبدأ بنداء الله الموجه الى خلقه ، والذى يطالبهم فيه بالعبادة ، ثم موقفهم من هذا النداء ايمانا أو انكار ، ثم منهج القرآن فى تكوين واقناع البشر ، وبيان ما منحه الله لهم من قوى ادراكية ، ثم بعد ذلك تفصيل القول فى ملكات الوعى والادراك ومحاولة ترتيبها •

وحتى نصل الى ذلك نكون قد بدأنا الرحلة مع هذا الكتاب ، وذلك لأننا اذا علمنا أن لدينا ملكات قادرة على الوعى والاستنتاج فليزم عقب ذلك أن نتناول أهمية الاستدلال ومجالاته ، ثم نرتب أنواع الأدلة ، وأيها أدنى ، وأيها يليه حتى نصل الى قمتها وهو البرهان ، كل ذلك من خلال منهج واضح محدد هو الالتزام باللغة والاستعمال القرآنى ذاته •

وسوف ندخل بعد ذلك ان شاء الله فى دراسات حول أنواع الاستدلال القرآنى ومميزاته من الناحية الفنية ، ونعقب ذلك بدراسات حول مسائل الأصول كما توجد فى كتاب الله ، ويمثل للاعداد الآن عملين ارجو الله أن يوفقنا فيهما ، ويتعلقان بأنواع البراهين ومميزاتها ، وموقف علماء المسلمين من الاحتجاج بهذه البراهين ، ثم الحديث عن القضايا الثلاث فى القرآن الكريم : الألوهية — النبوة ، البعث ، وأملنا أن نسهم فى الكشف عن مسائل الأصول كما هى فى كتاب الله

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولقد سلكنا للوصول الى تلك المهمة مسلكا مكونا من مرحلتين •

الأولى تناولت الكتب التى تحت أيدينا ، وهى تخص مسائل الادراك والمعرفة ، والثانية سوف تبدأ بمشيئة لنخوض فيها غمار الأصول ومسائلها ، وفى كل نسأل الله سبحانه أن يرزقنا قلبا عقولا ، ولسانا سؤولا ، ونفسا طيبا ، وروحا صافية ، وخافا حميدا ، وأن يهبنا ايمانا راسخا ويقينا ثابتا ، ويمدنا بعلم من لدنه انه نعم المولى ونعم النصير •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د/ عبد الله يوسف الشاذلى

الرياض : ١٤٠٧ هـ
١٩٨٧ م

الباب الأول

ضرورة الاستدلال دائما

الفصل الأول

مسلك الأنبياء فى تثبيت الدعاوى

تمهيـد :

لقد زودنا الله بقوى ادراكية ، منها الحسى والعقلى ، وبملكات واعية متخصصة ، كما أودع فينا قلبا يمكنه أن يعرف بما يلقى اليه من علوم ربانية وبصيرية ، وقد تحدثنا عن كل ذلك فى كتابنا « المنهاج القرآنى » وفى « ملكات الوعى الانسانى » •

وما دمنا قد حصلنا على هذه القوى وملكاتها فلا بد أن تقـوم بنشاطها على الوجه الأكمل ، وأن تتجه بوعيها نحو الفهم العام الذى يخدم الحياة ، ويلبى احتياجات الانسان فيها ، ونحو الأنشـــطة الخاصة كالتعلم ، والاستدلال توصلا الى كسب المعارف العامـة ، ومعرفة الله بالذات •

والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى على الرغم من أنه منحنا تلـك الادراكات والقوى الواعية الا أنه علم عدم قدرتها على اسـتيعاب الأمور خاصة ما يتصل بالعالم الغيبى ، وصـفات وأفعال الخالق جل جلاله ، وما يفصل أحوال النفس البشرية ويهذبها ويربيها من عبادات وأخلاق ، وما ينظم علاقات الأفراد والمجتمعات من تنظيمات

فأسعف القوى الانسانية هذه بالوحى أنقاذا لها من السقوط ، وتجنيبا لأفكارها من التردى ، ولعلاقاتها من الانحطاط .

ولا شك أن الوحى تبصير للعقل ، وتزكية للنفس ، وترقية لها ، وتنظيم لجميع الشئون بين الجماعة ، كما أن القرآن بالذات تدريب للوعى الانسانى على أن يفكر بطريقة صحيحة ، وأن يجد ويتــرقى فى تفكيره ، وأن يوسع من نشاطه حتى يشمل الحياة وما وراءها ، ويلفت نظر العقل الى القول المدعم بالحجة ، وأنه لا ينبغى للبشر أن يدعوا شيئا ليس فى استطاعتهم تقديم البرهان عليه ، ثم هو يلمح أن بعض الأشياء قد يتوهمها العقل ولا يستطيع الاستدلال عليها ، وربما ظنها حقيقة وما هى الا محض تخريص أو افتراء ، وفى تلك الحالات يصحح القرآن خيال التفكير الشارد ، ويصوب من زعمه الفاســد ، ويقوده فى احتجاج دقيق الى حومة الحق ورحابه ، ويظل ينقله من حجة الى حجة حتى يلزمه بالمطلوب فينكسر غرور العقل ، وتنكشف غشاوته ، أو يستمر فى شبهه وباطله فيوضح له القرآن ما هو عليــه من زيف واستكبار ، وفساد وضلال كى يفىء الى رشده .

ومن الجــدير بالذكر أن القــرآن لا يطالب العقــل بأن ينشىء الاستدلال انشاء ولكنه يعينه على ذلك بوضع الأسس السليمة للتفكير، وتذكيره بالضرورات الواضحة التى يجب مراعاتها ، وقد يبدع لــه الاستدلال ابداعا ليخرجه من ورطة الجمود ، وأكداس الشبه ، وظلمات الزيغ ، وأكوام الغفــلات ، ولا يقتصر فى ســوق الأدلة على نموذج محدد ، بل ينوع فيها الى حد كبير وبأسلوب سهل معجز فى متنــاول العقول على تفاوت مراتبها ، وان ظل فى دقته وصياغته أسمى ممــا يتصوره المنطق العقلى ويقرره .

والدراسة التى تحت أيدينا الآن تتناول هذه الجوانب ، لأنها ستركز — بعون الله — على ضرورة الاستدلال بالنسبة لكل دعــوى ،

اذ لا يليق بنا وقد ملكنا كل هذه القوى أن نقول شيئا غير موثق بالدليل ، أولا نستطيع الاستدلال عليه أصلا لكون طبيعته لا تنهض بعبء الدليل ، ولا تستطيع أن تمد المقدمات بالقوة اللازمة لها ، وليس لها من الوجود ما يمكن اثباته فى حد ذاته •

وأيضا نتناول المصطلحات الثرية المرتبطة بالاستدلال ، ومفهوم كل مصطلح ، وما يتفوق به هذا عن ذاك ، ثم بعد ذلك نأخذ فى القاء نظرة جدية على التنوع فى الاستدلال القرآنى ، وأهم المميزات الخاصة به ، والتى ترفعه قدرا ويقينا عما سواه من صيغ المنطقية الانسانية •

وتعتبر تلك الدراسة امتدادا لما سبق فى بحوث « الدعوة والانسان » و «المنهاج القرآنى» و «ملكات الوعى الانسانى » فهى سلسلة واحدة تخدم غرضا معينا ، ولا تختلف الا من حيث الموضوع ، على أنه هو نفسه تتشابك جزئياته ومسائله لتصل بحلقاتها الى ما نبتغيه ، والمنهج المتبع فيها واحد ، هو الأحتكام الى النص وتحليله، والى اللغة وأصل وضعها ، والباحث مع ذلك راج عفو ربه ، سائل معونته وفضله ، مستمد منه القوة والتوفيق •

ظاهرة النبوة تحمل دليلها :

النبوة ظاهرة انسانية شاعت بين الخلق ، وظلت تتكرر ردحا من الزمن ، ولم نجد ظاهرة من الظواهر البشرية تكررت بنفس السمات والخصائص والأهداف والغايات مثل ظاهرة النبوة ، ان الدعوى التى قدمها كل نبى ، وأعلنها بين قومه ، وأوذى فى سبيلها ، وحاربه من حوله من أجلها هى دعوى الألوهية الواحدة التى بعث بها كل نبى ورسول يدعون من أجلها ، وكثيرا ما كانت الدعوى مصحوبة بتشريع الهى جديد وصحف تحمل فى طياتها تفاصيل الدعوى ، وأحكام التشريع كما تفصح عن مصدرها وأنها وحى من الله سيق الى نبى تلك الصحف ، كما تحمل بيانا واضحا عن السلوك ، وعن أحوال الآخرة ، وبالتالى

تتمثل عناصر الظاهرة فى بشر يعلن نبوته ، ومبادىء واضحة محددة أهمها الدعوة الى الوهية واحدة وتشريع جديد ، أو محمول على آخر قد سبقه ، ونظام أخلاقى ثابت ، والتأكيد على نهاية محتومة للبشرية يتم فيها الثواب والعقاب ، هذا مع ظهور خوارق للعادات على أيدى رجالها .

تلك هى عناصر الظاهرة التى تكررت ثم أستدل عليها الستار وختمت بسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكرار تلك الحالة بنفس العناصر الثابتة يمكن أن يحمل دليلا على صحتها فى مواجهة الماديين والتطوريين اليوم ، وذلك لأن نظرياتهم قامت على استقراء التاريخ الانسانى ، أو الاجتماعى ، أو الطبيعى ، وكشف ما فيه من أدوار متعاقبة ، ومراحل متعددة ، فنجد « أوجست كومت » و «دارون» و «ماركس» وغيرهم يبنون فلسفتهم الطبيعية والاجتماعية على أساس مراحل التاريخ البشرى أو الاقتصادى أو تطور الأشياء .

فهل درس هؤلاء ظاهرة النبوة فى مبادئها وظروفها ومنطقها ورجالها وسماتهم ومعجزاتهم فعلموا أن هذا الحشد الضخم من الأنبياء والمرسلين وما قدموه للبشرية من توجيهات فى مجالات الحياة المختلفة وما بينهم من وجوه الاتفاق فى الأصول والأخلاق وقضايا البعث لا يمكن أن تكون حالتهم تلك مرضية ، أو تكون ادعاء ، أو نتيجة خيال شاطح، لأنه لو صح ذلك لاختلفت عناصر الظاهرة طبقا لادعاء كل منهم وخياله وشطحه ودرجة تصوره ، وفوق هذا لو أنهم كانوا خرافيين لجاء كل منهم بخرافات تناسب عصره ولا تتشابه أو تتفق مع من سبقه أو لحقه والحال أن العصور متباينة ، أما وان الظاهرة قد اتفق رجالها فى صفاتهم ومبادئهم وطرقهم فهذا ما يعطى لها قوة اليقين والتسليم لمجرد أنها ظاهرة .

ولا يقلل من شأنها أن بعض البشر قد ادعاها فان من يقرأ تاريخ الصادقين ومسالك الكذابين يتبين الفرق بينهما تماما ، على أنه من

جانب آخر يمكن أن يقال ان عملية الادعاء فى صورها القديمة والحديثة ما هى الامحاكاة للظـاهرة الصـحيحة ، وان الكذابين كانوا ومزالوا يحاولون الحفاظ على اكثر العناصر الضرورية التى تتكون منها الصحة . ولكن نظرا لأنهم مدعون وكذابون فانهم يتركون من البصمات ما يدل على سوء حالهم وفسـاد تصـورهم ، وفى كل الأحوال كانت اخلاقهم ونظـامهم العـام والخـاص يدل على سـوء النيـة ، وعلى أنهم أدعيـاء ، ومـن يقـرأ حيـاة المتنبـئين ويـدرس أخـلاقهم . وما ساروا عليه فى علاقاتهم بغيرهم يدرك أنهم مرضى . وأنهم ضالون عن خط سير الظاهرة الصحيحة ، وهم مختلفون فى أقوالهم وأخلاقهم، وأنظمتهم وتكوينهم الشخصى عن الأنبياء الصادقين والمحققين .

وتقدم الظاهرة للانبياء الدليل :

ومع قولنا بأن ظاهرة النبوة تحمل دليلا على صدقها لوقوعها على وتيرة واحدة طبقا لعناصر متحدة الا أن العلماء اشترطوا لدعوى النبوة شروطا هامة ، منها أنه لابد فيها [من حجة وبرهان يعلم بها الرسول أن الله قد أرسـله](١) ، ويتأتى هذا البرهان أولا بخطـاب الله المباشر للنبى ، أو الذى يكون بواسطة ملك ، وفى كل حالة يتلقى فيها الرسول خطابا من الله بأى وسيلة كانت يعلمه الله بالضرورة أن الذى يخاطبه هو الله ، وأنه — أى هذا النبى — صار مختارا للبلاغ عن ربه بمجرد أن اصطفاه لذلك ، ويعرف يقينا أنه رسول مكلف من خلال الأوامر الصادرة اليه من الله .

وهذا يعنى أن عملية البرهنـة فى النبوة تبدأ من اقناع الأنبياء أنفسهم ، ومن نقطة اشباع الرغبة الذاتية لديهم فى الطمأنينة على أنهم قد اختيروا لذلك ، وتحقيقا لهذا فان البراهين التى تقـدم للأنبياء فى البداية تتجه الى ذواتهم ، وتطمئن قلوبهم . وتشعرهم شعورا قويا بأنهم قد صاروا أنبياء ، وتجعلهم يحسون أحساسا عارما دموقف

(١) البغدادى أصول الدين ، ١٧٥ — ١٧٦

داخلى جديد مغاير كل المغايرة لما كان عليه النبى قبل تلك الحالة الطارئة ، وبهذا يتحقق اليقين المطلوب فى نفوسهم ، ويصبح النبى مقتنعا فى قرارة ذاته بأنه أصبح مكلفا بمهمة خاصة ، ثم ينطلق من هذا اليقين أو الاقتناع الى الآخرين كى يبلغهم ما جاء به ، ويقنعهم بصدق رسالته .

وهذا ما حدث بالضبط للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فعندما نزل عليه جبريل أول مرة بسورة « اقرأ » حملها الى زوجته خديجة وهو لا يدرى عن الموقف الجديد شيئا ، وأخذت السيدة الجليلة تسأل أصحاب العلم وتستفتيهم فى الأمر ، فاتجهت به الى ورقة بن نوفل ، وسمع ورقة من النبى صلى الله عليه وسلم ما حدث ولأول مرة يسمع النبى أن تلك الحالة هى عين ما حدث للأنبياء قبله ، فاستمع الى تلك ، ولكن اليقين بصحة ما حدث له لا يتأتى من خلال اخبار بشرى بوجه شبه بين حالته وأحوال من سبقه من الأنبياء ، وان قلوب الرسل فى مثل تلك الأحوال فوق مستوى الأدلة التى تقدم اليها ممن هو أدنى منهم من عموم البشر مهما حمل الواحد منهم علما ، ولذا فهم يتطلعون الى تلك الذروة العليا التى يحسون بها فى أعماقهم كى تبعث اليهم باليقين من خلال أدلة صادرة منها وحدها .

ومن هنا ظل النبى صلى الله عليه وسلم على حالة من القلق والانزعاج ، وهو قلق وانزعاج قلبيان لا نفسيان ، والفرق كبير بين قلق القلب الذى ينشد اليقين أو زيادته مع سلامة النفس وصحتها وخلوها من كل علة واتصافها بالكمال فى الفضائل والشمائل ، وبين القلق الذى يساور النفس فيحدث فيها عللا وأمراضا تخل بتوازن الشخصية الانسانية ، وتفقدها الثبات والتصرف اللائق ، وفيه تصاب النفس بالرعونة والطيش .

فقول ظل النبى صلى الله عليه وسلم قلقا يريد زيادة اليقين ،

والتحقق من صحة نسبة الخطاب الصادر اليه ، وأنه خطاب الهى حقا ، هذا التحقيق الذى لا يثمره موقف واحد ولا يثبت بمرة واحدة مهما كانت شدة وقعها على قلب المخاطب ، ولذا فانه عندما عاوده جبريل مرة ثانية بنفس لغة الخطاب فى وحى جديد هدأ روعه ، واستقر يقينه ، وتأكد من أنه قد صار نبيا ، وعليه أن يستعد للقيام بعبء رسالته(٢) .

بدايات البرهنة اذا توجه الى الأنبياء فى ذواتهم ، وتتمثل فى خطاب الهى ، واحساس قوى بموقف جديد ويركز الوحى على افعام قلب الرسول ونفسه بما صار اليه أمر هذا الانسان المصطفى من البشر للبشر ، ويتوالى الوحى وتتوالى معه الأدلة ، وتتنوع تلك البراهين ، ويمد الله الأنبياء بفيض منها ، ويتعلمون بها كيف يحاجون الأقوام ، ويدخلون على نفوسهم من دوربها الصحيحة ، وتنضم براهين الاعجاز الخارقة للعادة الى الأدلة التى تخاطب العقل كى يحدث الجميع دلالات قوية على صدق النبى المبلغ ، فليس الأنبياء مفكرين يحاولون الاستحواذ على العقل ببراهين مصنوعة ، ولا هم سحرة يخطفون الأبصار بأفعال مموهة ، وانما هم صادقون يبلغون من الله وحيه الذى يحمل أدلة مقنعة للعقل السوى ، والذى يوحى بالخطاب للنبى أنه هو خالق النفس البشرية ويعلم مسالكها فيرسل لها من الحجة ما يمكن أن تقتنع به لو أصغت بوعيها على نحو جيد ، ولو أنها قد تخلصت من الصوارف التى تعوق قبولها للحق .

---

(٢) حقا ان حياة النبى قبل البعثة تحمل من الشواهد على أنه انسان غير عادى ، ولكن الفرق كبير بين التمتع بشخصية كبيرة بين الناس، وبشخصية فذة بين المحيطين به ، وبين أن تتحول تلك الشخصية العبقرية الى نبوة ، ان هذا التحول هو ما يحتاج الى برهان يثبت ذات النبى . ثم يقدم بعد ذلك دلالة على صدقه بين قومه . وهذا ما حدث عادة مع الأنبياء والرسل .

وتأتى المعجزات لتساند الأدلة العقلية فى بث اليقين الى النفوس وترسيخه فى القلب ، ولا تختلف مهمة المعجزة عن مهمة الدليل العقلى لا من حيث التلقى أو التأثير ، فجهة التلقى واحدة هى النفس البشرية التى تستقبل الدليل كما تستقبل المعجزة ، والعقل هوالذى يفكر ويتأمل فقرات الدليل ومغزاه ونتائجه ، وهو نفسه الذى يجئ انبهار النفس من المعجزة الى حالة تأمل شديد يخلص من ورائها عند سلامة الادراك الى أن هذا الحادث الخارق لا يمكن أن يكون فعلا بشريا ولا يظهر على يد كذاب ، وينتهى العقل من خلال نظره فى الدليل ، وتأمله فى دلالة المعجزة الى أن هذا الرسول صادق ، وان ما جاء به حق ، هذا لمن وفقه الله وأدار عقله بنصفة وحيدة وبعد عن المؤثرات الحاجبة .

والنبى مع هذا وذاك قد امتلا يقينا منذ البداية بأنه صار نبيا على وجــه الحقيقة .

ويقدم الأنبياء للأقوام البراهين :

ان مهمة الأنبياء ليست اخبارا مجردا يعلنون فيه عن رسالتهم وما تتطلب من أصول وفروع وأنظمة وســلوك وحســاب وعقاب أو ثواب ونعيم ، وانما هى مهمة بلاغ واخبار واقناع وبرهنة بشتى المبادىء الفطرية ، والأدلة العقلية . أن الله جلت عظمته حينما اختار الأنبياء ليبلغوا عنه لم يعامل الخلق بالقهر والقدرة فيرغمهم ارغاما على ما يريد ، ويضطرهم الى ما يشاء(٣) ؛ وانما عاملهم باللين والحكمة، ونظرا لأن التكليف منوط بالعقول لدى البشر فان وسيلة الاقناع فى خطاب هــذا العقل كانت وما زالت هى أنجح الوســائل وأقواها ، ولا تقتصر على حكم بعينه ، انما هى شاملة للأصول بدءا من الاستدلال على وجود الله حتى كافة المسائل المتعلقة بذلك ، وللفروع والأحــكام لاثبات أن شرع الله أحكم وأعدل من حكم الجاهلية ومنتجات العقل .

---

(٣) ولو اراد لفعل .

ان الدين فى كثير من الأحوال يحاول فى اقناعه للعقل أن يجعل موضوع الادراك شيئا غير العقل ذاته ، شيئا يتصل بالعقيدة وأبوابها، أو بالشريعة وأحكامها ، ولكنه فى بعض الأحيان يجعل موضوع الادراك هو العقل نفسه ، وذلك عندما ينبهه الى تقويم طريقته فى التفكير ، والى الشعور بمسئوليته ازاء وعيه ، وازاء الأفكار الصادرة عنه ، والى ضرورة أن يعرف العقل حدوده فى الادراك ، وانه مهما أوتى من قدرة فانها قاصرة ، ومهما استطاع التجول بملكاته فى الكون فان كثيرا وكثيرا من الأشياء ستظل بعيدة عن حكنة العقل فى غحصها واستيعابها والاحاطة بها ، ومهما كانت حصيلته العلمية من الوفرة فانها قليلة اذا قيست بما عليه الموجودات من حقائق ، وما تحويه من معارف، أو اذا قيست بعلم الله الاحاطى ، وكذلك فان الدين يبصر العقل بالأخطاء التى يقع فيها ، وتنزلق خطاه التأملية فى مهاميها ، وكم من الأوهام والخيالات تساوره فتغلف صفحته بسياج كثيف يحجبه عن رؤية الحقيقة كما هى ، أو كما تتراءى أمام أعيننا ممثلة فى مظاهرها وأفرادها .

وبالتالى فالمحاولات القرآنية لاقناع العقل شاملة للاستدلال المتنوع ، وتصحيح مسار التفكير ، والتنبيه على محدودية العقل وانتاجه ، ولفت النظر الى ما يقع فيه التفكير الانسانى من خضوع لمؤثرات مختلفة تصرفه عن تأمل الحقائق برؤية واعية .

واذا كان الأمر كذلك فيهمنا فى هذا المقام أن نشير فى عجالة الى أن منهج الاقناع بالأدلة هو طريق الأنبياء الذى سلكوه مع أقوامهم ، لقد سلكه نوح فى رسالته ، وجاءت السورة التى تحمل اسمه تبين ذلك بجلاء ، وتتحدث عن أنه كشف لقومه الغاية التى جاء من أجلها وأوضحها لهم تماما ، وتنحصر فى الدعوة الى عبادة الله واحد ، ونبذ عبادة الأصنام ، وأنهم ان فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم ، وفازوا يوم الأجل المضروب ، وظل نوح يلح عليهم ليلا ونهارا وسرا وجهرا ، ويدعوهم بكل وسيلة ممكنة ، وفى كل زمن متاح .

وكان من أبرع الطرق التى سلكها ما قام به من استدلال شامل للنفس والكون كله ، حيث ذكرهم بأن الله هو الذى خلقهم أطوارا حال كونهم أجنة وبعد ولادتهم ، تماما كما خلق السموات طباقا(٤) ، والمناسبة بين أطوار خلق الانسان وطباق خلق السـموات من حيث أن خلقنا يمر بمراحل ، وكل مرحلة لها خصائصها ، وأن السـموات تتكون من بروج وكل برج له طبيعته وتكوينه ، ولقد زودنا الله سبحانه بقوى مدركة واعية تستنير بالعلم كما جعل القمر نورا والشمس سراجا، فنحن وان كنا ترابيين انبتنا الله من الأرض نباتا ، وأسكننا فيها بعد ما جعلها لنا بساطا ، وشق فيها سـبلا فجاجا فاننا علويو المعرفة ، نحمل بين جوانحنا قلبا ذا بصيرة ونفسا شفافا ، وعقلا دراكا •

ويبدو من خلال الاستدلال هذا أن الحديث عن النفس والكون ، بسماته وارضه مد تشابك تشابكا يوضح ظاهرة غامضـة ، ويكشف محسوسه عن معقولة ، ويهدى معلومه الى مجهولة ، ويدل ما ظهـر لنا منه على ما غاب عنا وراءه وتضغط ألفاظه على المقصود من معانيه ومراميه فان الألفاظ فى مدلولها اللغوى بمشتقاتها وبلاغتها ، وفى صياغتها وتركيبها بين آيات القرآن الكريم تقوم بمهمة كبرى فى أداء الغرض المعنوى أو الاستدلالى ، وعلى الصياغة ووضعها من الأفراد وغيره ، أو التذكير أو التأنيث ، أو التقديم والتأخير الى آخره يتوقف عليها كثير من جوانب فهمم النص ، كما تتضح المميزات له ، ولا عجب فالأسلوب القرآنى هو أحد وجوه الاعجاز •

واذا كان اللغويون يتفننون فى ابراز جمال الأسلوب وغنيته بين التراكيب القرآنية فليست تلك مهمتنا ، بل الذى يهمنا اتقان اللفظـة واحكام وضعها لتدل على معنى مقصود ، وعلى سبيل المثال فلننظر فى ألفاظ الاستدلال عند سيدنا نوح ، ولنحدد ذلك فى لفظتين اثنتين

---

(٤) نوح: ٢ — ٢٠ •

وردتا بين دليلين خبريين هما قوله جل شأنه[**والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا**](٥) ترى أن الفعلين فى الآيتين رباعيان «أنبت ويخرج» ولكن المصدر المؤكد فى الأولى جاء «نباتا» وليس انباتا ، بينما جاء فى الآية الثانية على بابه فقال «اخراجا» وهـذا يحفزنا أن نتأمل دلالة ذلك وعلاقته بالمعنى البرهانى فى الخبـرين ، ومدى الدقة التى تكتسبها عملية الاستدلال من خلال التركيب اللفظى واشتقاقه لا من خلال وضع المقدمات وصياغتها حتى لتبدو لنا بعـد التأمل الذى تقوم به أن المنطقية القرآنية هى منطقية لفظية ذات مدلول معنوى مقصود ، وهى أوضاع ألفاظ فى تراكيب منسجمة مع تقديم وتأخير ، واشتقاقات متنوعة ترمى لمفاهيم محددة ، يتمايز فيها ما لله وما للخلق ، وتتحدد فيها العلاقات بدقة ، وليست المنطقية القـرآنية صياغة ضروب جافة لا تتغير مع هذا أو ذاك ، ولا تتحرك على بساط المعنى حركة معنوية مؤثرة ، أو حركة فعالة تخاطب اللفظة بمعنـاها أرجاء النفس وجنباتها ، وتضرب على أوتار العاطفة والوجدان كما تغزو حصون العقل وتفتح دروبه مثل تلك التى تقـوم بها اللفظـة القرآنية وهى تتحرك بمفهومها حركتها الابداعية الجميلة ، والمؤثرة فى أعماقنا حتى ولو كان المستمع كافرا كما حـدث للوليد بن المغيرة ، وقد استمع الى صورة استدلالية من آيات سورة فصلت •

وقفـة تأمل اسـتدلالية :

انما فصلناها عن سابقتها تيسيرا للفهم ، ولنحصر أذهاننا مع الدقة البالغة التى سارت عليها المنطقية القرآنية فى التغاير التنوعى بين كلمة « نباتا بعد أنبت » وكلمة « اخراجا بعد يخرج » ويمكـن الاشارة الى ذلك بما يمن الله به علينا من فهم لطبيعة الخبرين •

---

(٥) نفس السورة ١٧ — ١٨.

أما بالنسبة للخبر الأول فاننا قد ألمحنا الى أن خلق الانســان يتم فى تطور حال كوننا أجنة وبعد الولادة ، ونحن ننتقل من النطفية الى العلقيــة ، الى المضغية الى العظامية ثم اللحميــة ، ثم النفخــة والروحية ، وبعد الولادة نمــر فى تكويننا عبــر الطفولة الأولى الى الثانية ، الى الغلمانية ، الى المراهقة ثم الشبابية ، ثم الشيخوخــة ثم نعود أدراجنا هابطين لنأخذ فى طريق الضعف ، ولو جاءت اللفظة «انباتا» لأشعرت بأن المجىء بسرعة فائقة لامكان للتطور بين ثناياها ، فهو سبحانه ينبتنا انباتا سريعا .

وللبشر خــلال فترة التكوين بعد الــولادة نوع من الحرية فى التصرف والكسب والتربية والتنشئة ، والأغراض والأهداف ، والحرف والصناعات ، ولهذا ناسب أن يأتى المصدر « نباتا » كأنه جــاء من نبت نباتا ، ونبت تشير الى تلك الحــرية ، ونظــرا لأن الله جل جلاله لا يريد التصريح بقوله « نبت نباتا » مثلا حتى لا نظن أننا هــكذا نبتنا بدون منبت وخالق فغاير بين الفعل هنا والمصدر ، وجاء الفعــل رباعيا ليسند الانبات الى الله وحده وجاء المصدر « نباتا » ليلمح الى ما ذكرناه من التطور والحرية ، وأيضا فان كثيرا من البشر يؤمن باننا مخلوقون والمناسب مع حالة الايمان هو « نبات » لا انبات ، لدلالــة الانبات على القسرية ، وطالمــا كنا مســلمين بذلك فلاداعى لابراز القسر فى السياق .

وهكذا يجمع الخبر بين اسناد الفعل لله ، واثبات التطور والمرحلية فى التكوين ، والاشعار بجانب من الحرية فى هذه الأحوال ، ويتمشى النص مع عقائد الناس فى الاقرار والانكار ، فمن أنكر عومل بالفعل «أنبت» ومن أقر عومل بالمصدر «نباتا» .

وهكذا بخلاف الخبر الثانى الدال على الاخراج فان كثيرا من البشر ينكرون الاعادة ، والبعث لايتم على مراحل انما يتم فى زمن نفخة واحدة يقوم بها اسرافيل يصدر الله فيها الأمر التكوينى بالاحياء ، ولاخيار

لنا حال البعث أو بعده فنحن مقهورون الى مصير واحد ، ومسوقون اما الى الجنة واما الى النار ، ولهذه الاعتبارات كلها جاء الفعل يخرجكم فى المستقبل ، وجاء المصدر مؤكدا من الرباعى لوقوع البعث حقيقة وفى لحظة واحدة « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب »(٦) [**وما أمرنا الا واحدة كلمح البصر**](٧) .

هكذا ساق القرآن استدلال نوح فى البدء والاعادة بقوة ووجازة لا تخل بالمقصود ، ولكن قومه كانوا غلاظ الأكباد قساة القلوب ، فلم يلينوا لقول ، ولم يستجيبوا لموعظة ، ولم يفكروا فى استدلال بل ملوا الحاح نوح وقالوا له [**يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا**](٨) ، ومن ثم اضطر فى النهاية بعد تكرار المحاولات ، وبعد عمر مديد وجهد جهيد أن يدعو عليهم بما طلبوه من استعجال العذاب ، فكان ما كان من مسألة الطوفان .

---

(٦) النحل ٧٧

(٧) القمر ٥٠ ، واود القول بان المنطقية القرآنية كما هى دقيقة فى الاستدلال هى كذلك فى آيات الأحكام خذ مثلا قوله تعالى [قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون] ووازن بينها وبين قوله سبحانه بعد ذلك [والذين هم على صلواتهم يحافظون] تجد ان الآيتين الواردتين فى الصلاة يشتركان فى لفظتين هما (الذين) (هم) ، ويختلفان فى ثلاثة (فى) مقابل (عن) و(صلاتهم) بالافراد مقابل (صلواتهم) بالجمع و (خاشعون) اسم فاعل مقابل (يحافظون) فعل مضارع ، وذلك لان الآية الأولى يريد الله ان يجعل المسلم مظروفا فى صلاته لا تفارقها بشعوره ولا بقلبه ولا بفكره ، ولا يخطر بباله شىء طالما فى صلاته ، ويلزم ان تكون تلك الحالة ملازمة له فى كل صلاة ، ومن ثم افرد كلمة صلاة ، ولاشعارهم ان الصلاة لهم ومنفعتها عند الخشوع تعود عليهم فقد اضافهم الى ضميرهم ، ولا يتسنى أن يكون الخشوع فى الماضى او المستقبل بل يلزم أن يكون حالة يتلبس بها المسلم فى كل صلاة ولذا جاء باسم الفاعل ، بخلاف الآية الثانية فيلزم فيها أن يكون المسلم قائما على امر الصلاة متذكرا لوقتها فجاء بلفظة على ، ولا بد أن يحافظ على جميع الصلوات فمن ثم جمع ، وأن يطرد ذلك فى مستقبل العمر ابتداء من سن التمييز والبلوغ ولذا جاء بالفعل المضارع والله أعلم .

كل قـول له دليله فى ساحة النبوة :

نعم هذه حقيقة مطروحة تجدها حال كل نبى وطريقته ، فما من دعوى أصولية أو شرعية عامة الا وقدم الرسل أدلة عليها ، والقرآن الكريم يستغرق فى عمليات الاستدلال قـدرا كبيرا جدا من آياته ، ويرجع السبب الأساسى فى تقديم البراهين الى أن المسائل التى تناولها الأنبياء ذات وجود حقيقى يقبل بطبيعته قيام دليل عليه ، ولـو أن أيا منها كان وهما ما استطاع أحد مهما أوتى من الفطنة أن يعثـر على حجة تسـنده أو تثبته .

ويجب أن ننتبه الى أن عمليات البرهنة التى يقوم بها الأنبيـاء تعود بمصدريتها الى الله فى اللفظ والمعنى كالقرآن أو فى المعنى فقط كالحديث النبوى ، وتكون الحقيقة الأزلية هى التى تدلل على وجودها بمنطقها الخاص، أوبمفاهيمها المحددة : بعكس الشريك الموهوم فلم نسمع أن معبودا غير الله دلل على وجوده ، كما يبرهن الحق جل جلاله على ظاهرة النبوة بأدلة كثيرة يسوقها الرسل بمنطق الوحى لا بمنطقهم هم، والله هو الذى يدافع عن النبوة فى الصورة البشرية بحكمته لا بلغة هؤلاء المبعـوثين .

وحتى فكـرة البعث وهى سـمعيته لا يلزم القرآن بها البشر الزاما ، ولا يحجر على عقولهم فى معرفة الاستدلال، وانما نجـدها قد نالت حيزا كبيرا من اهتمام القرآن وبراهينه ، حيث يخبر عـن وقوعها اخبار ، ويفصل ما يجرى فيها تفصيلا يبعث اليقين فى النفس الى أن النهاية حقيقية ، وأن هذا اليوم لابد آت ، ولو لم يكـن كذلك فمن أين للانبياء بتلك الحقائق التى يتحدثون عن وجـودها مصاحبة للبعث ، أو لاحقة له ، وهل يمكن أن يخترعوا ذلك اختراعا ، أو يتخيلوها تخيلا ، والحال أن هذا العالم الذى يتناولونه لم تقـع أبصارهم عليه ، ولم تخط أقدامهم بين ربوعه اذا استثنينا من ذلك حادثة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعروف أن الذين

يتوهمون أو يتخيلون إنما يستندون فى أوهامهم أو خيالاتهم على أمور شاهدوها وأحسوها ، ثم قاموا بتحسين ، وتجميل لما شاهدوا ولمسوا ، ويمكن أن نتذكر فى ذلك المدن الفاضلة التى حلم بها الفلاسفة، فلم تعد أن تكون عالما واقعيا محسنا ولم تتجاوز عناصر تكوينها ما نشاهده من الأرض والبشر ، والحاكم ، والثقافة ، والعلاقات ، ولكن الفيلسوف قام بصياغة العناصر وعلاقاتها صياغة معينة ، وركبها تركيبا خاصا أحدث منه مدينة أو دولة خيالية ، وكذلك ما يصنعه خيال الشعراء فهو صورة جميلة لعالم أو مناظر أو مظاهر ، أو صلات موجوده بالفعل ، وقس على ذلك ما يدبجه الفنان بريشته •

وأما العالم الذى حدثنا عنه الأنبياء فى الآخرة فهو يختلف تماما ، والأمور التى تجرى فيه ليست على النسق الذى نشاهده ، ولا تخضع لسنن الحياة التى نعيشها ، بل ان هذا العالم لا يقوم الا على أنقاض وتبدل عالمنا نحن ، وكل ما فيه من حياة تختلف عما لدينا ، الوجود ، والديمومة ، والزمان ، والمكان ، والضوء ، والليل والنهار ، والعلاقات والتكاليف ، والعمل وغيرها ، كل ذلك مختلف تماما ، والرسل يحدثوننا عن صورة جديدة كل الجدة ، فلا يمكن أن يكون هذا من باب التسامى فى الخيال ، ولا هو حلم جميل طاف بخيال أصحابه فى ليلة أثيرية بين مضجع هادىء وثير ، كلا انه حقيقة، وأحداثه التى يتناولونها بالحديث تدل فى حد ذاتها على أن الأمر جاد وواقع لا محالة •

ومع هذا كله فهم يسوقون من الوحى أنواعا كثيرة من الاستدلال كالتمثيل ، وتشبيه الاعادة بالبدء وكتلك الحوادث الواقعية التى أوجدها الله خصيصا للتدليل على البعث ، مثل حادثة قتيل بنى اسرائيل واحيائه ، وكالذى مر على القرية وغير هؤلاء •

ولسنا نخوض فى الأدلة المتعلقة بالألوهية أو النبوة أو البعث فلها دراسة خاصة بها ان شاء الله تعالى ، وسوف نعرضها بتفصيل ،

والقرآن الكريم غنى جدا بهذه الحجج ، سواء منها التى وردت خلال الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، مثل ابراهيم ولوط وموسى ، أو تلك التى وردت بالأصالة تخص رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم والجميع يعتبر واحدا فى لفظه ومعناه وأهدافه .

لقد أوتى ابراهيم ملكوت السموات والأرض فى رؤية معرفيه تؤدى الى اليقين ، وتنقل من دليل الى دليل ، ومن النجم الى القمر الى الشمس ليبطل عبادة غير الله ، وحاجج النمرود ، ولما ضاقوا بجدله ذرعا ألقوه فى النار فكانت حتى تلك الحادثة برهانا جديدا فى وجه من [illegible] النيران ، وذلك عندما تساعده يخرج منها مرتديا ثوب العافية والعصمة والبراءة ، ويمشى أواها منتصرا[9] ، وكذلك جادل لوط ، حتى هؤلاء الملائكة الذين جاءوا ليخبروه بانتقام الله من قومه جادلهم وراجعهم .

ونحن نعلم أن موسى أيده الله بمعجزات كثيرة ، ومع ذلك لم يبدأ بها فى دعوته لفرعون ، وانما قدم الأدلة العقلية ليبين لهذا الملك وقومه الحقائق المتصلة برب العالمين ، وأنه رب السموات والأرض ، ورب المشرق والمغرب وما بينهما ، ولما أدير الحديث مع القوم أخبرهم أنه سبحانه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ولم يترك هذا الحوار البرهانى الا بعد أن هدده فرعون بالسجن أو يتخلى عن ذلك فانتقل عندئذ الى البراهين المعجزة ، وكان من أمر السحرة ما هو معروف[10] ، وليس هذا فقط بل أن موسى حاج آدم فى مسألة الأكل من الشجرة ، وانتصر آدم فى الاحتجاج على موسى كما جاء فى الحديث . .

وفى تنويع الأدلة من الأنبياء للأقوام ، واستعمال ذلك ذلك حتى مع الملائكة ما يؤكد منهجية الاستدلال لدى هؤلاء ، وأن النبوة

---

(٩) البقرة ٢٥٨ ، والأنعام ٧٥ — ٨٠ :
(١٠) الشعراء ١٦ — ٣٣

لا تتنافى مع الاقناع ، وأن طريقها الصحيح هو افحام العقل ومخاطبته بلغة يعيها ، وتتفق معه ، ومع قدرته ، وان الرسل قدموا على كل قول دليلا يقول القرطبى [وهذا كله تعليم من الله عز وجل السـؤال والجواب ، والمجادلة فى الدين لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل الا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل] (١١) وشبه أنصاره •

تثبيت الدعوى بالدليل أظهر ما يكون عند نبينا محمد :

من المعروف تاريخيا عن الأنبياء أن دعواتهم غلب عليها الطابع الاعجازى ، وأن براهينهم كانت أيات خارقة للعادة ، قدمت الى النفس لتحدث الانبهار ، ثم تدعو العقل توا أن يفكر فيما حدث هل يمكن أن يكون من فعل البشر ـ واذا قاموا بالمحاورة أو المجادلة أو البرهنـة لاقناع العقل بصورة معرفية تختلف فى طريقتها عن براهين الاعجـاز فان تلك الطريقة غالبا ما كانت محدودة اذا قيست بما عليه الحـال عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن معجزته الرئيسـية التى تحدى بها هى القرآن ، وبقية المعجزات الحسية جاءت لمناسبات معينة ، وما أعلنها النبى فى صورة يتحدى بها ، ولكن فى صورة تحفز على اليقين ، أو تزيده وتثبته •

وأما المعجزة العلمية التى تحدى بها فعلا فهى القرآن ، تلـك المعجزة التى حملت دليلا على قضية مثارة ، ولقد قصت أحوال الأنبياء ومواعظـهم ، والعبـرة والأدلـة التى قـدموها للأقـوام ، وما دار بينهـم وبـين أممهم من مجـادلات ومحـاورات ، وما حدث من آيات واضحة لرجال لهم كبير فضل ولكن ليسوا بأنبياء ، وزاد القرآن على كل ذلك أدلة يؤكد بها القضايا المثارة سـلفا مثل الألوهية ووحدانيتها ، ونفى الشريك ، واثبـات النبـوة والبعث فى مواجهة المنكرين ، وأبدع فى ذلك وشعب بطريقة لم يسبق بها فى كتب

---

(١١) انظر تفسير القرطبى ج٢ ٢٨٥ — ٢٨٦

سابقة ، كما ساق براهين لقضايا استحدثت مثل نبوة عيسى وتأليهه .

والقرآن الكريم اذ يتناول هذا كله يختلف تماما عن الكتب السابقة ، لأنه جعل من الادراك موضوعا يعالجه من جميع جوانبه ، فهو يحدثنا عن مداركنا الواعية ، وأن الله أنشأها فينا انشاء بقصد تحصيل العلم بها وأنه لو أراد أخذها ما استطاعت قوة أن تردها ، ويعرفنا بأنواع قوى الادراك فينا من حسية وعقلية وقلبية ووهبية ، كما يبصرنا بالطريقة الصحيحة التى يمكن أن تعمل بها تلك القوى ، ومدى مسئوليتها فى ذلك ، ويكشف عن العيوب والمؤثرات التى تعرقل عمليات التفكير وتعوق سيرها نحو النتائج الصحيحة ، ويربط بين صحة التفكير ودقة نتائجة وبين ماهو مستقر فى أعماق نظرنا ، كما يوضح العلاقة بين انحراف التعقل وسوء النتائج وفسادها وبين تغير الفطر نتيجة فساد التربية والتنشئة ، وتراكم الآراء السائدة من حولنا ، وتأثيرها على عقولنا وفطرنا معا .

وبعد أن يضع نظرية المعرفة فى وضعها الصحيح ويرسم لها الطريق بالشكل الذى المحنا الى خيوطه لا يدعهم لقواهم وانما يسوق اليهم الأدلة تلو الأدلة ، وتأتى سور بأجمعها تختص بالبرهنة على قضايا متعددة ، أو تستأثر عملية الاستدلال بأجزاء كبيرة من سور أخرى ، ولا تكاد سورة كبيرة أو صغيرة تخلو من طريقة جيدة من طرق الاقناع سواء فى شكل برهان ، أو محاورة ، أو مجادلة ، أو قصة ، أو موعظة ، وربما تحدثوا عن سورة الأنعام وما كانت عليه من طول ثم نسخت الى المقدار المتواتر الينا ، وكلها غالبا استدلالية اذا استثنينا بعض آيات منها تتحدث عن الحلال والحرام من الذبائح ، وربما قال النبى صلى الله عليه وسلم عقب سورة أخرى [شيبتنى سورة هود] لكونها تحمل قصص الأنبياء ، وأمر بالاستقامة اليه : ولقد قال بعد آية التفكر فى خواتيم سورة آل عمران [ويل لمن قرأها

---

(١٢) الآية ١٩٠ وما بعدها [ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب] .

ولم يتفكر فيها] أو [لم يتدبرها] وبكى النبى صلى الله عليه وسلم بكاء شديدا ، ونظرا لشيوع الاستدلال فى القرآن صح أن يتسمى بالبرهان على أحد أوجه التفسير (١٣) .

ولما كان القرآن بهذا الشكل من التمايز صح أن يوازن النبى بينه وبين مناهج الدعوات السابقة فيقول [**ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله أمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**] (١٤) ، ويعلق ابن حجر فى شرحه للحديث بقوله : ان المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا (١٥) ، ولا يخفى أن مشاهدة القرآن بالبصيرة والتعقل لا تتصل بالجانب الاعجازى فى الأسلوب أو الاخبار بالغيوب فحسب وانما ترتبط ضرورة بما يقدمه القرآن من أدلة وبراهين قوية تقنع من نظر فيها ، واننا نرى اليوم كثيرا من المهتدين الذين لا يتذوقون اعجاز الأسلوب ، ولامكان للأمور الغيبية مسبقا فى أذهانهم يؤمنون بالقرآن وبالاسلام ، وذلك لما حمله القرآن من مناقشة جادة وقوية ومؤثرة فى النفوس ، أثرت على كثير من أهل الفكر مثل « جارودى » الفرنسى ، ومن أساتذه الأديان الأخرى مثل ابراهيم خليل استاذ اللاهوت المسيحى المعروف الذى شرح الله صدره للاسلام .

---

(١٣) وقد ورد ذلك فى تفسير قوله تعالى [يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا] النساء ١٧٤

(١٤) البخارى : كتاب فضائل القرآن ج٦ ٩٦ ومسلم باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ج٢ ١٨٦ شرح النووى .

(١٥) فتح البارى ج٩ ٦ .

. هكذا حمل القرآن أدلة وحججا من الناحية النظرية ، ومن الناحية التبليغية والتطبيقية فان النبى صلى الله عليه وسلم قد استعمل هذا المنهج أبرع استعمال ، وذلك حين عرضه على الناس ، وحين طبقه فى المناظرة والمحاججة ، اننا نعرف أنه صلى الله عليه وسلم ناقش وجادل كفار قريش فى مكة ، وأن طابع الوحى المكى كان استدلاليا لاتشريعيا ، أوقل كان أصوليا عقديا بحمل الأدلة الوفيرة على المسائل الخاصة بالعقيدة ، وانه كثيرا ما جادل النبى قومه ، أو أفرادا منهم كابن الزبعرى والنضر بن الحارث ، وفى المدينة ظل أياما يناظر وفد نصارى نجران ، وكانوا قرابة الستين ، وفيهم الأشراف والأسقف والعالم والعاقب والملجأ والغياث ، أى أنهم كانوا مستعدين تماما لتلك الجولة بكافة التنظيمات والاحتياجات ، وطالت أيام المناظرة حول موضوع واحد هو زعمهم بأن عيسى ابن الله ، ورسول الله يرد عليهم بالبراهين الساطعة على حد تعبير القرطبى ، ولما لم يبصروا الحق قرأ عليهم ما نزل من أول سورة آل عمران ، ودعاهم الى المباهلة(١٦) .

. وعلم النبى صلى الله عليه وسلم أمته ألا يتخلوا عن أمرهم فيه ، أو يقبلوا شيئا جديدا ، أو يسلموا بدعوى الا أن تسطع عليهم انوار البرهان القوى ، فقد روى عبادة بن الصامت قال : دعانا النبى صلى الله عليه وسلم فبايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله [الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان](١٧) ، وهو السنة والآية التى لا تحتمل التأويل ، وهو الحجة الظاهرة القاطعة التى لا لبس فيها ولا غيوم .

فلا غرو بعد هذا أن نجد من يقرظ النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١٦) التفسير ج٤ : ٤ .

(١٧) البخارى ج١٢ ١٥ ، ومسلم ج٣ ١٤٧٠ (١٧٠٩) وشرح السنة للبغوى ج١٠ ٤٧

يصفه بأنه نبى الاستدلال والحجة ، وذلك مثل السعد التفتازانى الذى يقول عنه [انه أعلى من الدين معالمه ، ومن اليقين مراسمه ، وبين من البرهان سبيله ، ومن الايمان دليله ، وأقام للحق حجته ، وأنار للشرع محجته] (١٨) وفى مقدمة كتاب « مقالات الاسلاميين » يقول محققها الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد : انه صلى الله عليه وسلم قد [أقام الحجة ، وأيقظ العقل وأذاع فى الناس سلطان هذا العقل الذى حقروه ، وحاكمهم اليه ، ودعاهم الى نبذ التقليد](١٩) وبهذا الايقاظ وتلك الاذاعة للكات التفكير صعد صحابته [ذرى الحقائق بأقدام الأفكار ، ونوروا سبع طرائق بأنوار الآثار] (٢٠) ، وتعلموا كيف يحلون أعقد المشاكل ، وأصعب المواقف الفكرية والسياسية عن طريق الحجة والاقتناع بها •

فهاهم يوم السقيفة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى يختلفون حول الخلافة ، يرى الأنصار أنهم أحق بها ، ويرى المهاجرون أنهم أولى لسبقهم ، ويصعد أبو بكر خطيبا فيبين بالحجة من أحق بها وينزل الجميع على سلطان البرهان ويبايعون أبا بكر رضى الله عنه لما علموه من أن الخلافة من قريش بالنص ، وأن أبا بكر أول من أسلم وقدمه الرسول الى الامامة ، كما تناظروا فى ما نعى الزكاة وفى حروب الردة وتسطع أنوار البرهان لتزيل سحائب الرأى ، ولتبدد كل قول ، وتجمع المسلمين على حكم واحد وخليفة واحد ، وبالحجة وحدها يصدر الحق فى أهله على حد تعبير القرطبى(٢١) بعدما ساق بعض تلك الوقائع ، وقرر أن التدافع والتجادل والتناظر كان طريق الحق ، وسبيل الاتفاق •

---

(١٨) شرح المقاصد ج١ ٣
(١٩) مقالات الاسلاميين ج١ مقدمة المخوق : ٧
(٢٠) شرح المقاصد ٣
(٢١) التفسير ج٢ ٢٨٦

ما مغزى طلب الأقوام البرهان من الرســل ؟

قد يقال اذا كان الرسل قد قدموا على دعاويهم براهين قاطعة[٢٢]، وأقاموا أمام الأقوام حججا على كل قول ، وأن أمارات الصدق كانت بادية على تصرفاتهم وسلوكهم فما معنى أن يطالب الأقوام بالدليل ، وأن يعلن قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم أمام الانبياء قائلين لهم [ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبــد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين][٢٣] وهذا الاعلان في الظاهر جرى على رغبــة العقل فى معرفة الأشياء بدليلها ، وعدم التخلى عن المواقف السـابقة بــدون برهــان .

صحيح أنه يبدو هكذا فى الظاهر ولكن عند دراسة الحقيقة ، وفحص الموقف من جوانبه المتعددة يتضح لدينا أنهم قد قدم لهم أدلة كافية ووفيرة ، وقبل زعمهم هذا وبعده توالت الأدلة تثبت امكــان النبوة للبشر ، وانما نشأت مطالبتهم بالسلطان المبين من الخضــوع للهوى ، وتأثير الأسلاف على عقولهم ، ولو سلموا من هذا لادركوا الحقيقة ناصعة من بين الأدلة التى اســتمعوا اليها وعرضــت على أذهانهم ، وما طلبوا الحافا فى الدليل ، وأيضا فان اصرارهم عــلى الزيادة فى الاستدلال لاينبع من رغبة أكيدة فى الهداية ؛ بحيث لوقدمت اليهم براهين أنصع وأكد لتخلوا عما هم فيه الى الدين الجديد ، ولكن ينبع من تعنت وصلف ومجاوزة لحد المطلوب من الاستدلال ، وتحدى الأنبياء كلما أتوا بدليل وأية طلبوا غــيرها وزيادة ، وفى كثير من الأحيان كان طلبهم للمزيد من البرهنة فرارا من لازم الحجــة التى يسوقها الأنبياء أمامهم ، ولو أن الأنبياء علموا صدق الرغبة فى طلب الدليل لتغير الحال .

---

(٢٢) نحن نــرى أن الدليــل الخبرى بكل انواعه يقينى وقاطع وليس ظنيا كما يرى كثير من المتكلمين وسوف نبين ذلك فيما بعد .
(٢٣) هــود ٩ — ١١

ولكن أما وحال المنكرين على هذا الشكل من اللجاج والعناد فقد رد الأنبياء قائلين [وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله] ، ان المسألة تتوقف على مشيئة الله الذى أرسلنا ، ولا تتوقف على ارادتنا أو ارادتكم(٢٤) ، فهو وحده الذى يعلم صدق نواياكم ، والحاجة من الاستدلال ، أو الحكمة من الآيات فيعطى أو يمنع حسب علمه .

وفى هذا الصدد أفهمهم الأنبياء أنهم لا يستطيعون تقديم دليل من تلقاء أنفسهم ، ويمكن أن نعتبر التوقف عن الاستجابة لطلب الأقوام فى تقديم الدليل برهانا قويا من وجهة نظر معينة ، وتتلخص فى أن التوقف انبنى على ما تصوره الأقوام — خطأ — من أن الأنبياء بشر مثلهم فأنى لهم بالنبوة ، وكيف يخاطب البشرى المولى عز وجل وبالتالى فما جاءوا به انما هو دين جديد صنعه الأنبياء من عندهم ، ومن ثم كان لابد أن يتوقف هؤلاء عن الاستجابة لرغبة الطالبين للدليل ، وأن يفهموهم أنهم لا يقدرون على سوق دليل متى طلب منهم ذلك ، لأنهم انما يبلغون ما يوحى اليهم لا ما يصدر عن نفوسهم وأهوائهم ، ولو كانوا مدعين لطاوعوا الأقوام فى كثير من رغباتهم ، ولاخترعوا لهم من الأمور ما يرضى أمزجتهم ، من تلك الوجهة وعند التسليم بها يلزم أن نعتبر التوقف عن الاستجابة واسناد الفعل الى الله دليلا بالسلب يناسب الموقف ، ويرد على دخائل نفوس الأقوام .

---

(٢٤) البيضاوى انوار التنزيل ج٢ ١٥٧ ، وتفسير القرطبى ج٩ ٣٤٦–٣٤٧

الفصل الثانى

بطلان القول بلا سند

وعلى الجانب البشرى الآخر رفض القرآن أى طريقة من طرق النظر أو الجدل لا تتوافر فيها الشروط اللازمة لتقديم الدليل ، ولا يتصف المناظر أو صاحب الدعوى بالقدرة على ذلك ، ونبه القرآن الى أن الجدل فى الله أو فى صفاته وآياته أو فى غيرها لا يجوز بناء على التقليد للغير ، والمقلد ليس أهلا للتناظر أو البرهنة سواء قلد الغير بدليله أو بدون الدليل ، واذا لم يقبل القرآن جدل المقلد فمن باب أولى لا يقبل جدل الجهال الذين لا يرجعون فى محاولتهم الى علم ، ولا يعضون فيه على ضرس قاطع ، وليس لديهم المام بطرائق البرهان ومقدماته ، ولا ينزلون فى نظرهم على النصفة ، وانما يخبطون خبط عشواء دون تفرقة بين الحق والباطل .

وكذلك رفض القرآن النظر المبنى على الظن والتخمين ، أو القائم على شبهة أو هدى واستكبار ، واذا رفض كل ما سبق فقد اشترط أن تبنى المناظرة على العلم بكافة جوانبه ، أو العلم الضرورى خاصة ، وعلى هدى من الاستدلال الصحيح ، والبرهنة العقلية الواضحة ، أو الحجة النقلية النيرة ، وجماع كل هذه الشرائط قد استوحيناها من كلام المفسرين حول قوله تعالى [ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم

ويتبع كل شيطان مريد] وقوله [ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله] (٢٥) **ومنه [الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم] [ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الاكبر ما هم ببالغيه]**(٢٦) **والآيات وان نزلت بسبب خاص لكنها تعم كل الذين** يدلون بأقوالهم ولا أهلية لهم على الاستدلال والبرهنة ، وكل قول من هذا النوع فهو مردود على صاحبه(٢٧) ، وإذا رد كل قول على هذه الصفة فمن باب أولى يرد القول المتعلق بذات الله وصفاته ان تعرى عن الدليل .

أساس التحدى بطلب الدليل من المنكرين :

لقد صرحت الآيات السابقة بأن الكفار أو المشركين يجادلون بلا علم ، وقضت عليهم بهذا ، وأنكر القرآن كل نظر لا يعتمد على دليل ، وكل قول بلا سند فما معنى أن يعود القرآن من جديد ليطالب المشركين وغيرهم بتقديم أدلة على دعوى الشريك أو الولدية أو غيرهما من مسائل الأصول ؟

ان الذى يظهر لنا أن هذا التحدى بتقديم دليل على مسائل أصولية بالذات لا ينبنى على اعتبارات تخص جهل أو علم الأقوام فحسب ، ولا يعتمد على قصور ذاتى لدى المنكرين لا يستطيعون بمقتضاه أن يقدموا السلطان المطلوب وانما يقوم التحدى على اعتبارات تخص المسائل المثارة من باب أولى ، والى طبيعة المواضيع محل

---

(٢٥) الحج ٣ ، ٨

(٢٦) غافر ٣٥ ، ٥٦

(٢٧) راجع راجع القرطبى ج١٢ ٥ ، ١٥ ، والكشاف ج٢ ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، وتفسير الفخر الرازى ج٥ ٢٣ ، والبيضاوى ج٤ ٤٩ ، ٥٠ج٥ ٣٦ ، ٤١ ، وروح المعانى ج١٧ ، ١٢٢ ، ج٢٤ ٦٨

النزاع نفسها ، تلك المسائل أو الموضوعات التى لا تقبل اقامة الدليل عليهـــا .

ولا شك أننا نعلم أن من الأمور ما هو شديد الوضوح ، وظاهر الضرورة الى حد لا نستطيع اقامة الدليل عليه لشدة ظهوره وبداهته، ومنها ما هو موجود ولكنه يقبل الاستدلال لأن طبيعته اســتدلالية لا تنال بدون نظر لدواع تتعلق بشىء من الخفاء أو البعــد ، أو لأن طبيعة وجوده تستغلق عند البعض ، وتبدو جلية عند الآخرين فهذا وذاك يكون مقصدا للاستدلال ، وقابلا بذاته للبرهنة ، ومنها ما هو خراف ووهمى لا وجود له فى الخارج على الحقيقة وان تصــــوره الذهن توهما وخطأ فهذا النوع من المتصورات الفاسدة لا يقبـــل الاستدلال لانعدامه أصلا ، ومنه على سبيل المثال الشرك للبارى ودعوى الولدية ، فان تحــد الحق جــل جلاله أرباب الشرك بطلب الدليل فلعلمه أن التقديم ممتنع لامتناع الموضوع الخاص بالدعوى .

ولا يجوز أن يقال لم لا تكون قضية الألوهية من هذا النــوع الذى لا يقبل الاستدلال لعدم وجوده لا لوضوحه ؟ وهذا الادعــاء بعدم الوجود هو زعم المــاديين والدهريين ، وانما لا يجوز اقحــام الألوهية هنا لأن المؤلهين من أرباب الأديان اســتطاعوا أن يقــدموا عديدا من الأدلة المتنوعة فى الأصــول والمقــدمات ، والتى تؤدى فى النهاية الى نتيجة واحدة هى اثبات وجود الله ، وقــد اتفقت كلمــة المتدينين على ذلك وحملت الأديان السماوية براهين قوية على الاثبات كما قدمت وقائع اعجازية تخرق العادة الجارية ، وتوقف قوانين العلم لتمضى القدرة الالهية فى تنفيذ ما ترمى اليه من وقائع خارقة .

وفى خارج الساحات الدينية هب الفلاسفة العقليون يثبتــون وجود الله ، ووحدانيته ، ويقدمون البراهين الوجودية فى قـــوة ، وذلك وســـط مجتمعات كانت ترزح تحت الوثنيات المتعددة ، وسلك الفلاسفة المؤلهون ابتداء من أفلاطون الى يومنا هذا مسالك عقليــة صرفة ، أو فطرية بحتة ، أو بصيرية تمة وفى كل اتجاه كانوا يعلنون

انفصالهم فى الاستدلال عن الدين ، ويبالغون فى تقديس براهينهم عن تلك التى يسوقها النص .

وفى اثبات الوجود الواحد لله داخل الرحاب الدينى عن طريق الوحى أو العقل ، أو خارجه بالمسالك المشار اليها تأكيد على الفكرة التى نحن بصددها وهى امكان الاستدلال على الذات الالهية لأمر يتصل بطبيعة وجودها نفسه .

وعلى العكس من ذلك فان الماديين منذ أن كانوا قديما وحديثا عندما ينكرون وجود الله ، أو يزيفون حقائق الأديان عامة ، ويسمونها بالخرافة انما يصدر الانكار منهم بناء على التحكم المنهجى ذاته ، فنظرا لأنهم أقروا المنهج الحسى وحده ، وركنوا الى أن الحواس تستمد معارفها من المحسوسات ، والعقل تابع للحس فقد أداهم ذلك الى اعتبار المحسوس هو الموجود الحقيقى ، وبالتالى فليس وراءه شىء ، ليس هناك معقولات مفارقة ، وما وراء الطبيعة خرافة ، فالنتائج التى توصلوا اليها جاءت من اعتبارهم الحس وحده ، وهذا الاعتبار هو الآخر مبنى على انجذاب الحسيين الى الطبيعة التى تحقق أغراضهم بالمشاهدة ، والتى يعيشون عليها وبينها ، وانكار وجود الله هو لازم المنهج لاما يتفق مع الحقيقة بدليل أنه بمجرد تغيير المنهج يتحقق الثبوت(٢٧) .

وعلى مدى الزمن الطويل لم يستطع الماديون أن يقدموا دليل نفى لوجود الله ، واكتفوا بالانكار والتهجم اللفظى ، والادعاء المزيف فحسب ، وعدم قدرتهم على اقامة أدلة النفى يدل من جانب آخر على قوة ظهور الفكرة الألهية الى حد لا يمكن معه دحضها بدليل ، وقد ركز مالك بن نبى على تلك النتيجة فى كتابه «الظاهرة القرآنية»(٢٨) .

---

(٢٧) والشىء المنفى اصلا او الذى لا وجود له فى الحقيقة يبقى عدما مع أى منهج : عقلى أو حسى .

(٢٨) ٧٠ — ٧٩

وفى النقاط الآتية سوف نشير الى قضايا هامة لا تتحمل اقــامة الدليل لكونها زيفا ، وترتبط تلك القضايا بالمسائل الأصولية ، كما نشير الى أمور فقهية وغيرها لا دليل عليها لعدم العلم بصــحة الدليــل، والى انكار القرآن المحاججة فيما لا علم به ٠

١ — الشريك دعوى لا دليل عليها :

يدلل الحق جل جلاله على نفى الشريك بسلب الدليل ، وعــدم امكان قيامه ، ويقول ان البرهان قد انتفى عنه من جهة النقل ، فالله سبحانه لم ينزل كتابا من عنده ، أو دليلا فى كتاب يخبر فيه عن وجود هذا الشريك ، وبالتالى فليس هناك ما يثبته من جهة الوحى قال سبحانه **[سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين](٢٩) وقال [وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون](٣٠) ٠**

وتشير الآيات الى أن المشركين يدركون ذلك ، وأن قلوبهم لــم تكن مطمئنة الى الوضع الذى هم فيه اطمئنانا راسخا ، ولذا علق الله سبحانه القاء الرعب والخوف على مسألة الشرك ، والانسان عنــدما لا يستقر قلبا على فكرة معينة فانه ينتابه الفزع لأدنى شيء يهــدده خاصة اذا كان الأمر متصلا بما يعتقده ، بخلاف ما لو كان القلب قد أطمأن اطمئنانا ثابتا بعقيدة ما فان صاحبه مستعد لبذل أقصى وأغلى المهج فى سبيل ما يدين وما يعتقد ٠

---

(٢٩) عمران ١٥١

(٣٠) الانعــام ٨١

(٣١) لقد اثبتنا فى كتابنا « الحكمة العربية » أن عبادة الأوثان لــم تتمكن من القلوب تمكنا قويا بدليل ان اناسا من العرب كثيرين كانوا يبدلون منها بآخر ، ويتركون الجميع لحوادث معينة ، وان أيمانهم وعهودهم كانت باســـم الله ٠

ولأن الأنبياء قد اطمانوا الى عدم صحة فكرة الشريك بما نزل عليهم من وحى ينفيها فانهم قد قدموا للاقوام دليلا واقعيا على زيف تلك المعبودات ، وذلك بما قام به سيدنا ابراهيم من تحطيمها ، ثم بعد ذلك وفى الصباح طالبهم أن يتأملوا بعقولهم ما حدث ، وأن يسألوهم ان كانوا ينطقون ، وكأنه أراد أن يبصر قومه بأن هذه الأوثان لو كانت آلهة لسمعت ونطقت ودافعت عن نفسها ، واذا لم تملك ذلك لنفسها فمن باب أولى لا تملكه لغيرها من عابديها ، وكذلك قام النبى صلى الله عليه وسلم بتحطيمها غداة الفتح ، وهو يعلن انهيار زيف الباطل واحقاق الحق ، وكان ذلك على مرأى ومسمع ممن كانوا يقدسونها بالأمس •

هكذا بين القرآن عدم ورود دليل نقلى يثبت وجود الشركاء ، ثم يخاطبهم قائلا ، ومع ذلك اذا كنتم لا تثقون فيما يتلى عليكم من جهة فساد عقولكم فأتوا أنتم من قبلكم بسلطان أو حجة عقلية تثبتون بها صحة وجود الشريك ، واذا لم تستطيعوا اقامة البرهان فقد عجزتم، ومتى ما عجزتم فقد ثبت بطلان الشريك لأن مالا برهان عليه لا يجوز اثباته ، وليس بثابت أصلا ، يقول جل شأنه فى ذلك •

[هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا](٣٢) **ويقول [أم اتخذوا من دونه آلهه ، قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثر لا يعلمون الحق فهم معرضون]**(٣٣) **[ومن يدع مع الله آله آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه]**(٣٤) ، وبناء على كل هذا فقد

---

(٣٢) الكهف ١٥
(٣٣) الأنبياء ٢٤
(٣٤) المؤمنون ١١٧ وانظر بنفس المعنى الحج ٧١ ، النمل ٦٤ الروم ٣٥

انعدم الدليل النقلى والعقلى وثبت العجـز وبطلت الدعـوى(٣٥) ، وانتفى كل شريك ، اذ لو كان موجودا لأمكن اقامة الدليل على وجوده من أى وجه ، أو من كل وجه .

ابطال تعليق الشرك على المشيئة بدون علم :

وبعد أن حاصرهم القرآن على الشكل السابق علم المولى عز وجل أنهم ان ضاق عليهم الخناق تذرعوا بالمشيئة الالهية ، أى تركوا مجال الاستدلال الى مبدأ الجبر فأخبر عما سيكون بقوله [**سيقول الـذين أشركوا لو الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كـذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، أن تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون**] **الانعام ١٤٨**

يلاحق القرآن دعاويهم واحدة تلو الأخرى ، يطلب منهـم ما يناسب كل دعوى ، فاذا اعتقـدوا فى الشركاء طالبهم بالدليـل حتى يفحمهم ، واذا تذرعوا بالمشيئة والارادة الالهية القـاهرة أفهمهم أن هذا قول بدون علم ، وما هو الا محض ظن وتخريص ، هل نزلت آيات تخبرهم أن الله شاء لهم الشرك وأجبرهم عليه كلا ، فمن أين لهم بذلك والحال أن مسألة الارادة ، والعلم بمشيئة الله لا سبيل الى الاستدلال عليه ، فطريقه الوحيد الاخبار ولا اخبار يدلهم عليه ، فليس لهـم بما قالوا علم من نقل ، كما أن طريق العقل الى تلك الحقيقة مسدود ، يقول الزمخشرى فى ذلك :

[هل عندكم من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم فتخرجوه لنا ، وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ،

---

(٣٥) راجع تفسير الفخر الرازى ج٣ ٦٠ ، ج٢٢ ١٥٨ ج٢٣ ١٢٨ ، ٢١٠ والقرطبى ج٤ ٣٣ ، ج٢٤ ، ج٧ ٢٩ ... ٣١ ج١٢ ٢١٩ — ٢٢٥ ج١٤ ٣٣ — ٣٤ ، وتفسير البيضاوى ج٢ ٤٧ ٤٧ ، ١٩٥ — ١٩٦ ج٣ ٨ وانظر الكشاف وروح المعـانى .

ان تتبعون الا الظن فى قولكم هذا ، وان أنتم الا تخرصون ، أى تقدرون الأمر كما تزعمون وتكذبون](٣٦) ويقول القرطبى [أخبر عز وجل بالغيب عما سيقولونه ، وظنوا أن هذا متمسك لهم لما لزمتهم الحجة، وتيقنوا باطل ما كانوا عليه] ولا تجدى دعواهم فى أن الله لو شاء لأرسل الى آبائهم رسولا فنهاهم عن الشرك ومن جميع المحرمات فينتهوا ، ثم يتبعوهم ، لأن الله رد عليهم ذلك قائلا : هل عندكم من علم ودليل على أن هذا كذا ، وما تتبعون فى هذا القول الا الظن والتخريص لا الحجة والبرهان(٣٧) ، وتبقى الحجة البالغة لله وحده فى هذا الموقف وغيره .

وأود أن أنبه الى أن اشارتنا لهذه المسائل ليست مقصودة لذاتها ولكن نعرض لها كأمثلة وشواهد على أن الدعاوى المزعومة لا تقبل بدون دليل ، فالغرض الأساسى هو اثبات أن القرآن لا يقبل قولا بدون حجة .

هل العلاقة بين انتفاء الدليل وانتفاء الدعوى لازمة :

قلنا انه لا دليل على الشرك من جهة النقل أو العقل ، واذا انتفى الدليل فهل معنى ذلك أن الدعوى بوجود الشركاء منتفية كلية ؟ وهل كلما انتفى الدليل لزم انتفاء المدلول باضطراد ؟

ان الشاهد الذى معنا وهو دعوى الشريك وانتفاء دليلها يكشف لنا عن الاجابة عن تلك الأسئلة ، ويتضح لدينا من خلال هذا الشاهد وغيره أن ثبوت الدليل يؤدى الى ثبوت التحقق من وجود المدلول ، وانتفاء الدليل قد لا يؤدى الى انتفاء المدلول اما لأن المدلول أظهر من أن يقام عليه دليل مثل وجود الشمس والحرارة وغيرها من البديهيات الحسية والعقلية ، فانتفى الدليل لوجود البداهة وشدة ظهور المدلول ، وأما لأن المدلول متصور ذهنا أو خيالا

---

(٣٦) الكشاف ج٢ ٤٦ — ٤٧ .
(٣٧) الجامع لأحكام القرآن ج٧ ١٢٨

ولا حقيقة له فى الخارج فانتفى الدليل لعدم تحقق الوجود الذاتى ، وجاز أن يبقى المدلول ، الا أن بقاءه مجرد وهم عقلى لا يتعداه ، وذلك كالشريك للبارى يقول الفخر الرازى فى تفسيره [كما توجد دلالة على المدلول وشاهد له فان عدم الدليل قد لا يدل على عدم المدلول ، كما فى اتخاذ الشركاء ، فان الأصنام موجودة ، ومع ، ذاك لا يقام عليها دليل](٣٨) .

واذا كان الشريك مقدرا فى العقل وحده فلا يصح أن يكون الاها ، ولذلك عبر القرآن عن تلك الحالة التى انتفى فيها الدليل مع دعوى الشريك المقدرة ذهنا فقط بأنها حالة اسمية قال تعالى [**قال قد وقع عليكم رجس من ربكم وغضب أتجادلوننى فى اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان**](٣٩) ، ويقول [**ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أن الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**](٤٠) .

ومعنى كونها اسمية أنها شىء باعتبار اطلاق الاسم لا غير ، وهذا الاطلاق لا يحقق الوجود للشىء ما لم يكن الشىء مستحقا للوجود بذاته أو بغيره ، والآلهة المتصورة وهما ليس فيها معنى الالهية ، لأن هذا المعنى انما يستحقه من كان موجدا للكل ، والموجد الخالق الفاعل هو الاله الموجود بذاته الذى يمكن أن نقيم عليه الأدلة ، بخلاف الآلهة فانها عاجزة عن أن توجد نفسها فضلا عن ايجادها لغيرها ، وهم لا يستطيعون اقامة الدليل عليها لعدم ثبوتها فعلا ، فلم يبق بعد ذلك الا أنها مسميات وهمية فحسب ، والأمور الوهمية لا يمكن أن تكتسب الوجود الا فى خيالات من سماها .

---

(٣٨) التفسير الكبير ج٢١ ٩٧ — ٩٨

(٣٩) الأعراف ٧١

(٤٠) يوسف ٤٠ ، ومثلها النجم ٢٣

ولما كانت الآلهة غير موجوده حقيقة ، وهى عاجزة فقد ذم الله سبحانه المشركين لكونهم وضعوا أسماء لا معنى لها ولا تأثير ، وبما أن الأسماء توقيفية فى نظر كثير من العلماء فقد رأوا أن الذم الشديد الذى وجه الى المشركين نتيجة اطلاق اسم الاله الذى هو موقوف لله المعبود بحق وخاص به على ما ليس له من حقائق الألوهية شىء بالمرة (٤١) .

المطالبة بالبرهان حتى فى الآخرة :

يبدو أن قضية البرهان مرتبطة بالعقل وبالتكليف ارتباطا وثيقا ، وأن عملية الاقناع تتم فى الدنيا للقيام بالتكاليف كما تلازم الانسان حتى آخر لحظة قبل أن يلقى مصيره النهائى فى الآخرة ، وقد يقال أن المطالبة بالبرهان فى الدنيا مفيدة فى بعث اليقين ، ولتثبيت المطلوب الايمانى ، ونظرا لأن بعض المسائل تبدو خفية لدى الانسان ، ولديه منها بعض الشبه أو الشكوك ، من ثم يكون الاهتمام بالحجة مزيلا الخفاء ، وكاشفا عن الحقيقة ومدحضا للشبه ، وطاردا للشكوك ، لكن فى الآخرة يكون الحق ظاهرا ظهورا قويا ، ووقتها يحيا الانسان فى عين اليقين ، سواء بالنسبة للألوهية أو النبوة أو البعث ، أما الألوهية فان الحق جل جلاله يتجلى عليهم فى ساحة ويستنطقهم جميعا بان الملك له [**يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**] (٤٢) والأنبياء يظهرون شهودا على أممهم [**فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**](٤٣) وهم يعيشون لحظة الساعة التى كانوا ينكرونها ، فأى خفاء أو شبهة أو شك بعد هذا كله ؟؟

لقد أزيل كل شىء ، وها هى الحقائق تبدو جلية أمام العيون ، ومع

---

(٤١) انظر : نهاية الاقدام ٩٧ ، والكشاف ج٦٩ ، والبيضاوى ج٢ ١٥ والقرطبى ج٧ ٢٣٧ ج٩ ١٩٢

(٤٢) غافــــر ١٦

(٤٣) النســـاء ٤١

ذلك يطالب الله المشركين بأن يأتوا ببرهان على شركهم [**ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون**](٤٤) ، وبقوله [**ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون**](٤٥) ، أى أخرجنا من كل أمة نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه ، ونزيد الأمر توكيدا فنقول للأمم السابقة هاتوا برهانكم على صحة ما كنتم تدينون به ، فعلموا حينئذ أن الحق لله فى الألوهية لا يشاركه فيها أحد ، وغاب عنهم ما كانوا يفترون من الباطل](٤٦) .

وانما طالبهم بالبرهان مع ظهور الحقائق ووضوحها حتى لا يكون هناك أى حكم يتم دون برهنة واقناع للعقل فاذا عجزوا عن البرهنة فى الآخرة قبلوا الجزاء والعقوبة المؤبدة وهم فى قناعة تامة .

٢ — الولدية دعوى لا دليل عليها(٤٧) :

الشرك دعوى لا دليل عليها ، والولدية بنفس الكيف دعوى لا تستند الى دليل ، ولو صدرت تلك الدعوى من الكفار وحدهم اذ جعلوا الملائكة بنات الله لهان الموقف ، ولكن أما وأن تصدر من أرباب دين قائم على الوحى فهذا ما يفوق حد التصور فى الخروج عن روح المنقول وصريحه ، ولا يجد له فى الوقت ذاته حجة من قبل العقل ، وبالتالى تفقد الدعوى سندها من الناحية النقلية والعقلية .

---

(٤٤) الانعام ٢٢

(٤٥) القصص ٧٥

(٤٦) الكشاف ج٣ ١٧٧ والبضاوى ج٤ ١٣٢

(٤٧) ننبه مرة أخرى الى اننا نسوق هذه المسائل على انها دعاوى لا دليل عليها ، ولا نتعرض لها بالنفى والاستدلال عليها من تلك الجهة . وسوف تمر علينا فى دراسة قادمة ان شاء الله فى بحث «الالوهية» فى القرآن الكريم .

ويختلف حديث القرآن مع أصحاب تلك الدعوى أن كانوا كفارا وقالوا الملائكة بنات الله عنه عندما يتحدث الى اليهود والنصارى ، فنراه مثلا يخاطب المشركين في اقناع هادىء ، ويطالبهم بالدليل برفق ولين • جذبا لهم نحو الاقتناع والتخلى عن فاسد ما يدعون ، فيقول مثلا [**وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون**] وفى هدوء جذاب يقول [**أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم**] ومرة أخرى يقول لهم [**أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين**] (٤٨) •

ان القرآن يبين الدعوى وهى قولهم بأن الملائكة اناث وهم بنات الله ، ثم يرد فى هدوء مستخدما قياس ما غاب عنده على ما هو حاضر لديهم ، فيقول لماذا تقولون ذلك ، ولم لم تسووا بينكم وبينه — تعالى الله عن ذلك — انكم تحبون البنين وتضيق صدوركم ضيقا شديدا عندما تأتى بشارة المولود بأنه أنثى ، فلم تختارون هذا لانفسكم وتعطون من خلق الذكر والأنثى من لا ترضونه لكم ، ولو كان متخذا لنفسه ولدا لاصطفى البنين لا البنات حسب عادتكم ، وكيف يختار لنفسه الاناث ويصطفيكم أنتم بالذكور [**تلك اذا قسمة ضيزى**](٤٩) ثم بعد ذلك ينفى تلك الدعوى من أساسها ويبين أنها باطلة ، ويطالبهم أن يقيموا دليلا بينا على ما يقولون ان كانوا صادقين ، والا فهم قائلون بدون علم ، ومدعون بمحض التخريص والظن ، والحقيقة كما رد القرآن لا سند لهم من قبل النقل والعقل •

وأما عندما يخاطب اليهود فى قولهم عزير بن الله ، أو النصارى فى زعمهم أن عيسى بن الله فانه يضيف الى المطالبة بالدليل على الدعوى ألفاظ التأنيب واللوم الشديد ، وأنهم يشبهون قول الذين كفروا

---

(٤٨) الزخرف ١٥ — ٢٠ الصافات ١٤٩ — ١٥٧.

(٤٩) النجم ٢٢

ويحاكونهم فى تلك الدعوى ، وهذا مما لا يليق بمن يقرأ كتابا نزل من الله يخلو تماما من أى اشارة الى الولدية ، او لاحتياجلها أوسلوك السبيل المؤدى اليها من اتخاذ صاحبة ، وينسب قولهم صراحة الى الجهل والى الخلو من العلم وهم يملكون وسائله من خلال الوحى عندهم ، واذا كان لديهم اثارة من علم نقلى أو دليل عقلى فليقدموا ذلك ، وهم لا يستطيعون ، وبالتالى ففريتهم كبيرة ، وكذبهم أفظع ، ويستحقون اللعنة حقيقة [**قاتلهم الله أنى يؤفكون**](٥٠) .

يقول القرطبى معلقا على آية التوبة [لما كان — قولهم — قولا ساذجا ، ليس فيه بيان ولا برهان ، وانما هو قول بالفم ، مجرد نفس دعوى لا معنى تحته صحيح ، لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولدا ، فهو كذب وقول لسانى فقط بخلاف الأقوال الصحيحة التى تعضدها الأدلة ويقوم عليها البرهان](٥١) .

٣ — الدعوى بدون دليل مجرد أمنية :

ان أى دعوى تتعلق بالغيب المطلق أو الماضى أو الحاضر أو المستقبل لابد لها من سند هذا هو اتفاقنا وهو خط سيرنا فى هذا الفصل ، ونلاحظ أن القرآن يصف الدعاوى المتعلقة بالغيب أو الماضى اذا خلت من الدليل بأنها كذب وافك وتخريص أما اذا تعلقت بالمستقبل ولم تجد برهانا عليها فهى أمانى خادعة ، ويأتى هذا الوصف فى رد دعوى اليهود والنصارى اذ قالوا [**لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين**](٥٢) ، ومنطوق الآية يدل على أن أى قول يتعلق بالمستقبل يصبح مجرد أمنية ، ولا يتحول الى حقيقة الا اذا سانده البرهان ، ولقد طالبهم به القرآن ، فاما أن يقدموه ليثبتوا به

---

(٥٠) التوبة ٣٠ ، يونس ٦٨ ، الكهف ٤ — ٥

(٥١) جامع أحكام القرآن ج٨ ١١٨ ، ٣٦١ ج١٠ ٣٥٢ — ٣٥٣ وتفسير البيضاوى ج٥ ١٢

(٥٢) البقرة ١١١

بدعواهم واما ألا يبنوا على الأمانى أحلاما وأحكاما ومميزات خاصة لأرباب الديانتين .

أنظروا من أكبر الأشياء الى صغرها ، من دعوى الشريك والولدية الى مجرد حلم بدخول الجنة ، الكل لابد فيه من برهان وحجة ، والا فهو باطل ، يقول الزمخشرى فى الآية السابقة ومثيلاتها [وهذا أهدم شىء لمذهب المقلدين وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت](٥٣) ، ويرى القرطبى أن دعاويهم مجرد اشتهاء ، أو تمنى على الله ما ليس لهم فهى افتعال لشىء موهوم ، والأمر المفتعل لا يقبل بلا سند يحوله من الافتعال الى الفعل ، ومن مجرد الاشتهاء الى الحقيقة ، والقضية لا تصدق الا بالبرهان ، فيلزمكم أن تبينوا ما قلتم به(٥٤) ، والطبرى يقول [طلب الدليل هنا يدل على اثبات النظر ويرد على من ينفيه] وأما الفخر الرازى فيرى أن الآية قد دلت [على أن المدعى سواء ادعى نفيا أو اثباتا فلا بدله من الدليل والبرهان](٥٥) ، أرأيتم كتابا سماويا على هذا النحو من المنطقية الدقيقة ؟ ان القرآن لا يحجر على العقل بما يخبر به أو يقدمه من أدلة ، ولكنه يطالبه هو كذلك أن يجد وينتج براهين عقلية تدعم ما يقول ، واذا انبنت على أسس صحيحة ومعارف واضحة ، وعلمية بينة فهى مقبولة ، والا فهى مرفوضة .

وفى هذا الصدد نذكر بما خاطب به الله سبحانه أهل الكتاب فى ضرورة ألا يجادلوا ، ولا يحاجوا الا بعلم ، وأن يكونوا صادقين أمناء فيما لديهم من معارف ، ولا يغيروها بغية الاحتكام الى المحرف منها ، فتلك جريمة أفظع من المجادلة بدون علم أصلا ، وكذلك لا ينبغى لهم أن يدعوا ما هو بين البطلان كدعوى كون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا يقول لهم .

---

(٥٣) الكشاف ج١ ٨٨ ، والبيضاوى ج١ ١٨١.
(٥٤) التفسير ج٢ ٧٥.
(٥٥) التفسير الكبير ج٣ ٤

[يأهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ، ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون](٥٦) •

لقد حاججتم فيما لكم به علم فى أمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وغيرتم وبدلتم وهذه فعلة شنعاء ، فكيف تضمون الى ذلك ما ليس لكم به علم ، وهو ادعاء أن ابراهيم يهودى أو نصرانى والديانتان متأخرتان ، فكيف يكون السابق تبعا للاحق ، أليست مناقضة عقلية سخيفة ؟ ما شأنكم يأهل الكتاب ؟ انه واقع بين تزوير لما تعرفون وادعاء ما لا تعلمون •

٤ — النهى عن التحكم فى سند الدعوى :

المطالبة بالدليل على الدعاوى أمر عام يتناول الأصول كما مثلنا بالولدية والشريك ، ويتناول الفروع والسلوك كذلك ، ففى مسائل التشريع والأخلاق لابد أن تبنى هى الأخرى على برهان جلى يجعل الحكم الشرعى صحيحا من ناحية الأصل الذى قام عليه ، أو القاعدة الشرعية التى انبنى عليها ، ويجعل الفعل الأخلاقى ناشئا من تحسين شرعى أو عقلى ، أو مرذولا لكونه مخالفا لهما ، واذا تجاوز المناظر هذه الأصول أو القواعد واستند الى موروثات عن الأسلاف ، أو ادعى ما لا يعرف فهو متحكم فى سند الدعوى بما هو غير صحيح ، وبما لا يصلح سندا لها •

ومن أمثلة ذلك فى التشريع قول مالك بن عوف [ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا] ورد الحق عليهم قائلا : من أين لكم هذا التشريع **[نبئونى بعلم أن كنتم صادقين]**(٥٧)

---

(٥٦) آل عمران ٦٥ — ٦٦.
(٥٧) الانعام ١٣٩ ، ١٤٣.

عليكم بالمقايسة الصحيحة وطرد العلة ، وعليكم ان ناظرتم أن تناظروا بعلم ان كان عندكم • ومن أين هذا التحريم الذى افتعلتموه ولا علم لديهم لأنهم لا يقرأون الكتب •

ومن شواهد التحكم فى السند مع الأخلاق ماحكى عنهم المولى عزوجل قال [**واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**][٥٨] ، فقد بينت الآية أن الاحتجاج بتقليد الآباء ودعوى أن الله أمرهم بما فعلوا تحكم فى الرد ولا دليل لهم على ما يزعمون [٥٩] •

عصـــارة البحث :

تدور الفكرة الرئيسية فى هذا الجزء حول ضرورة اقامة الدليل على كل دعوى ، وعلى الرغم من أننا لم نستقص ذلك استقصاء كاملا الا أنه حسبنا أن ألقينا الضوء على الفكرة ، وضربنا لمنهج القرآن فى ذلك عدة أمثلة منها ادعاء الشرك والولدية ، وبعض دعاوى أهل الكتاب التى لا تستند الى دليل ، وانتهينا من ذلك الى رد كل دعوى أو قول بدون علم ، أو سند وحجة ، والى رد التحكم فى الجواب ، كما أننـــا رأينا القرآن فى غير المواضع المذكورة يقرر أن كثيرا من المنكرين يتبعون الظن ، وهو باعث على القول غير مأمون ، وقد أوقع أصحابه فى كثير من الزيغ والانحراف عن الجـــادة •

وكذلك فان ابن عباس رفض كل زعم فى القرآن واعتبره فاسدا ، كما رفضت الأفكار المبينة على التخريص وسوء الفهم والجهالة ، وتقليد الأسلاف بدون علم ، والالتجاء الى المشيئة والجبر ، وانتهى البحث الى أنه لابد فى كل دعوى ذات صلة بالعقيدة أو التشريع أو الأخلاق

---

(٥٨) الاعـــرافـ ٢٨.

(٥٩) تفسير القرطبى ج٧ ١١٥ — ١٨٧.

صغرت أو كبرت من دليل يدعمها ويؤيدها سواء كانت الدعوى ايجابا أو نفيا .

وبهذه الطريقة الاستدلالية وضرورتها يحرص القرآن كل الحرص على أن تمحى حالات الشك أو الريبة والادعاء والتشهى والزيف والتحريف والتردد ، وتمحى معها المصطلحات الخاصة بها ، تلك المصطلحات التى تناقض العلم وأحواله(٦٠) ، يمحى كل هذا لتحل محلها أحوال العلم واليقين والرسوخ والثبات والطمأنينة والصدق والانباء مع مصطلحاتها من الدليل والبرهان والحجة وبذا تتحقق للانسان درجة الاقتناع العقلى والقلبى ، وحالة الطمأنينة واليقين النفسيين .

---

(٦٠) ومن تلك المصطلحات : **الكذب** : وهو الخبر الذى يكون مخبره على خلاف ما هو عليه ويصح اعتقاد ذلك ويعلم بطلانه استدلالا ، **والخرص** واستعمله القرآن موضع الكذب عندما يكون الكلام على غير تحقيق فشبه بالكذب واستعمل فى موضعه والا فالخرص هو الحزر للشيء أصلا ، **والافك** : وهو الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن ، **والزور** : وهو الكذب الذى قد سوى وحسن فى الظاهر ليحسب أنه صدق **والبهتان** : هو مواجهة انسان بمالم يحبه وقد بهته ، **والافتراء** : وهو القطع على الكذب والاخبار به ، **والاختلاق** : وهو تقدير الكذب ، وأصل افترى قطع ، وأصل اختلق قدر ، **والحيف** : وهو الميل أو الحمل على الشيء حتى ينقصه ، ومنه تحيفت الشيء إذا تنقصته من دافاته ، **والغرور** : وهو ايهام يحمل الانسان على فعل مايضره ، **والخداع** : وهو ستر وجه الصواب ، **والمكر** : وهو مثل الكيد فى أنه لا يكون الا مع تدبر وفكر الا أن الكيد أقوى من المكر ، **والعجب والاد** : وهما بمعنى الظهور ، والاد الشرور والخروج عن العادة والعجب استعظام الشيء لخفاء سببه [انظر الفروق فى اللغة] ٣٦ ، ٣٨ ، ٢٠٩ ، ٢٥٣ .

الباب الثانى

مجالات ومحاولات للاثبات

تمهيـــد :

لابد فى كل دعوى من دليل وسند ، وأى قول لا يستطيع صاحبه أن يقدم عليه دليلا فهو اما منتف فى حد ذاته وليس موجودا أصلا ، وقد اخترعه صاحبه اختراعا ، وأتفكه ائتفاكا ، أو ظنه وتخيله ، والقرآن لا يريد الحديث عن أشياء لا وجود لها على الحقيقــة ، ولا يريد من البشر أن يتناولوا الأمور بالحديث على غير دراية وعلـم قويين واذا ما تناولوها وكانت تحتاج الى دليل فعليهم أن يقدموا الدليل ، ولا يلقوها على أسماعنا دون حجة مقبولة ومهما كانت درجة القائل من الصــدق والاحاطة ، ومهما كانت المسائل المطروحة فالاستدلال عملية ذات شأن عظيم • وقيمة كبرى •

أننا نؤمن أن الله هو الحق ، ولا يصدر عنه الا الحق « **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال** » وقوله الحق « **وبالحــق أنزلناه وبالحق نزل** » والرسل الذين اختــارهم يتصــفون ضرورة بالصدق ، ومع كل ذلك يقدم الله دليلا على وجوده فى ذاته ، وعــلى أحقية الوحى والرسالة ، وعلى كل مسألة طالب البشر أن يصــدقوا بها • وقام الأنبياء بتبليغ هذا الوحى بما اشتمل عليه من استدلال • وجادلوا وبرهنوا ، وركزوا مع الأقوام على أن تكون المحاجة الصحيحة هى أسلوب الحوار بين أهل الحــق ودعاته وبين الذين يصدون عن سبيله ، ويقفون فى طريقـــه •

وبناء على هذا فقد نتج عن تلك العملية مفاهيم ومصطلحات ، كل واحد منها ذو صـــلة وثقى بالاستدلال ، وكل مصطلح بمدلوله وعبارته يمثل درجة من درجات الاثبات للدعاوى المطروحة ، وكل واحد منهـــا له تعريفه الخاص ، وله خصائصــه فى الاقناع ، ســواء منها ما كان متصلا بالمخبر عنه ، أو ما ارتبط بالحكم الصادر ، فهناك المحــاورة والمناظرة ، وهناك الجدل ومحاولات الانتصار على الخصم خــدمة

لفكرة أو رأى ، وهناك الدليل والحجة والسلطان والبرهان ، والحكمة والموعظة ، وكلها قد جاء بها القرآن وساقها ليثبت أمورا ، أو طالب بها للاثبـــات أو للتعجيز .

وتعتبر المحاورة والمناظرة والجدل طرقا يرد بين ثناياها الدليل ، وأما نفس الدليل أو الحجة أو السلطان أو البرهان فهذه أسانيد متنوعة، وذات درجات متعددة ، وكيفيات مختلفة يطرحها المناقش أو المناظـــر أو المجادل أو المستدل أو المخبر كل بطريقته وحسب ما لديه من رأى ويقين بالفكرة ، وحسب نيته وقصده وباعتبار الموضوع المطروح ذاته.

وهذا الباب يتناول مصطلحات الاثبات للدعوى ومفاهيمها ، حتى اذا ما استقرت بدرجاتها ومميزاتها في أذهاننا انطلقنا بعد ذلك الى أنواع الاستدلال القرآنى ومميزاته ، وقبل أول حرف من الحـــديث عن تلك المصطلحات وهذى المفهوم ننبه الى أنها ليست متحدة المعنى مختلفة اللفظ ، ولكنها متنوعة اللفظ والمفهوم والدرجة أيضا .

الفصل الأول
المحاورة والمناظرة

أولا ـ المحـــاورة :

اذا رجعنا الى كتب اللغة وجدناها تعطينا معـانى كثيرة لمـادة «حور» ولكننا نجتزىء منها ما يتصل بالمعرفة وطريقة المباحثة ، وفى هذا المجال المعنوى المحدد تفيدنا الكلمة أن « الحور » الرجوع عن الشىء والى الشىء ومنه قول بعض السلف [لو عيرت رجلا بالرضع لخشيت أن يحوربى داؤه] أى يكون على مرجعه ، قال لبيد :

وما المـــرء الا كالشـــهاب وضـــوئه
يحـــور رمـــادا بعـــد اذ هـــو ســـاطع

والحور : التردد اما بالذات واما بالفكر : ومنه [انه ظن أن لن يحور] أى يرجع بذاته يوم القيامة مبعوثا من جديد ، بمعنى لـن يبعث ، وحار المـاء فى الغدير تردد فيه ، والرجوع أو التردد بالعـين والذات ليس مقصودنا هنا ، ولكن هدفنا هو الرجوع والتردد بالفكر والقول ، واذا كان الأمر كذلك فالمطلوب من معنى المحاورة أو الحوار أو التحاور هو المجاوبة بالرأى والقول حتى يقال : تحاوروا أى تراجعوا الكلام بينهم وتجاوبوا فى المنطق والمخاطبة ، وكل واحد من المتحاورين يستحير الآخر أى يستنطقه •

وقد تتداخل الكلمة فى معنى المجادلة الى حد أن يقال معها فى تلك الحالة ، حاوره محاورة وحوارا جادله ، وتحاوروا تجادلوا ، فالكلمة فى صناعة المنطق والكلام والخطـاب بالفكر تعنى المراجعـة والتردد والمجاوبة والمجادلة ، والاسم من المحاورة الحوير تقول سمعت حويرهما وحوارهما ، والمحورة من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة(١) .

طبيعة أسلوب الحوار وخصائصه :

ويتبين لدينا من خلال اثارة تلك المـادة أن الحوار أسلوب يجرى بين شخصين أو اكثر ، وكل من الأطراف يسوق ما يراه من الحديث ، أو يراجع الطرف الآخر فى منطقه ، ويهـدف الى بيان الحقائق التى يعرفها أو يعتقدها ، والى تقريرها من وجهة نظره هو ، وكل واحد من المشتركين فى الحوار يقوم بتوليد الأفكار فى ذهنه — ولا يقتصر على عرض الأفكار القديمة ، ويعمد الى توضيح المعانى المتولدة عنده ، وينشط نشاطا ذهنيا متقدا كى لا ينتصر عليه الطرف الآخر ومن ثم فيظل العقل يقظا واعيا طوال العملية كلها(٢) ، واذا كررت أفادت العقل وعملت على تنشيطه ، وربما سعى المحاور الى اصدار الحكم على أمر ما بالايجاب أو السلب .

هذه طبيعة فن الحوار ، وأما خصائصه فالذى نلحظه أنه يتم بين طرفين غالبا ما يكون أحدهما مراجعا للآخر على غير علم ولا بينة ، وربما اضطردت تلك الملاحظة فى كل صورة من صور الحوار ، نجد ذلك باديا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج١ ٢٩٥ — ٢٩٦ مادة (حور) الطبعة الأولى ١٣٠٠ هـ ١٩٠٠ والجوهرى : الصحاح ج٢ ٦٣٩ — ٦٤٠ والفيروز ابادى القاموس المحيط ج٢ ١٥ ، والأزهرى تهذيب اللغة ج٢ ٢٢٩ — ٢٣٠، والمعجم الوسيط ج١ ٢٠٥ ، والراغب الأصفهانى المفردات ١٣٥ .

(٢) انظر جميل صليبا المعجم الفلسفى ٥٠١ دار الكتب اللبنـانى الطبعـة الأولى ١٩٧١.

من خلال الآيات الثلاث التى وردت فيها كلمة يحاور أو تحاوركما ، وفى أيتين من الثلاث جرى الحوار فيهما بين كافر جاهل ومؤمن أريب لبيب، وكان الكافر مع جهله غنيا ذا مال [**فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفـرا**] .

فرد المؤمن فى ادراك ومعرفة ويقين [**وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا**](٣)

ان حوار الكافر قد انبنى على أمر ظاهر ومتاع زائل هو الملكية والثمر والجنة ، وتصور أن من يملك هذا فقد حصل الحقيقة وصار بها فاضلا ، وان الغنى والجاه علامة صحة المنزع والاتجاه ، وكان رد المؤمن أن حول منابع الحوار ومقدماته وأصوله من الأعراض والمظاهر الى الاستدلال والحقائق فذكر له أصل الخلقة الترابية ، والنطفية ، وأن مردهما فى الانسان الى الله ، وبالتالى فهو يستحق الايمان لا الكفر وفى هذا الجواب من المؤمن اهمال تام لأسس المفاضـلة التى قدمهـا الكافر واستبدالها بأسس جديدة بغية تصحيح لغة الحوار وطريقته ، وهى التى غابت عن الكافر وضل عنها ، ومن هنا نقول ان أسلوب الحوار قد لا يسلك فيه أى من الأطراف لازم كلام الخصم ، ولكنه ينشى حديثا جديدا ، وطريقة غير تلك التى سلكها الآخرون ، وأيضا فان أحد الأطراف يتسم بالنقص الشديد فى معرفته ، أو يتجاوز حدود الحق والصواب فى منزعه ، وأعتقد أن المرأة التى اشتكت زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحاورا أمامه فى شأن ظهاره منها بعد ما كبرت فى سنها(٤) وكانت على خلق وعلم ونبل ومعرفة استأهلت بها أن يسمع الله حوارها

---

(٣) الكهف ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨

(٤) المجادلة الاية ١ [**قد سمع الله قول التى تجادلك فى وزجهـا وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما**] انظر ح١٠ ٢٩٩ — ٤٠٤ ح١٧ ٢٧٠

وان يستجيب لشكواها ، وأن يستمع النبى صلى الله عليه وسلم لها فى حنو وعدالة ويقضى بينهما ، وأن يسمع عمر لو عظهـا ونصـحها فى خلافته ، اعتقد أنها كانت على حال أصح من حال زوجها كذلك .

وكل صورة من صور الحوار تأتى مبينة جهل طرف وعلم الآخر ، أو النقص فى العلـم عند واحد والزيادة أو الاحاطـة فيه عند الطرف المقابل ، واللغة العربية ذاتها تعطينا هذا الحق فى تقرير أن الخصيصة التى تسود فن الحوار تتلخص فى علو فصيل عن فصيل لأنها تذكر أن من معانى الحوار مجرد المراجعة ، ومن معانيه النقصان بعد الزيادة ويقال كلمته فما أحار لى جوابا ، ويقول ابن الاعرابى . فلان حور فى محارة يضرب مثلا للشىء الذى لا يصلح ، فليس أطراف الحوار على درجـة واحدة من العلم غالبا .

وقد يقال ان تلك الخصيصة توجد بين أى فريقين يتناظـران أو يتجادلان أو يتحاجان فما معنى قصرها على المحاورة ؟

نقول هذا صحيح ، ولكن التباين فى مواقف الخصوم جهلا وعلما يكون فى التناظر والتجادل والتحاج أقل من التباين بين الخصوم فى التحاور ، لأن المتناظرين يفترض فيهما لغة المماثلة ، وفلان نظير فلان أى مثله وشبيهه والمتجادلان يدخلان الحلبة وفى ذهن كل منهما أفكار سوف يصارع بها خصمه ليصرعه ، والمتحاجون ما تقدموا الى ساحة الاحتجاج الا ولديهم بعض الأدلة صحت أو فسدت ، بخلاف المحاورة فقد تكون ردا أو مجاوبة بدون أى شىء من هذا كله ، وطبقـا لتلك الخصيصة فقد ذكرت اللغة أن من معانى أسلوب المحاورة الرجوع عن الشىء أصلا ، والعدول عنه ، والمحاور لا يعدل عن موقفه الا اذا تبين له ضـعفه .

ويتبع تلك الخصيصة خصيصة ثانية تلتحم بها تماما . وتتلخص فى أنه طبقا لما قلناه من أن بعض الأطراف قد لا يكون لديهم شىء يقدمونه ، فانهم من ناحية ثانية يكونون الين جانبا فى قبول الحق من المتجادلين أو المتحاجين

ولفظة الحوار فى منطوقها تحمل دلالة عــدم الشحن النفسى لدى المتحاورين ، وتشير الى البراءة النفسية ، وأن كل طرف مستعد الى الرجوع عن موقفه متى تبين له ذلك ، بخلاف كلمات الجدل والتحاج فانها تدل على الامتلاء النفسى الذى يدخل به كل واحد ليقارع بقوة وجهة نظر الآخرين ، ولذا كان من يرجع الى الحق فى ساحة التحاور اكثر ممن يرجع فىحلقات الجدل ، ولقد رجع الكافر بعد أن بانت له الحقيقة [**وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا**](٥) ورجع الزوج عن الظهار مع زوجته ، ورجع الملائكة مع الله بعد ماتبين لهم الحق فى محاورتهم ازاء قضــية آدم ، الى غير ذلك ، بينما كان المتكلمون يتجادلون طويلا ويظهر الحق ولا يرجع الطرف الآخر ، وقــد يفحم ويلزمه الخصم بحجته ، أو بلازمها ومع ذلك يصر على موقفه ويتمادى فيه .

الحوار فى البنــاء المنهجى القــرآنى :

ان القرآن الكريم تتسع طرقه ووسائله الاقناعية اتساعا لايدع مجالا من المجالات التى يمكن أن تؤثر فى النفس الاوسلكه ، انه وحى يستوعب شعاب الخطاب المؤثر ، ودروب الاقناع المثمر ، وعنــدما يسلك طريقا يوسع من دائرته حتى لنحسبه الطريق الوحيد ، يفعل ذلك مع الحوار ، والجدل ، والاستدلال ، وبناء على هذه النظرة فان طريق المحاورة بين ثنايا آيات القرآن الكريم يتسم بتبسيط الأســلوب ، وسهولة العرض ولا نجد محاورة تمت بين طرفين قد انتابها التعقيــد أو الرمزية الغامضة ، أو الاشارة الطائشة .

ونستطيع بدون مجهود يذكــر أن نتعرف على كثــير من أفكار الشخصيات التى وردت فى أسلوب الحوار القرآنى ونقف على خواطرهم وآرائهم وما نشب بينهم من صراع ، ولم يصور القرآن عقائد أو شبه الأفراد تصويرا مبالغا فيه ، وانما عرضها بدقة وأمانة ونصفة ، وفى

(٥) الكهف ٣٢

الوقت نفسه تخير منها اللقطات الموحية والعناصر الحية التى تحقق الغرض وتفى بالحاجة ، وتكون أكثر دلالة ومغزى ، وللحــوار من تلك الجوانب دور هام فى بعث الحياة والحركة داخل مشاهد الحــــوار وأحداثه الى حد أننا لدقة التصوير وقوة ابراز الحقائق نكاد نلمسها أو نشــاهدها بعيوننا ، وتتحرك أمامنا شخصيات الوقائع بحــديثها ومراجعتهـــا •

وكما أشرنا الى سعة الحوار فانه تبعا لتلك النقطة لم يقتصر على كون أطرافه من البشر فحسب بل تعدت ذلك حتى رأينا الملائكة يحاورن الحق ويراجعون خطابه حول خلق آدم(٦) ، وجعله خليفة ، وكذلك قام الحوار بين الله والانسان مثلما حدث من صاحب القــرية القائل [**انى يحى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثــه ، قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام**](٧) الآية ، كما أن محاورات ابليس لله مشهورة ، ودار الحوار بين ابراهيم والملائكة ، وبين الانسان والطير • كما حدث من سليمان مع الهدهد(٨) ، ومع هذا التنوع فان الحوار دار باللغات التى ينطق بها كل طرف ، ولم يكن بالاشارات أو الرموز ، وكان حوارا بالمعنى اللغوى من كل وجـــــه •

ثانيا — المنــــاظرة :

ونصــــعد الآن من المحاورة الى طريق أعمق من حيث اســـتعداد

---

(٦) البقــرة الاية ٣٠

(٧) نفس السورة ٢٥٩

(٨) النمل ٢٠ — ٢٢ انظر التهامى نفرة : سيكولوجية القصـــة فى القرآن ٤١١ الجزائر رسالة دكتوراه ، وانظر العبيد : منهج الحوار عند موسى : رسالة ماجستير ٣٦ — ٣٧ — وكذا الكشاف ج٢ ٢٢٦ [تفسير لاية ٧٤ هود] فلما ذهب عن ابراهيــم الروع وجــاءته البشرى يجادلنا فى قـــوم لـــوط] •

الأطراف علما وقدرة ، ننتقل الى المناظرة وفيها يكون كـل واحد من المتناظرين على درجة وأهلية من المعرفة لا يصل اليها حال المتحاورين مجتمعين أو منفردين ، ويرجع سبب تفوق المتناظرين الى الأصل الذى أخذت منه الكلمة وهو النظر ، ولو تركنا معظم معانى هذا الأصـل التى لاترتبط بحالة التناظر ومفهومها وماتقتضيه وركزنا بالذات على المعانى المطلوبة هنا وجدنا أن من بين معانى النظر المقابلة لشىء ما بالبصر أو بالفكر أو بهما معا حسب طبيعة الشىء الذى نقابله ، وحسب رغبتنا نحن فى ظهوره أو أظهاره فان كنا نريد ابرازه بالحس كانت المقـابلة والنظر بالبصر ، وان كنانود اظهاره معنويا كانت مقابلتنا له ونظرتنا الى ذلك الشىء بالقلب والفكر ، ويلزم أن تكون تلك النظرة شاملة لأحوال ذلك الشىء المنظور الذى يعمل الناظر على ابرازه واظهاره ، وأن يبين الناظر بالفكر جهة اثبات ذلك الشىء ، وهل هى مرتبطـة بجوانب تخصه ، أو أخرى مغايرة له(٩) •

ولأن التناظر مبنى على النظر بكل معانيه اللغوية السابقة فقد انتقلت تلك المفاهيم الى مضمون حالة التناظر ، ولزم أن يتصف بها كل طرف ينافح فى مناظرته عن شىء معين ، فاذا قلنا : ناظر فلان فلانا كان المعنى باحثه وباراه فى المحاجة ، ولو قيل : تناظر القوم فى الأمر قصد به تجادلوا وتراوضوا ، والمناظر تبعا لذلك هو المجادل المحاج ، وعملية المناظرة نفسها تعنى المباحثة والمباراة فى النظر واستحضار كل ما يراه المناظر ببصيرته(١٠) سواء كان الذى يراه قياسا مركبـا من مقدمتين ونتيجة أم لا ، وهى بالمعنى الاصطلاحى [النظرة بعين البصيرة من الجانبين فى النسبة بين الشيئين اظهارا للصواب](١١) •

---

(٩) أبو هلال العسكرى : الفروق فى اللغة ٦٥ — ٦٧.

(١٠) المعجم الوسيط ج٢ ٩٣٢

(١١) طاش كبرى زاده : رسالة فى علم البحث والمناظرة ضـمن رسالتين : ٣١ تحقيق أبى عبد الرحمن بن عقيل ط ١٣٩٧ هـ •

والمناظرة وان اتفقت مع المحاورة فى كونها نقاشا بين أطـراف حول فكرة معينة الا أنها تختلف عن الحوار من حيث انها تقوم على الفكر والسعة فى المعرفة ، وعلى المباحثة والمباراة ، ومن ثم يلـزم أن يسبقها نظر عقلى متأمل وشامل للشىء المتناظر فيه ، وتظهر عنـد الحديث عن المناظرة ألفاظ المحاجة ، واستحضار ما تجمع فى عقـولنا وبصائرنا من معارف سابقة ، ولم تقم المحاورة على تأمل سـابق ، وانما قامت على مجرد الترديد والمراجعة ، ولم تظهر فيها عبـارات التباحث والتحاج ، ولم ينص فى تعريفها على الحجة القياسية أو ماهو أعم منها كما نص فى المناظرة ، ولا ينقص من قيمة المناظرة ويرفع من شأن المحاورةكون الثانية ذكرت فى القرآن بلفظها ومضمونها والأولى لم تذكر لأن القرآن قد اكتفى بالحديث المستفيض عن النظر الـذى هو أصل فى المناظرة ، وذكر الأصل والتوسع فيه يغنى عن الفرع ، على حين لم ترد المحاورة بلفظها الا فى مواضع ثلاثه كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن لفظة الجدل كلمـة عامة تجمـع فى معناها المحاورة والمناظرة كما شاهدنا فى تناول الكلمتين هاتين وورود لفظة المجادلة بين ثنايا الحديث عنهما وبين وضعهما اللغوى الا أن لفظـة المناظرة باعتبار ذاتها وجريانها واستعداد كل طرف علما ، ونقـاء كل منهما نفسا ، وما تقتضيه المناظرة من تصحيح النسبة الحكميـة بين قضيتى القياس ، أو بين الشيئين بمعنى الموضوع والمحمول ، وما تهدف اليه من اظهار الصواب والرغبة فى ذلك ، كل هـذه الدواعى ترفع من شأن المناظرة عن الجدل بمفهومه العام ، هذا الفن الـذى يقوم فيه المجادل بدفع الخصم ولو بشبهة ، ويكون الغرض منه هـو الالزام وافحام الخصم(١٣) وليس غير .

---

(١٢) نفس الرسالة السابقة : شرح المؤلف عليها : ضـمن حاشـية المحقـق : ٣٧

طـريق المناظرة وجريانها :

ومن الناحية الفنية الاصطلاحية هناك أركان للمناظرة ، أحدها المعلل وهو الذى ينصب نفسه لاثبات الحكم بالدليل ، وثانيها : السائل الذى ينصب نفسه لنفى الحكم الذى ادعاه المعلل بلا نصب دليـل وهناك ما يسمى بالسند ، والمراد به شاهد المنع ، وما يسمى بالحل ، ويعنى به أن يعين السائل موضع الغلط فى مقدمة الدليل •

واذا منع السائل مقدمة الدليل باقامة الدليل على خلافها فهـو غصب غير مسموع عند المحققين ، وانما سمى غصبا لأن السـائل فى مقام نفى دعوى خصمه والتدليل عليه ، واعتباطه دليل خصـمه بدليل يقيمه هو يستلزم الخبط فى البحث •

وأما اذا منع تلك المقدمة منعا مجـردا أو بالسـند فهذه هى المناقضة ، ويشترطون الا تكون المقدمة من الأوليات أو المسلمات •

وقد يمنـع السائل نفس دليل المعلل بشاهد فيسمى نقضـا ، والشاهد اما أن يكون بتخلف الحكم عن الدليل لفسـاد فيه ، أو أن الدليل يستلزم محالا ، وعندما يكون النقض بلا شاهد فيسمى مكابرة، وذلك لأن منع الدليل الثابت والمحقق بدون سند جهل من السـائل ، ولا يلزم من جهله عدم ثبوت الدليل •

وأحيانا يمنع السائل المدلول ، فان منعه بدليل فهو المعارضة ، والا فهو مكابرة غير مسموعة ، وعليه فتكون المعارضة : اقامة الدليل على خلاف ما أقام عليه الخصم الدليل ، ودليل المعارض ان كان عين دليل المعلل يسـمى قلبا ، وان كانت صورته كصورته يسمى معارضة بالمثـــل •

وعندما يقوم السائل بالمناقصة أو المعارضة ، أى بنقص شىء من مقدمات الدليل ، أو بمعارضة الدليل نفسه فيلزم المعلل صـاحب دليل الاثبات فى حال المناقضة أن يثبت المقدمة الممنـوعة بالدليـل

أو بالتنبيه عليها ، أو يبطل المعلل سند المنع لدى السائل بدليل ، أويقيم دليلا آخر على مدعاه[13] ، ويلزمه كذلك فى حال المعارضة أن يتعرض لدليل المعارض ، وفى تلك الحالة يصير المعلل المثبت للدعوى كالسائل.

وبعد أن تتم عملية المناقضة أو المعارضة من السائل ، ويقوم المعلل بالرد المطلوب لاثبات دعواه فان عجز السائل عن التعـرض له بعد ذلك بأن انتهى دليل المعلل الى مقدمة ضرورية ، أو مسـلمة عند السائل كان ذلك هو الالزام وان عجز المعلل عن اقامة الدليـل على دعواه وسكت كان افحاما له[14] .

آداب المنـاظرة :

وأهم ما ينبغى على المناظر سواء كان سائلا أو معللا أن يحترز عن الايجاز وعن الاطناب ، وعن الألفاظ القريبة ، وعن المجمل ، وعن الدخول فى كلام الخصم قبل الفهم ، وعن التعرض لما لادخل له فى المقصود ، وعن الضحك ورفع الصوت وأمثالها ، وعن المناظرة مع أهل المهابة والاحترام ، أو أن يحسب الخصم حقيرا .

وما يخالف هذه الآداب يكون عادة من صفات المنقطع[15] .

---

(١٣) المعلل صاحب دعوى ، والسائل ناقل عن الغير فلا يكون مدعيا.
(١٤) نفس المصدر ٣٢ — ٣٣
(١٥) المصدر نفسه ٣٣ — ٣٤ ، ٤٠

الفصل الثانى
الجدل طبيعته وأنواعه

تمهيــــد :

كان بودى أن أشير الى لفظة الجدل اشارة سريعة نظرا لكثرة ما كتب فيها من الناحتين : الدينية والفلسفية ، ولكننى عدلت عن ذلك الى التبسط بعض الشىء فى هذا المصطلح لارتباطه بمصطلحات أخرى وتكوينه معها طريقا ومنهجا متعدد المراحل لاقناع الناس بقضـية الايمان وما تقتضيه من أعمال وأخــلاق وتشريع وأنظمــة ، ولأن المفسرين اختلفوا حول كونه جزءا حقيقيا من أجزاء هذا المنهـــج الثلاثى الذى جاء فى آخر فى سورة النحل أو أن المنهج ثنائى فحسب، لهذا كان لابد من عرضه مع المصطلحين الآخرين فى حديث مفصــل بعض الشىء .

وقد يقال ان آية سورة النــحل القائلة **[أدع الى ســبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســنة وجادلهم بالتى هى أحسن]** (١٦) أوقعت ترتيب المصطلحات على صورة اختلف عنها ترتيبنا للألفاظ الثــلاثة فى هذا التناول فما السبب فى تلك المخالفة للنص ؟

الحقيقة التى تظهر من الآية أنها وضعت الألفاظ على هذا الترتيب

---

(١٦) الآية ١٢٥

باعتبار القوة الموجودة فى كل مصطلح ، فنظرا لأن الحكمة أقوى أجزاء المنهج الثلاثى فقد قدمها المولى سبحانه وتعالى اشعارا بمكانتها ومنزلتها ، ثم ثنى بالدرجة التى تليها فى القوة والتأثير فجاءت كلمة الموعظة ، وأخر أدنى المراحل كلها وهو الجدل ؛ وبالتالى فقد راعى القرآن عنصر القوة والدقة فقدم ما هو مستجمع لهما ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، أو انه قدم اللفظة الجامعة التى يمكن أن تجمع كل معنى فى الموعظة ، وكل مسلك حسن فى الجدل وهى الحكمة ، ثم ثنى بلفظة نوعية جيدة هى الموعظة ، ثم ثلث بأخرى أدنى من الاثنتين السابقتين فى مفهومها وطريقة سيرها والنتائج التى تتحقق من ورائها وهى الجدل ، أو أن القرآن قد راعى العنصرين معا : عنصر القوة ، وعنصر الشمول ، ثم ثنى وثلث بما هو أدنى قوة وأضيق مفهوما ، وبما يدخل فى اطار النوعية لا الشمولية مثل الموعظة والجدل .

وأما قصدنا فليس المخالفة للنص ، كلا ان كل ما يكتبه البشر ليس الا قطرة من محيط فيض النص ، ولكننا عمدنا الى ذلك اضطرارا لتسير الدراسة متدرجة من الأدنى وصولا الى الأعلى ، فتتدرج من الحوار الى المناظرة الى الجدل ، الى الموعظة ، الى الحكمة ، ثم الى عمليات الاستدلال كلها من حجة وسلطان وبرهان ، ولو جاءت الحكمة قبل الموعظة والجدل لاختلت حالة الصعود التى تحاولها تلك الدراسة، وأيضا فان العبرة بموافقة النص ومخالفته لا تكمن فى الترتيب اللفظى بقدر ما تجب فى اتباع المعنى وعدم المغايرة فى منطوقه ومقتضاه ، ولانفعل هذا بحفظ الله ورعايته .

ولا شك أن الجدل هو اللفظة التى تدنو عما بعدها من الموعظة والحكمة والاستدلال ، وهى فى الوقت نفسه أوسع مفهوما ، وأكثر انتشارا من المحاورة والمناظرة .

غلبة الجدل على الطبيعة البشرية :

ان أى كائن لديه اثارة من عقل ، ويعيش بين أمثال ونظائر من

جنسه ، أو تلقى اليه معارف من موجود أعلى فان هذا الكائن ينبرى للافصاح عما فى نفسه ، وعما يعتمل فى خاطره ، لا فرق فى ذلك بين كائن نورانى ، أو نارى ، أو ترابى ، أعنى بذلك لا فرق بين ملائكى ، أو جنى ، أو انسانى .

اننا نعرف ما عليه الملائكة من خلقة نورانية ، ومن طبيعة لا تعرف التأبى على الأوامر الالهية ، ومعارفها ليست كسبا ، وليست ثمرة جهد حسى أو عقلى ، وانما هى معارف قدسية الهامية ضرورية ، وهى تعلم ما يلقى اليها من الله وتنفذه دون توان ولا عصيان ، ومع ذلك عندما ألقى اليها الخبر « انى جاعل فى الأرض خليفة » راحت تحاور وتجادل فى هذا الاختيار والجعل ، وتقدم بعض الحجج لتساند وجهة نظرها ، كيف تجعل الخلافة فى مخلوق سوف يفسد ويسفك الدماء ، وتدع آخرين مسالمين طائعين متحابين ؟ ان هذا الاختيار يتناف مع حكمتك ، ويرد الحق منذ البداية مصادرا على حججهم « انى أعلم ما لا تعلمون » (١٧) .

وعلى ما يبدو فان الرد جاء على هذا النحو دون حجة من الله تعلل سبب الاختيار لأن الله لم يستشر الملائكة حتى يجادلوا ، وانما أخبرهم بالتأكيد على الجعل ، واذا ما أخبرهم وأعلمهم بذلك فعليهم أن يعوه كما يحفظون غيره من الاعلام الالهى لهم بأمور كونية أخرى ، وألا تدفعهم رغبتهم الذاتية الى المجادلة حول أمور لم يؤخذ رأيهم فيها خاصة وأنهم جبلوا على السماع والطاعة والتنفيذ أو التبليغ ، فلماذا يستشرفون لتلك الوظيفة الخلافية الآن ؟ الا أنه بعد تنفيذ الجعل وخلق آدم علمه سبحانه الأسماء وسأله ، وسألهم فأجاب ولم يجيبوا ، وفى هذه المرة لم يجادلوا قائلين لقد علمته فأجاب ، ولم تعلمنا فلم نجب ، والحال أننا لا علم لنا الا ما علمتنا ، بل سكتوا

---

(١٧) البقرة : ٣٠ .

ورضوا وأدركوا أن هذه المعارف التى تعلمها تختص بمعارف معينة ، ترتبط بوجود حسى وروحى وعقلى مختلف عن وجودهم ، وبالتـالى فالخلافة حالة خاصة لمهام لا تتفق مع طبيعتهم ، من ثم سـكتوا ولم يجادلوا من جديد ، وعلموا أن الله يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم ما ظهر وما خفى •

كان ذلك من الملائكة قبل خلق آدم ، فلما خلقه كانوا فى حالة قناعة تامة بدقة الحكمة الالهية ، فلما أمرهم بالسجود لهذا المخلوق لـم يستنكفوا أو يستكبروا ، أو يتذرعوا بأنهم لا يسجدون الا له وحـده جل جلاله ، على عكس ما فعل ابليس فقد أخذ يجادل عند صدور الأمر بالسجود ، ويستخدم فى جدله قياسا عقليا بناء على أفضليته باعتبار الأصـل النارى الذى خلق منه ، ويعلن **[أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين]** وأبى واستكبر قائلا : لا أسجد لمن خلقت طينا ، لا أسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون (١٨) ، وكما بنت الملائكة جدلها على عنصر الأفضلية الصفاتية والسلوكية مع كـونها لا ارادة لها فى ذلك لكونها جبلت على فطرة لا تستطيع تغييرها فقد بنى ابليس جدله على أصل الخلقة ولا حيلة له أيضا فى كونه جاء من النار بينما غيره جاء من الطين ، بدليل اسناده الخلق الى الله وحده ، ومادام الأمر كذلك فأى ميزة للمخلوق فيما لا قدرة ولا ارادة ولا اختيار له عليه ، بالاضافة الى خطئه فى القياس من جهة أخرى وهى تميـز الطين على النـار على عكس ما يزعم •

المهم ان الملائكة بما لديها من وعى ضرورى ، وأن ابليس بما لديه من معرفة ما جادلوا بمجرد أن نما الى علمهم خبر مخلوق ثالث ، وذلك قبل أن يخلق بالنسبة لجدل الملائكة ، وبعد خلقته بالنسبة لابليس ، ومن يجادلون ؟ انهم يجادلون الله عز علاه •

---

(١٨) ص ٧٦ ، الاسراء ٦١ ، الحجر ٣٣

واذا ثبت أن الملائكة جادلوا ليظفروا بشىء ، وليعلنوا عن وجود شىء فى داخلهم ، وهم ما هم عليه من فطرية نورانية فلا غرابة بعد ذلك أن يأتى المخـلوق الترابى ، والذى جمـع ثنائية تكوينية مادية وروحية ، حسية وعقلية ويجادل أمثاله ونظراءه ، أو يجادل من فوقه ، أن طبيعته قد خلقت مزودة بأجهزة وقوى ادراكية متفاوتة ، ومصالحه فى هذه الدنيا تتراءى لخياله أنها متضاربة مع رغبات وآمال الآخرين، ولدى كل منا مبادىء ووجهات نظر تخصه ، وقد كونها نتيجة نشـاطه الادراكى الذاتى ، أو تبعا لتقلبات الأمزجة ، وجموع الشـهوات ، واختلاف الاتجاهات ، وتأثير البيئات ومحاكاة السابقين والمحيطـين به ، أو استجابة لنزعات نفسية مثل الرياسة والسلطان ، أو خضوعا لسيطرة الأوهام على تفكيره ، أو وقوعا فى بؤرة التعصب ، أو نبـع تفكيره نتيجة غموض الموضوع فى ذاته ، أو خفاء بعض نقاطه(١٨) كل هذه الجوانب التى تتبع اختـلاف الادراك ، أو الطبائع والنزعات ، أو المبادىء والمذاهب تجعل الانسان مدفوعا بفطرته الى التعبير عن ذاته ، سواء توافق رأيه مع آراء الآخرين أو اختلف معهـم ، وهـو مستعد فى ساعة الاختلاف أن يدلى بكل دلوه دفاعا عن وجهة نظـره وعما يراه ، وقد ينفعل ، وتنتفخ أوداجه ، ويحمر وجهه ، أو يمتقع لونه أثناء عرضه لمـا يراه •

ومما يثرى حالة الجدل ما طبع عليه الانسان من قدرة على تكوين رأى ، واستطاعة على اعلانه ، وتزويده بالأدلة والمبررات اللازمة ، واذا كان العقل يفـرز فى كثـير من مواقف اللجاج والنقاش المـادة الفكرية التى تقدم أنذاك فان النفس البشرية بما تحمل من صـفات الغيرة والعزة وحب الذات وأحيانا الأنانية والهوى والتمسك بالرأى والتعصب للفكرة كل ذلك يزيد من اشتغال الانسان أثناء المصادمات الفكرية ، ويرفع من حدة الخصومة ، ويحول الساحة الى حلبة صراع حاد لا نقاش هـادىء •

---

(١٨) أبو زهرة : تاريخ الجدل ٧ — ١٠ .

وكل انسان له تكوينه الخاص فى تفكيره ونفسه ، وحدته وهدوئه ، وله منطقه المتزن أو المضطرب ، وعنده مبادئه الحقة أو الباطلة ، ولذلك فان حالات الجدل تتنوع من أشخاص الى أشخاص ، وتتسع أو تضيق أزمات الخصومة واللدد ، ويطـول النقاش أو يقصر حسب فطـرية الانسان فى قبول الحق أو نكوصه عنه ، وحسب قدرة الشـخص على اظهار الحق والتعبير عنه ، واستعداد الطرف الآخر واسـتيعابه لـما يعـرض •

ومن هذا كله يظهر لنا أن النقاش والجدل ظاهرة تعم المخلوقات التى من شأنها أن تعلم أو تفكر ، والتى وهبت بيانا ومنطقا وقدرة على التعبير ، ولا ينبغى أن ننظر الى تلك الحالة على أنها مذمومة أبدا بـل قد تكون محمـودة ، لأنهـا تكشف لنـا عن كثـير من الحقـائق التى لـم نكـن نعـرفها أو تدافـع عن حقـائق نحتـاج الى من ينصـرها فى وجـه خصـومها ، أو تعلى من شـأن حق يتربص به أهل الباطل ويكيدون له ، وربما يولد الجدل معارف جديدة حول فكرة ما كان علمنا عنها محدودا ، أو يثرى علومنا بأفكار عن موضوع كانت صلتنا بمعرفته ضئيلة •

والحكم الذى أصدره القرآن على الانسان فى هذا الصدد هو أنه مجادل باضطراد ، وأنه يسلك هذا السبيل سواء كان على حق أم على باطل ، فى موقف يتحمل الصدام لجديته أولا ، يقول المولى عز وجل **[وكان الانسان أكثر شىء جدلا]**(١٩) ، فهو أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل أن فصلتها واحدا بعد واحد ، وجدله أكثر من جـدل كل مجـادل(٢٠) ، ويلمتس الألوسى تعليلا لهـذا الحكم الصـادر على الانسان بقوله : وانما كان كذلك (لسعة مضطربة فانه بين أوج الملكية وحضيض البهيمية ، فانه ليس فى جانبى التصاعد والتسفل مقـام

---

(١٩) الكهف ٥٤

(٢٠) الزمخشرى ج٢ ٣٩٤

معلوم (٢١) وأظن أن ما سبق تفصله عن ثنائية الانسان واختــلافه ادراكا ونفسا ومصلحة لا يتناقض مع عبــارة الألوسى بل يشرحها ويوضـــحها .

الانسان اذا مجادل وكثير الجدل بالفطرة ، وما دامت تلك النزعة فطرية فهى موجودة بوجود الانســان ومستمرة باستمراره ، لقــد تجادل ابنا آدم حتى قتل أحدهما الآخر ، وجادل الأنبياء أقوامهم ، والقرآن نفسه يعتبر [أصدق سجل يروى لنا نماذج من جدل الأمم العابرة منذ أن وجد الانسان على هذه البسيطة] ومن ثــم فــانه [لا يمكن أن نحدد وقتا لنشأة الجدل بمعناه الفطرى العام لأنه وجد بوجود الانسانية كامنا فى نزعاتها البيانية] (٢٢) وان كنا من الناحية الفنية نستطيع أن نشير الى ما استقر عليه تاريخ الفكر البشرى من أن « أرسطو » هو واضع علم الجدل بصورته المعروفة لدينا الآن .

وبالنسبة للسملين فعلى الرغم من أن القرآن عده منهجا فى الاقناع الا أنهم اقتصروا على ما تدعو اليه الحاجة من تبيان الحق ودفــع الشبه وترجيح الأدلة فى الاجتهادات الفقهية ، ولم يتطرق ذلــك النوع من النقاش الى العقائد [لأنهــم كانوا يعرفون الأدلة نصــا ومعنى وكانت فطرهم سليمة] ثم دخلت العلوم الفلسفية وتأثروا بها فكتب فيه من كتب ، قيل أول من كتب فى ذلك أبو على الطبرى ، أو أن أول من كتب فيه البزدوى واختصت طريقته بالأدلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال ، كما كتب العميدى بطريقة عــامة فى كل دليل يستدل به فى أى علم كان ، ثم توالى التأليف بعد أبى على والبزدوى والعميدى فصنف القفال (٣٣٦ هـ) ثم النسفى وغيرهم(٢٣).

---

(٢١) روح المعانى ج١٥ ٣٠٠ وانظر تفسير الرازى فى نفس الآية .
(٢٢) د/ زاهر الالمعى : مناهج الجدل : رسالة دكتوراه ٣٢ — ٣٦
(٢٣) نفس المرجـــع الســـابق ٣٦ — ٣٧

ونظرا لأن الله سبحانه يعلم ما فطرنا عليه من الرغبة فى الاعلان عما فى نفوسنا والدفاع عنها فانه يسمح لنا يوم القيامة بمزاولة هذا النمط [**يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها**](٢٤) أى تدافع عن نفسها ولا يهمها الا شأنها وتعتذر بما فعله الكبراء والأقوياء من اضلال الضعفاء(٢٥) ، وليس هذا فقط بل يفسح المجال مرة بعد مرة لتقول كل نفس ما بدالها ، ففى الحديث الذى رواه الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول [يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله](٢٦) وتلك هى العرضة الثالثة ، هذا هو الجدل وغلبته على الطبيعة ، لكن ما هو الجدل وما طبيعته وخصائصه ؟ هذا ما نبينه .

طبيعة الجدل كما نفهمها من اللغة :

سوف نحاول من خلال اقترابنا من اللغة أن نتعرف على طبيعة المجادل وحالته النفسية وما يهدف اليه من وراء جداله ، وتعتبر تلك المحاولة ضرورية لأن الوقوف على حالة المجادل المزاجية تكشف لنا عن تمسكه بالفكرة وعن مدى استعداده للتنازل عنها أيا كانت من الحق أو الباطل ، والوضع اللغوى يبين أن الكلمة تدور حول معان ثلاثة :

المعنى الأول : القوة والغلبة والصلابة ، يقال جدله ويجدله احكم فتله ، والجدل الشديد فى كل عضو أو عظم مثل الساق ، والحيوان اذا قوى واشتد قيل له جدل ، فولد الظبية اذا تبع أمه وقدر على المشى يقال له ذلك ، وأما الصقر فهو الأجدل لشدته ، وتجمع على أجادل ، وكان أبو ذر يسمى فرسه بهذا الجمع « الأجادل » وكل

---

(٢٤) النحل ١١١

(٢٥) تفسير البيضاوى ج٢ ١٩٣ ؛ والكشاف ج٢ ٣٤٦

(٢٦) السنن ج٤ ٣٩ .

شيء قوى وأحكم فمرجعه الى تلك المادة ، واذا نقلنا هذه المعانى الموجودة فى المحسوسات الى معنى الجدل الفكرى ، واللجاج الذهنى وجدناها تنطبق ، لأن كل واحد من الخصمين المتجادلين يحاول بقوته أن يجدل الآخر ويفتله عن رأيه ، أو يحاول أن يصرعه ويسقطه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ، والشديدة ، ولا تتم عمليات الفتل عن الرأى ، أو الصرع والحاق الهزيمة بالخصم الا مع القوة والفتل والغلبة والصلابة فيقال جدله وجدله فانجدل وتجدل صرعه . أو جدل جدولا فهو جدل صلب .

المعنى الثانى : ايقاع شيء فشيء : كالاخضرار فى العود ، أوالحبة فى السنبلة ، يقال مجادل اذا اخضر البلح واستدار قبل أن يشتد ، وجدل الحب فى السنبل وقع .

المعنى الثالث : اللدد فى الخصومة مع القدرة عليها ، ومنه الجدل محركة يقال جادلة فهو جدل ومجدل ومجدال كمنبر ومحراب(٢٧) .

ومن هذا نرى أن المجادل يتصف فى طبيعته النفسية والفكرية بالقوة والشدة والصلابة فى الرأى والحجة والمنازعة وأنه قد امتلأ فى داخله ، وفى جوانيته باللدد فى الخصومة ، والعناد وشدة الخلاف ، وكل واحد من الخصمين يدخل الى ساحة الصراع وفى ذهنه أن يوقع فكرته ، وأن يفرغ رأيه فى ذهن وجعبة الطرف الآخر ، ان فكر المجادل قد اتسم بالاحكام والقوة ، وان نفسه قد انطوت على المنازعة التى بلغت أوجها ، وعلى الحنق والتردد واللدد ، وان ارادة كل منها وعزمه

---

(٢٧) انظر القاموس المحيط ج٣ ٣٤٦ — ٣٤٧ ، ولسان العرب ج١١ ١٠٥ ، والزمخشرى اساس البلاغة ١١١ ، ابن فارس مقاييس اللغة ج١ ٤٣٣ ، الراغب المفردات ٨٩ — ٩٠ والتهاونى كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ٢٤١

قد انعقدا على شحن الآخر بما يوجد عند الأول ، ولا شك أن النقاش على هذا النحو من الحنق النفسى ، والاصرار على الانتصار ، وعدم الرغبة فى التسليم أيا كان قرب الطرف الثانى من الحق سوف يكون معركة تضيع الحقائق بين صخبها ، وتتوارى شعاعات الحق أحيانا بين سحبها (٢٨) ، فلا نعجب بعد هـذا أن نرى القرآن يذم بكثرة تلك الطريقة ، وان أباحها فبشروط مؤكدة على طرح كل هذه العقبات ، والعمل على تصفية الجو النفسى وتحقيق الهـدوء الفكرى كى يكون الانسان مستعدا لقبول الحق متى ظهر أمام عقله •

ما يختص به الجدل من الناحية الاصطلاحية :

الجدل مغالبة ، ولدد فى الخصومة ، ومحاولة اسقاط الرأى على الخصم ، هذا مجمل طبيعة الجدل فى اللغة ، لكن هل ظل على تلـك الحالة فى الاصطلاح أولا ؟ وهل كلمـة الجـدل بمفهومها اللغـوى والاصطلاحى فى القرآن ، هى عين الكلمة وضعا ومفهوما فى اللغـات الأخرى ، بحيث نقول ان لفظة الجدل ترجمة حرفية للفظة (الديالكتيك) فى اللغات الأوروبية ، أو هما مختلفان •

لكى نجيب على تلك الأسئلة ينبغى أن نلقى نظرة على المعنى الاصطلاحى لكلمة الجدل ، ثم بعد ذلك نعلق بما يتضمن الاجابة على الأسئلة المطروحة •

وفى البداية لابد من العلم بأن المسلمين الأولين لم يعرفوا من كلمة الجدل سوى المعنى الأصلى وما ينطوى عليه من معان وضـعت

---

(٢٨) وقريب من معنى الجدل بتلك الطبيعة كلمة الشقاق الواردة فى [١٣٧ البقرة ، النساء] وغيرها يقول زيد بن أسلم : الشقاق المنازعة وقيل المجادلة والمخالفة والتعادى ، وهو مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صـاحبه ، وهـو فى شق غير شـق صاحبه القرطبى ج٢ ١٤٣.

أساسا من جهة اللغة ، وعلمها المسلمون من جهة درايتهم بلســانهم سليقة أو تعلما ، ولأنهم أدركوا أن القرآن استخدمها طبقــا للمعنى اللغوى فقد آثروا أن يبقوها كما هى ، وأن يتحفظوا فى استخدام تلك الطريقة لمــا تثيره من منازعات ومخاصمات ، ولم ينقلوا لفظة الجدل الى معنى اصطلاحى كما نقلوا كثيرا من الكلمات من أصل وضــعها الى مفهوم آخر تواطأوا عليه ، مثل كلمة الصلاة ، والزكاة ، والحــج وغيرها ، وذلك لأن الشرع نفسه هو الذى نقلها من معانيها اللغوية الأصلية وأسبغ عليها معانى وأحكاما تخصــها ، ولم يشر القــرآن أو النبى صلى الله عليه وسلم الى نقل كلمة الجدل بل حكم الســياق القرآنى بابقائها كما هى ، وسوف نزيد تلك النقطة ايضاحا بعد قليل.

وبعد أن دخلت العلوم الفلسفية المجتمع الاسلامى أعطيت لفظة الجدل مفاهيم اصطلاحية جديدة طبقا لمــا ورد الينا ، ونستطيع أن نتبين من خلال التعريفات اتجاهين رئيسيين :

الاتجاه الأول : يعتبر عملية الجدل فنا لا استدلالا ، وينظر الى المصطلح من هذا الاعتبار فيراه : فن الحوار والمناقشة وكيفية توجيه السؤال والجواب ولقد كان كذلك عند سقراط الا أن الحوار والمناقشة والسؤال والجواب لاتقف عنده على حد بل هى تصاعدية ، تبدأ من تصور معين وتنتقل منه الى آخر ، ويظل صاحبها يرتقى من تصور لتصور حتى يصل الى أعم التصورات ، ثم عمقه أفلاطون بعد ذلك فجعــله منهجا فى التحليل المنطقى يقوم على قسمة الأشياء الى أجناس وأنواع بحيث يصبح علم المبادىء الأولى والحقائق الأزلية ، وانما يصــبح كذلك لو أخذنا فى الاعتبار أن الجنس مركب من الأنواع لأنه يتضمن مفاهيم الأنواع وشيئا آخر زائدا عليها ، ولأنه أغنى من كل واحــد منها على حدة ، وعلى ذلك فعلينا أن نصعد من الأنواع للأجناس ، ومن الأجناس الى أعمها وأشملها حتى نصل الى الجنس الأعلى وهو

تصور الكمال أو الخير الكلى المحيط بجميع الكمالات الجزئية (٣٩) •

هكذا يكون الجدل فنا فى المحاورة والمناقشة ، ولكنه يجب أن يتحول الى طريقة منهجية ذات انتقالات ومراحل تصاعدية ، وهو خطة تهدف الى اثبات المطلوب بالسؤال والجواب عبر درجات ترتفع شيئا فشيئا ، أو ترمى الى الاتجاه نحو المبادىء الأولى من خلال عمليات التحليل للاشياء ، وتقسيمها الى أنواع وأجناس ، ثم الارتقاء من الأفراد الى الأنواع الى الأجناس الى أعمها حتى نصل الى المطلوب ، وعن طريق السؤال والجواب ، وطبقا للخطة الذهنية المرسومة قام سقراط بافحام خصومه من السوفسطائيين ، وعن طريق التحليل وصل أفلاطون الى مثال المثل •

وداخل هذا الاتجاه الذى يعتبر الجدل فنا لا أستدلالا ولا قياسا يظل بعض المسلمين على ولاء للاصل اللغوى للكلمة فيرى الجورجانى أن الجدل [عبارة عن مراء يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها](٣٠) ويقول أبو البقاء [الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون الا بمنازعة غيره](٣١) فما زالت ألفاظ المنازعة تربط بين الأصل اللغوى والخطة العقلية فى دفع الخصوم وتقرير المذاهب ، تلك الخطة التى لا تنبنى على قياس محدد ، ولا استدلال معين بل المهم هو الزام الخصم بأى شكل كان ، وبحجة أو بشبهة(٣٢) بسند أو بلا سند •

---

(٢٩) د/ جميل صليبا : المعجم الفلسفى ج١ ٣٩١ — ٣٩٢ ، والمعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية ٥٩ — ٦٠.

(٣٠—٣١) انظر : الجورجانى : التعريفات٦٦ ، وأبا البقاء : الكليات ١٤٥ : ومناهج الجدل ٢٤

(٣٢) وروح المعانى ج١٢ ١٠٢ — ١٠٢

أما الاتجاه الثانى : فيركز على كون الجدل قياسا ، وعلى أنه هو القدرة على الاستدلال الصحيح ، وكان أول من نقله من فنية الحوار الى جعله قياسا هو أرسطو حيث عرفه بأنه [قياس مؤلف من مشهورات ومسلمات] والمقدمات المشهورة هى التى تطابق جميع الآراء كحسن الاحسان الى الآباء ، أو تطابق أكثر الاراء كواحدية الاله ، أو تطابق بعضها المعين كاستحالة التسلسل من حيث هى كذلك ، والمسلمات هى القضايا التى توجد من الخصم مسلمة أو تكون مسلمة فيما بين الخصوم ، فيبنى عليها كل واحد منهما الكلام فى دفع الآخر[٣٣] ، ويعرفه ابن سينا قائلا [المجادلة هى مخالفة تبغى الزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور][٣٤] .

وينعقد الجدال بهذا القياس كما ينعقد على هيئة الاستقراء والتمثيل حسبما يذكر التهاونى .

وقد استعمل الجدل بين الفقهاء بمعنى العلم الذى [يتعرف به كيفية تقرير الحجج الشرعية] أو فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها[٣٥] ، فنقلوه الى الاستدلال والبرهنة أيضا .

والغرض من الجدل فى هذا الاعتبار هو الزام الخصم وافحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان ، وذلك ان كان المجادل سائلا ، فان كان مجيبا صار غرضه ألا يصير مطرح الالزام [٣٦] ، ولا يعتبر عنصر الحقية قائما فى ذهن السائل أو المجيب بل عموم الاعتراف والتسليم فحسب .

---

(٣٣) التهاونى : كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ١٤٢ ، والمعجم الفلسفى : صليبا ٣٩١ — ٣٩٣ ، ومجمع اللغة : المعجم الفلسفى ٥٩ — ٦٠ .

(٣٤) الشفاء ج١ ٢٣

(٣٥) التهاونى كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ١٤٢ ، والمصباح المنير ١٢٨

(٣٦) الأحمد نكرى : دستور العلماء ج١ ٣٨٥

الجدل كما هو فى القرآن الكريم :

ما سبق كان عن الجدل لغة واصطلاحا فماذا عن الجـدل فى القـــرآن ؟

انه يعنى نقاشا بين خصمين ، أو طرفين معلومين ، أو أحـدهما معلوم والآخر متوهم ، وهذا من ناحية أطراف النزاع أما من الجانب المعنوى أو المفهـوم المتعلق بالجـــدل باعتباره مصطلحا معينا فان القرآن بنى معانى الجـدل على اعتبار الأصل اللغوى الذى يعنى القوة والغلبة ، واللدد فى الخصومة ، ومحاولة اسقاط الرأى على الآخر والزامه به أو اسكاته عنه ، وذمه من تلك الجهة أو مدحه عند التخلص من تلك المسالب ، ولم يرد القرآن نقل اللفظة من معنـــاها اللغوى الى معنى اصطلاحى كما فعل فى كثير من المصطلحات ، حتى صار المفهوم الشرعى هو الغالب عليها ، ولكن ظلت كلمة الجدل تصور خصومات الجهلة ، وأهل الباطل فى نزاعهم للحق وأصحابه ، وتطلب من الدعاة والمؤمنين أن ينافحوا هؤلاء بصدق ولين ورفق وحسن نية وقول.

ومن تلك الزاوية تختلف كلمة الجدل بما فيها من شحن نفسى واعتداء ولدد عن كلمة «ديالكتيك» فى اللغات الأوربية ، تلك اللفظة التى تعنى حوارا بين شخصين : سائل ومجيب دون منازعة حادة ، ونفسية مليئة بالعناد ، ونظرا لمـــا بين الكلمتين من خلاف فاننا لا يمكن أن نعتبر الجدل رديفا للديالكتيك كما هو عند سقراط مثلا أو غيره .

واذا تجاوزنا الاعتبار الأساسى للمعنى اللغوى فى اســتعمالات كلمة جدل داخل البناء القرآنى لنتعمق قليلا فى تلك الكيفية التى تتم بها عملية المنازعة والتى تكشف لنا عن الفارق الكبير بين الجدل فى القرآن والجدل فى الاصطلاح وجدنا أنه لا مانع من الاعتداد بعنصر الفنية والتدريب لدى من يقوم بالمجادلة ، وذلك لأنه ليس فى قدرة كل انسان أن يجادل فلابد أن يكون ممن تتوافر فيهم مهارة خاصة ،

وقدرة معينة ، وطبقا لهذا فانه لم يجادل من الكفار الأنبياء الا فئـة معينة ، وأفراد يستطيعون اجادة تلك الطريقة ، وكذلك لم يصد هذا العناد من بين صفوف أهل الحق الا من تميزوا بمميزات ذهنية وادراكية وبدهية على غاية من القــوة .

وكذلك فانه من الطبيعى أن يلمح القرآن الى أن كل طرف كان يقرر مذهبه أو شبهته ، أو يكيل التهم أمام الخصم بحق وبلا حق ، وربما رسم أنصار الحق فى أذهانهم خطة للوصول بأطراف الصراع من الخصوم الى المطلوب ، وهذا عمل عقلى فطرى سواء نبه عليـه سـقراط أم لم ينبه .

ومع كوننا نفترض دوما أن يتم رسم خطة متصاعدة بغية الزام الخصم الا أننا لا نجد فى القرآن أدنى اشارة الى عملية التحليـل النظرى التى نادى بها أفلاطون ، ورآها ضرورية للصعود من الأنواع الى الأجناس الى المثال الكلى الخير ، واستبدل القرآن عملية التحليل تلك المعقدة بعملية الصعود من الآيات المشاهدة المحسوسة الى خالقها وبارئها مستخدما ضروبا من الوسائل التى تلزم الخصم ، وتضطره الى الربط بين المخلوقات الجزئية ، أو الكلية المتمثلة فى الســموات والأرض وبين خالق قادر مريد مبدع ، وتتم عميات المجادلة فى اطار واقعى ملموس لا تجريدى ذهنى كما يريده أفلاطون ، كما أنه لا يحصر الجدل فى سفسطة ظاهر تقصد المصادرة على المطلوب وخداع الحواس كما يفهم «كانت» من الجدل ، ولا يعتمد على التناقض الذهنى بين فكرة وأخرى ، أو قضية ونقيضها لاستخراج قضية ثالثة منهما حسبما نجده فى جدل هيجل أو فيشته(٣٧) ، ومن هذا كله يمتاز الجدل المحمود فى القرآن عن الجدل لدى الفلاسفة من جهة اعتماده على الفطـرية

---

(٣٧) د / محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغـربى ٢٥٤ — ٢٦٥

والواقعية ، ومن جهة كونه ليس نمطا ذهنيا بحتا يطبق فى كل حالة وعلى كل شخص مثلما نراه فى الجدل المنطقى الفلسفى ، ولكن الجدل القرآنى مرن متعدد ، يعطى لكل فرد حسب حاله ، ولكل مقام منطقه ، وقد يقطع المجادلة نهائيا ويدعو الى شىء اخر لا يتصل بطبيعة الجدل كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران اذ دعاهم للمباهلة ٠

وصحيح أن القرآن فى الجدل يريد الزام الخصم ، ولكن دعاة الحق عندما يستخدمون هذا المنهج فى صورته المحمودة لا يقصدون الالزام أو الافحام بأى شكل كان ولو باستخدام الشبهة والمغالطات ، ولا يود هؤلاء المجادلون الصادقون أن يسكت الخصم لعجز لديه ، أو لما وقع فيه من حرج ، ولكن يريدون أن تهدأ نفسه وترضى بما قدم لها من أطروحات عقلية مناسبة فى قالب لفظى هادىء ، وقد صدرت من نفس مجادلة تخلت عن كل لدد ، واتسمت بالرغبة فى الاقناع والهداية وحب الحق والاخلاص له والعمل من أجل ترسيخه وتثبيته ونشره ٠

والذين يجعلون من أطروحات الجدل صورا برهانية متعددة ، أو يحاولون اطلاق لفظة الجدل على أنواع الحجج الموجودة فى القرآن كلها مثلما فعل الدكتور زاهر الألمعى الذى اعتبر جدل القرآن عبارة عن براهينه وأدلته التى اشتمل عليها(٣٨) فيعممون لفظة الجدل على كل ما هو قياس تمثيل أو برهان أو سلطان هؤلاء قد تجاوزوا حدود الدلالة اللفظية لكلمة الجدل ، وما تقتضيه من معنى كذلك ، لأنها كما سبق تدل على المنازعة بين طرفين أو أكثر فى لدد ومحاولة الغلبة ، وعملية البرهنة تختلف عنها من وجوه ٠

الأولى : ان المجادلة بين أطراف محققة أو متوهمة ، والدليل أو الحجة تساق لطرف غير معلوم ، واعتبر الفخر الرازى تلك النقطة

---

(٣٨) مناهج الجدل ٢٥ ، ومقدمة كتاب استخراج الجدل ٨

تفاصلة بين الجـدل والاستدلال مؤكدا على أن الأول لا يطلق أساسا الا اذا كان الصراع دائرا بين أشخاص ، بخلاف الثانى فانه يساق دون اعتبار لأطراف آخرين ، ولكن بقصد اثبات أمر يتعلق بأصل أو فرع أو قضية ما ، وقد لا يخطر فى ذهن المستدل خصـوما على أى نحـو من الأنحاء .

الثانى : ان أغلب مواقف الجدل فى القرآن قد ذمت ، بخلاف البرهنة فانها محمـودة على طول الخط ما لم تكن دفاعا عن باطل ، فلا تذم لذاتها وانما باعتبار الأصل أو الشبهة التى سيقت لها .

الثالث : إن القرآن الكريم قد ساق أدلة كثيرة وسماها بالحجة أو السلطان أو البرهان ، ولم يطلق على واحدة منها لفظة الجدل .

الرابع : ان المسلمين قد توقفوا مدة كبيرة أمام ظاهرة الجدل ، وما زال كثير من رجال السلف يذم تلك الطريقة ولم يكن ولن يكون الأمر كذلك بالنسبة للاستدلال .

هذه الوجوه تكشف عن مدى الفوارق بين الجدل والاستدلال ، وتنبه الى ان الطريقة الأولى مقبولة بقواعد معينة ، وشروط خاصة ، وأما البرهنة والاحتجاج فهو طريق محمود غالبا ، وصاحبه لا نستطيع أن نتهم نفسه بالخصومة والعداء واللدد . وهو يدافع عن قضية يراها حقا ، ولا يقـام الدليـل على شبهة عند المنصفين ، وللبرهنة أصـول وقواعد يجب أن تراعى غير تلك الآداب التى يجب أن يكون عليهـا المجادل والعجيب أن الدكتور الألمعى قد ناقض نفسه اذ قال [ان مادة الجدال لم تكن بالمـادة التى يقصد اليها القرآن قصدا أوليـا فى هداياته وتوجيهاته فهو لا يستهل دعوته بالجدال والمناظرة ، ولكـن يقيم الحجج والبراهين ويسوق المعلـومات والمبادىء — أحيانا — بأسلوب الوعظ والارشاد ، والوعد والوعيد تربية للنفوس وتهذيبا للأخلاق ، وهداية للمتجمعات الانسانية ... وكثيرا ما أثار الجدال والنقاش الحاد باصطلاحاته المنطقية العناد واللجاجة بين المتناظرين فيضيع الحق .

والقـــرآن لا يأتى بالجدل الا عند معارضة خصومه له وتوارد الشبه ، فيلجم القرآن خصومتهم بالجدل المحكم والاستدلال الملزم بأسلوب رائع مفحم ، وهذا هو المنهج العام لأدلة القرآن ، وما ورد بخلاف هذا من الأدلة فهو لحكمة تقتضيها أسرار التنزيل القـــرآنى ، وقد اقتصر علماء السلف على ما تدعو اليه الحاجة مع فهمهم للنصوص وأبعاد المخاطبات] (٣٩) .

وفى هذا النص يعترف أن الحجج والبراهين سابقة عن منهـج الجدل ، ولاحقة لحكمة تقتضيها أسرار التنزيل ، كما يعترف بأن الجدل يأتى فى مرحلة متأخرة بعد أن تظهر الخصومات والمجادلات ، ولا ينفرد الجدل وحده بل تكون معه محاولات الوعظ والارشـــاد والوعـــد والوعيد ، هذا مع ما للجدل من مساوىء أشار اليها صراحة ، فـــاذا ما عجبنا من تناقضه عندما يجعل الجدل شـــاملا لجميع البراهـــين فلا نكون مجادلين أو مخاصمين ولكن منصفين ومحققين .

علاقـــة الجـــدل ببعض المصطلحات :

الجدل فى طبيعته وخصائصه غير الاستدلال كما ذكرنا ، ولكن المجادل قد لا يستغنى فى كثير من مواقفه عن أن يرجع الى البرهنـــة ويسوقه من الأدلة ما يراه مناسبا لموقفه ، وتتكون المجادلة أنذاك من مخاصـــــمة واســـتدلال .

وهناك من الألفاظ ما يختلف حينا مع المجادلة مثل المناظـرة فهى كما سبق : توجه المتخاصمين فى النسبة بين الشيئين اظهـــارا للصواب ، وهذى غير الجدل الذى يهدف الى الزام الخصم والتغلب عليـــه بأى شـــكل .

---

(٣٩) نفس المصـــــدر ١٤

وهو غير المكابرة لأنها تعنى : المنازعة والالزام لمجرد الرد ، وكابر فلان فلانا على حقه جاحده وغالبه عليه وكابر فى الخبر أو الحق عاند فيه ، فهى لا تعنى سوى اجتياز المجلس والشهرة ، أو مطلق اللجاجة أو غير ذلك من الأغراض التى لا تغنى فى الحق فتيلا(٤٠) •

والجدل غير المماراة ، وذلك لأن التمارى أشد فى الخصومة من الجدل ، والجدل قد يقع مع الجهل بالشىء ، أو عدم الفهم للمسألة المثـارة ، ونظل نقول يجادل • حتى تتضح الحقيقة ، وتنكشف أمام العقول فان تمادى المجادل بعد ذلك فى الخصومة والمنازعة قلنـا انه انتقل من المجادلة الى المماراة ، ومنه قوله تعالى [**هـو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون**](٤١) وقوله [**أفتماورنه على ما يرى**](٤٢) أى تجادلون وأنتم شاكون فى أن الله اله واحد(٤٣) ، وأنه قد أرى الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته ما أراه فى رحلة الاسراء والمعراج •

واذا قلنا انها تختلف حينا فانها تتفق أحيانا بحيث يصح أن تكون لفظة الجدل هى الكلمة الجامعة التى تحوى فى مفهومها وطريقتها بقية الألفاظ ، ولذا لانجد لفظة من ألفاظ المناظرة أو المكابرة أو المماراة الا وذكرت كلمة الجدل بين معانيها ، أو جاءت كلمات المعاندة والمخاصمة أثناء الحديث عن مفاهيمها ، تجد ذلك واضحا من خلال تناول معاجم اللغة لتلك المصطلحات ذاتها(٤٤) ، ومن خلال تأويل المفسرين لألفاظ المماراة وتمترون •

---

(٤٠) المعجم الوسيط ج٢ ٧٧٢ وتاريخ الجدل لابى زهرة : ٥
(٤١) الانعـــام الآية ٢
(٤٢) النجـــم ١٢
(٤٣) تفسير القرطبى ج٩ ٣٨٩
(٤٤) انظر المعجم الوسيط ج٢ ٧٧٢ ، ٨٦٦

وفسر ابن عباس قوله تعالى [**فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج**] (٤٥) قال [**والجدال المراء**] وفى رواية (ولاجدال فى الحج أى تمارى صاحبك حتى تغضبه)(٤٦) وروى عبيد الله ابن عبدالله عن ابن عباس أيضا أنه تمارى هو والحر بن حصن الغزاوى فى صاحب موسى أوفتاه قال ابن عباس هو خضر فمر بهما أبى بن كعب فدعاه ابن عباس قائلا : انى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل موسى السبيل الى لقيه هل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[بينما موسى فى ملاء من بنى اسرائيل اذ جاءه رجل فقال هـل تعلم أحدا أعلم منك ؟ قال موسى لا ، فأوحى الله الى موسى بل عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل اليه فجعل الله له الحوت آية ، وقيل لــه إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقــاه] الى آخر الحــديث رواه البخارى ، قال ابن حجر [تمارى أى تجادل](٤٧) ، والمكابرة تحوى جدلا وكذا المناظرة ، وهكذا تتداخل الألفاظ وتتحد فى بعض المواقف .

وهذا التداخل أحيانا جعل الشيخ أبو زهرة يحكم بأن المناقشة الواحدة قد تشتمل على كل هذه الأنواع [قد يبتدئ المناقشان متناظرين طالبين للحق فينقدح فى ذهن أحدهما رأى يثبت عليه ، ويأخذ فى جذب خصمه اليه .. وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا] وربما تعصب لرأيه وأخــذته العزة ، ولا يقبل من خصمه أى حجة مهما كانت ، ويستمر فى لجاجته [فينتقل الجدل الى مكابرة] وقد تشــتمل المناقشــة على جــدل ومناظرة معا(٤٨)] ، واللفظة الأوسع معنى هى لفظة الجدل ، ولــا كانت

---

(٤٥) البقــرة ١٩٧
(٤٦) البخارى كتاب الحج باب ٣٧ نقلا عن فتح البارى ج٣ ٤٣٤—٤٣٥
(٤٧) نفســه ج١ ١٦٨ — ١٦٩
(٤٨) تاريخ الجـــدل ٥ — ٦

كذلك فلا نعجب اذا استخدمت فى القرآن بصورة أوسع ، وكانت طريقا للأقوام فى خصومتهم مع الأنبياء ، كما كانت منهجا وحرفة للأنبيـاء فى محاولاتهم لاقنـاع الخصوم ، ومع أننا قلنا فى المناظرة انها أدق وأصفى من المجادلة الا أن المصطلح الأخير أشمل مفهوما ، وأكثر شيوعا ، من ثم وضعناه فى الترتيب عقب المناظرة مع أن منهجنا فى الدراسة يتبع سبيل التدرج •

انواع الجــــدل :

الجدل فن أو استدلال ، والجدل وسيلة أو ذريعة أو منهج لتقرير العقائد أو الحقائق أو المذاهب أو الأفكار والآراء الخاصة ، واذا كان كذلك فلا تنوع باعتبار ذاته أو منهجيته ، ولكنه ينقسم باعتبار مـا تحويه نفس الخصوم وما تحتهم عليه ، وما ينبنى عليه الجدل من علم أو جهل ، من حقيقة أو شبهة ، وما يقدمه المجادل من أدلة أو سفسطة أو رد ودفع بدون سند ، أو منازعة تقـوم على التمسـك والهـوى والاستكبار ، أو تقوم على اليقين والنصفة وحب الحق والانتصـار اليه ، أو الخضوع لمنطقه وبراهينه ، ومن تماد فى المخاصمة بدون وجه أو قطع لها عندما يلمع وجه الحق جليا ؛ حول هذه الاعتبارات النفسية والمنهجية ينقسم الجدل الى محمود ومذموم •

والقرآن الكريم نظر الى هذا المصـطلح من زاويتين : الزاوية اللغوية والواقعية ، ونعنى بها ما تحمله الكلمة من لدد فى الخصومة ، وتعنت ، وتعصب للرأى ، وما جرى من أرباب الباطل حيث جادلوا مع افتراء وكذب وجهل وسوء أدب وتجرؤ على الحق ، وعدم انصـياع لحجته البارزة الى آخر ما سوف نذكره ، ولقد قضى القرآن بذم الجدل من تلك الناحيـة •

والزاوية الثانية تلك التى ندعوها بالمنهجية ، أى التى وضـعت لها الضوابط والآداب التى تكفل لها انتاجا مثمرا ، مع صـفاء نفسى

ورغبة فى معرفة الحقيقة ، وقدرة على الاستدلال ، وانما عنيناها باسم « المنهجية » لكون الشرع اذن بها واعتبرها طريقا من طرق الاقناع ، بينما لم يعتبر الأولى وذمها وعنف أربابها يقول الفخر الرازى فى تلك القسـمة •

الجدل نوعان : جدل فى تقرير الحق وهو حرفة الأنبياء وهو المحمود ، وجدال فى تقرير الباطل وهو المذموم المشار اليه بقوله سبحانه **[ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد]** وقوله **[وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق]**(٤٩) ووضع الألوسى قاعدة نحوية تميز الآيات التى ورد فيها المدح عن الأخرى التى جاء فى سياقها الذم فقال : ان المجادلة التى تتعدى اللفظة الى ما بعدها بفى تكون مذمومة ، وتقتضى أن يكون الشىء مشكوكا فيه عند المتجادلين جميعا ، أو مشكوكا فيه عند طرف دون طرف ، أو يكون منكرا لديهم أو لدى أحدهما ، واذا ما تعدت بعن فيكون الجدل فيها محمودا، ويرد لايضاح الملتبس ، أو حل المشكل ، ويستخدمه أهل العلم فى استنباط المعانى والذب عن شىء ما ، أورد أهل الزيغ عن زيغهم(٥٠) ، وهو من أعظم أنواع الجهاد •

ولا بأس أن نتجول قليلا مع كل من النوعين مبتدئين بالمحمود لكونه منهجا دعا اليه الشرع وحث عليه ولو أن الآيات التى تحدثت عنه قليلة ، ثم نتابع أسباب ذم النوع الثانى الذى حشدت له الآيات حشدا كبيرا •

دواعى مدح الجدل :

لكى تتخلص تلك الطريقة من عيوبها فان القرآن قد وضع لها قيدا عاما ، وتضافرت جهود العلماء على شرحه وخدمته وتحليله

---

(٤٩) التفسير الكبير ج٢٧ ٢٩

(٥٠) روح المعانى ج٢٤ ٤٣

وتفصيله ، وجاء هذا القيد العام بصيغة واحدة فى كل من سورة النحل والعنكوب ، قال سبحانه [**وجادلهم بالتى هى أحسن**] [**ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن**](٥١) ، ان القرآن لم يطلب الحسن فى الجدال ، وانما طلب الأحسن ، أى أرقى وأفضل طريقة يجادل بها ، وانما جاءت بصيغة التفضيل لما يحويه الجدل من شدة فى الخصومة، ومن تعنت وتعصب ، فلكى يقاوم القرآن هذا الميل العارم نحو الهوى أتى فى الجهة المقابلة بصيغة تفيد الدقة المتناهية فى الحسن حتى تؤثر على نفس المخاطب أو الخصم ، وحتى ينتبه المجادل المسلم جيدا لما ينبغى أن يكون عليه فكرا ونفسا ولفظا .

ومن الناحيــة الفكرية : فيلزم أن تكون المسائل الدينية التى يجادل من أجلها سواء كانت أصولية كاثبات التوحيد والنبوة والمعاد أم فرعيـة على غرار جدل الفقهاء لاستنباط الأحكام واسـتخراجها يلزم أن تكون واضحة فى ذهن المجادل وضوحا تاما ، وأن يكون ملمـا بأصولها وأدلتها المـاما دقيقا ، ويعمد فى هذا الجانب الفكـرى الى تجلية الغوامض واستنباط الحقائق وقطع المطاعن . وازالة الشبه(٥٢).

ولن يصل الىمطلوبه الفكرى أو العقدى أو الفقهى الا اذا نوع فى الأدلة طبقا لظروف المجادلة كما نوع نوح(٥٣) ، وأكثر من مجادلة قومه حرصا منه على هدايتهم ، الا أنهم لضيق صدورهم بالحـــق استكثروا ذلك وطلبوا منه أن يكف أو يطلب تعجيل العقاب قال الألوسى [يا نوح : شرعت فى جدالنا فأطلته ، أو أتيت بنوع من أنواع الجدال

---

(٥١) النحل من الآية ١٢٥ والعنكبوت من الآية ٤٦ ، ونشير الى أن الآيات التى مدحت الجدل جاءت فى ثلاثة مواضع فقط ، هذان الموضـعان والآية ٣٢ من سـورة هـود .

(٥٢) الفخر الرازى : التفسير الكبير ج١٧ ، ٢١٨ ، وتفسير البيضاوى ج٥ ٣٤

(٥٣) هود ٣٢ [قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا] .

فأعقبته بأنواع أخر](٥٤) ، ولا نظن أن تنويع الأدلة ربما يؤدى الى سآمة وملل كما بدا من قول قوم نوح ، لأن قولهم له : [يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا] ليس نابعا من سآمة وضيق بكثرة الأدلة ، وانما هو نابع من انغلاق عقلى وقلبى وصدود عن قبول الحق •

والمجادل الذى اتضحت لديه أصول وفروع المسائل التى ينافح من أجلها لابد أن تكون لديه قدرة فائقة على عرض أفكاره ومعتقداته ، وأن يكون حاضر البديهة ، قوى الفطنة ، سريع الخاطر حتى لا يتعثر أمام لجاج الباطل وحيله فينهزم ، ويظن أن الحق هو الذى توارى ، والحقيقة أن الحق قوى ولكن الضعف والانهزام أتى ممن قام يجادل عنه، اننا نذكر أن أحد المخلصين ذهب الى قيصر روسيا فى القرن العاشر الميلادى ، وعرض أمامه الاسلام ولكنه لم يجد العرض ، وتحدث فى مسائل لم يحن وقتها مثل الختان وشرب الخمر ، ثم أعقبه بعد ذلك قسيس ماكر لاين القيصر وزين له دينه ، وأطمعه فى ملك الدنيا والآخرة ، فكان من نتيجة ذلك ، وبعد مشاورات ورحلات أن تنصر قيصر روسيا وحمل بلاده كلها على النصرانية (٥٥) ، والجدير بالذكر أن الانتصار لم يكن لدين على الاسلام ، وانما كان لطريقة ماكرة على طريقة فجة لم يعد لها الاعداد الجيد •

وعلى هذا فيتلخص الجانب الفكرى الذى يجب أن يمتاز به المجادل بالتى هى أحسن فى معرفة المسائل التى يجادل عنها ووضوح أدلتها ، واتساع علمه الضرورى والاستدلالى (٥٦) ، وأن يركز جل همه فى هذا الاستدلال على القرآن الكريم حتى لا يستعمل من المواد ما لايليق بالمقام فلا يأتى بالنتيجة المرجوة ، وأن يكون لبقا فطنا ، حاضر

---

(٥٤) روح المعانى ج١٢ ص٤٥
(٥٥) توماس أرنولد : الدعوى الى الاسلام ٢٧٣ — ٢٧٤ •
(٥٦) وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٤ ١٩٤ ، تفسير الفخر الرازى ج٢٧ ٢٣ •

البديهة والخاطر ذكيا على دراية بما يقدم هنا ومالا يقدم ، وأن يعى الواقع الذى يجادل فيه ، وظروف الخصوم الفكرية والعلمية والعقلية والاجتماعية ، وأن يتنبه لما هم عليه من شبهة ، وأن يصغى لهم أن ارادوا عرضها عليه •

وعليه أن يعمل لجذب الخصم الى عقيدته وأفكاره بما يقدم له من حسن الاستدلال حتى يضطره الى التأمل فيما عرض عليه من آراء ونظريات ، وبالتالى يدعوه الى قبولها والايمان بها ، وتتم عملية العرض والجذب بشرح المبادىء التى يدين بها المجادل شرحا وافيا ، وأن يجلى خفيها ، ويزيل ما التبس منمسائلها على الخصم ، وأن يبدأ فى ذلك بأقرب فكرة بينه وبين الخصم ، أو بالفكرة التى يراها محلا للاتفاق بينهما ان وجدت ، وعلى سبيل المثال فان كان يجادل مشركين بدأ من نقطة خلق الله للسموات والأرض وهى محل اتفاق ثم ينتقل منها الى أن الخالق هو المستحق للعبادة وحده ، وأنه لا يستوى من يخلق فى ذلك مع من لا يخلق ولا يرزق ولا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ، وان كان يجادل كتابيا بدأ من نقطة الاتفاق حول عبادة اله واحد ويتسلسل منها •

ولا بأس من تناولمسائل الخصم كالشرك أوالاعتقاد فىالوهيةعيسى أو نبوته ثم يناقشها ويعرض النتائج الفاسدة المترتبة عليها ، ويكون فى عرضه دقيقا غير متحامل ولايثير حفيظة الخصم بالتجرا الشديد على أفكاره وعقائده ، ويظل كذلك حتى يميله الى الخضوع للحق بعد أن يدركه ادراكا جليا •

ومن الناحية النفسية فان الجدل المحمود يقتضى أن يتصف المجادل بمعارضة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمراغبة بالنصح(٥٧) ، وأن يكون رفيقا منبسط الوجه طلقا مع البر والفاجر ،

---

(٥٧) الكشاف ج٢ ١٩٢ ، وتفسير البيضاوى ج٤ ١٤٠

والسنى والبدعى من غير مداهنة ، ولا ارضاء للخصم بما يتفق مع مذهبه ، قال طلحة بن عمر : قلت لعطاء : انك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة وأنا رجل فى حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ فقال لا تفعل ، لأن الله يقول [**وقولوا للناس حسنا**](٥٨) ، ولا يخفى عليك الفرق بين مطالبة القرآن فى الحديث العادى بأن يكون على وجه حسن وبين مطالبته فى الجدل بأن يكون بالتى هى أحسن ، فكلما زاد الخصم حدة زدت لينا وحسنا .

وعلى المجادل أن يتصف بحسن الخلق ، وأن يكون ناصحا أمينا ، ولا يتعالى على خصومه ، أو يستخف بهم ، أو يجرح شعورهم فى أفكارهم أو هيئتهم أو شبههم أو لغتهم ، وأن يكون منصفا للجميع ، ولا ينظر الى نفسه ، ولكن يتطلع الى الحق وحده ، قال البيضاوى وذلك كله [أنفع فى تسكين لهيبهم ، وتبيين شغبهم أو شبههم] .

وما يجب أن يكون عليه الجدل بالتى هى أحسن من الناحية اللفظية

فان المجادل ينبغى أن يقدم أفكاره للخصوم فى أسلوب جيد ، وبراعة فى المنطق ، مع حسن الاستهلال والاداء والايقاع اللفظى الجميل ، ويتجنب فى ذلك اللفظ المسف أو الصعب المستغلق ، أو الفاحش البذىء فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول [ما بعثت سخاطا ولا لعانا ولكن بعثت هاديا ورحمة] ويبتعد تماما عن ألفاظ السباب والشتم والتهكم والاستخفاف [**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**](٦٠)، ولندرك مع هذا كله ان قوة الاستدلال لا تنفصل عن رحابة النفس وهما لا ينفصلان عن جمال الأسلوب ، وان قوة البرهان تفتح مغاليق العقل ، والرحمة ولين الجانب يكسران حدة

---

(٥٨) البقرة من الآية ٨٣ وانظر تفسير القرطبى ج٢ ١٦
(٥٩) التفسير ج٣ ١٩٥ وروح المعانى للألوسى ج١٤ ٢٥٤ — ٢٥٦ .
(٦٠) الانعـام ١٠٨.

النفس عند الخصم ، وكذلك فللبيان سحره وقوته ، قال عبد الله بن عمر : قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ان من البيان لسحرا أو ان بعض البيان لسحرا] (٦١) وهذا بناء على أن الحديث فى مدح البيان من جهة تأثيره وجماله ، وروى ان عمر بن عبد العزيز جاءه رجل فطلب منه حاجة فتعذر اسعافه بها ، فاستلان الرجل قلب عمر فأنجزها له ثم قال [هذا هو السحر الحلال] (٦٢) .

وبعد أن وقفنا على ما ينبغى أن يكون عليه الجدل والمجادل فكرا ونفسا وأسلوبا نلفت النظر الى حقيقتين هامتين :

أولاهما : ان القرآن الكريم وهو يضع تلك القواعد التى تحيل الجدال الى صورة هادئة من الفكر والخلق ، وانى أسلوب رشيق جذاب انما ينظر الى الخصوم نظرة اشفاق لا نظرة عداء ولا استعداء ، ومن الجدير بالذكر أنه يصف هؤلاء فى موقفهم من الحق بالفجاجة العقلية ، والقصور فى مداركهم وقدراتهم الذهنية ، ومع ذلك يرفق بهم أشد الرفق ، ويطالب النبى صلى الله عليه وسلم بالرحمة واللين والصبر الجميل .

ثانيهما : لقد اعتبر القرآن الجدل بهذا الشكل الأحسن ضرورة تحتاج اليها بعض النفوس كوسيلة فى الاقناع ، وذلك لأن بعضهم قد يعاند ويصر ، وتأبى طبيعته أن تقبل وتهضم ما يقدم اليها بسهولة ، ومن هنا فيكون الجدل وسيلتها فى الالزام ، ليكسر عنادهم ، أو يلين جحودهم ، ويرد افتراءهم وأكاذيبهم ، ويدحض أباطيلهم

---

(٦١) البغوى شرح السنة ج٢ ٣٦٢ ، والموطأ ج٢ ٩٨٦ ، والبخارى ج١٠ ٢٠٣

(٦٢) شرح السنة ج٢ ٣٦٥ وانظر ابن نجم الحنبلى كتاب استخراج الجدل ٥٢ — ٥٣

وشبههم ، فلا غرو والحال هكذا أن يكون الجدل حرفة الأنبياء ومنهجهم المشترك لجذب الأقوام واقناعهم ، الا أنه ينبغى على الأنبياء أن يسيروا فى جدلهم وفق تقبل وطبائع الخصوم ، وألا يتمادوا على طول الخط فى الجدل وأن تكون سير العملية الجدلية وفق ردود الطرف الآخر ، تتغير طبقا لمقتضى ردهم ، أو تتوقف نهائيـا تبعا لظروفهم النفسية وعدم قبولهم بالمـرة •

ومثال اللجوء الى تغيير الطريقة تبعا للرد ما جاء فى مجـادلة سيدنا ابراهيم للنمروذ ، لقد قال له «**ربى الذى يحيى ويميت**» قال «**أنا أحيى وأميت**» عندئذ ترك الملك وشأنه ، وكان بمكنته أن يصب عليه كثيرا من الاعتراضات المتعلقة بهذا الرد ، ولا ينسحب من تلك الجهة ، الا أنه لمـا رأى أن خصمه مصر على موقفه ودعواه ، وغير نشط للانتقال نحو الحقيقة من هذا الوجه تركه وانتقل الى وجه آخر فقـال «**أن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـا من المغرب فبهت الذى كفـر**» (٦٣) ولكنه لم يتبع الحق ويسلك طريقه •

وقـد نلجـأ الى الانسـحاب من الجـدل بسـياسة حكيمة عندما نرى الخصم قد اتضحت له الحقيقة تماما ، ومع ذلك ظل سائرا فى طريق المكابرة والعناد ، عندئذ علينا أن نمسك عن الجدل والاستدلال معا ، ولا بأس أن نلقى عليه شـيئا من الوعيد والتحذير ، ومصداق هذا ما جاء فى قوله تعالى [**وأن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون**](٦٤) •

---

(٦٣) البقـــرة ٢٥٨

(٦٤) الحج ٦٨ — ٦٩ وانظر فى ذلك الفخر الرازى ج٢٣ ٦٥ ومنهـج الدعوة الى الله أمين أحسن اصلاحى ٦٣ — ٦٩ وتفسير القرطبى ج١٢ ٩٤ وتفسير البيضاوى ج٤ ٦ والكشاف ج٢ ٣٩

أسـباب ذم الجـدل :

رأينا فى دواعى مدح الجدل أن القرآن قدم عبارة واحدة استخلص منها العلماء آدابا تتعلق بالجانب الفكـرى والنفسى واللفظى ، ونراه هنا فى مسلك ذم تلك الطريقة يسلك طريقا غير طريق الباحثين المنظريين الذين تناولوا هذا العلم ووضعـوا ضـوابطه ، وذلك لأنه نظر الى الموضوع فى ذاته ، والى الأساس النفسى الذى قام عليه لدى المجادل، ثم المسائل التى انبثقت من هذا الموضوع وأساسه ، وبناء عليه فقـد أعلن القرآن أولا أن خصوم الحق جادلوا بالباطل ، وفيما لا نفع فيه بالمرة ، وياليتهم رأوا الباطل مذهبا أو شبهة خامرت عقلهم فراحوا يدافعون عنها فحسب اذا لهان الأمر نوعا ما ، ولكنهم دافعـوا عن الباطل فى صورته الفاسدة ، وأرادوا اظهاره على الحق ، وتعنتوا فى طريقة المنازعة ، ولم يبنوا جدلهم على علم وبينة وانما بنوه عـلى أساس من الجهل والتقليد (٦٥) ، ولم يستطيعوا اقامة أى دليل على زعمهم ، واحترفوا الجدل على الباطل احترافا ، ونفذوا ذلك فى خشونة وفظاظة وصلف واغلاق لعقولهم وصدورهم .

وحول الباطل الذى هو موضوع الجدل المذموم يقول الله سبحانه عن أصحابه [**ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا**](٦٦) ، ويحاول المفسرون تحديد الباطـل الذى تحمس له المنكرون فيرون أنه انكار النبوة أصـلا ، والادعـاء بان الرسل لا يكونون بشرا مثلنا ، ولو اختار الله مبلغين عنه لاختارهم من الملائكة ، ولمـا كان موقفهم على هذا النحو فقد تشددوا فى طلب الآيات ، وفى الاكثار من الأسئلة التى يرونها تحرج الأنبياء حسبما يتصورون(٦٧) .

---

(٦٥) تفسير الفخر الرازى ج١٧ ٢١٨ ، وتفسير القرطبى ج٩ ٢٧—٢٨

(٦٦) الكهف ٥٦ ، غافر الآية ٥ .

(٦٧) الكشاف ج٢ ٣٩٤ ، وتفسير البيضاوى ج٢ ٢٢٩ .

وترتب على تمسكهم بالباطل وانكارهم النبوة التى هى بيان لوجوه الحق أن جادلوا فى الله ذاته ، وذلك لأنهم لما لم يقبلوا النبوة التى تعتبر بيانا عن الله يخبرنا من خلالها عن ذاته وصفاته وأفعاله ، وما أعده لنا فى الدنيا والآخرة راحوا يجادلون فى الله بعقولهم ويتصورونه تصورات فاسدة ، فقالوا أمن نحاس هو أم من حديد ، أم من زبرجد أم من ياقوت ؟ الى آخر هذه الأوهام التى قاسوا فيها المولى عز وجل على أصنامهم التى صنعوها بأيديهم ، واستطردوا بعد ذلك فى جدالهم حول الالوهية ينكرون ما يصفه به الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن من الوحدانية والعلم وسائر الصفات ، ومن أنه قادر على اعادتهم كما قدر على خلقهم وخلق الكون كله ، يقول جل علاه فى وصف هذا الجدل حول ذاته **[ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال]**(٦٨) ويقول سبحانه .

[ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم . ولا هدى ولا كتاب منير](٦٩) ، فلم يبنوا جدلهم فى الله على دليل من عقل أو وحى أو ضرورة كما جاء فى تعبير الألوسى (٧٠) ، وما هو الا اتباع للنفس والشيطان .

وكما جادلوا فى ذاته جادلوا فى آياته بغير سلطان آتاهم ، وقد امتلأت قلوبهم بالكبر والحسد والهوى ولما لم يجدوا حجة تدعم شبهتهم زعموا أنها أساطير الأولين (٧١) ، وجدالهم فى الآيات تناول مصدرها وأحكامها فقد أنكروا أن تكون من الله كما اعترضوا على أحكام تخصها

---

(٦٨) الرعد ١٣ ، وانظر تفسير الفخر الرازى ج١٩ ٢٧ والبيضاوى ج٢ ١٤٨ ، والكشاف ج٢ ٢٨٣

(٦٩) الحج ٨ ، أيضا ٣

(٧٠) روح المعانى ج١٧ ١٢٢ ، وتفسير القرطبى ج١٢ ٥ ، ١٥

(٧١) الانعام ٢٥ غافر ٤ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٦٩

مثل قولهم : أتأكلون ما قتل الصقر والكلب ولا تأكلون ما قتل الله وهى الميتـــة(٧٢) •

وهكذا فسد التصور ، وخلت العقول من علم ، وامتلأت جهــلا وتقليدا فجادلوا فى كل شىء ، فى النبوة والألوهية والبعث ، والأحكام الفقهية ، كل ذلك بلا سند ولا حجة ؛ فاستحقوا الذم فى ذواتهم وفى منهج الجدل وطريقته التى سلكوها •

وأنت تلاحظ معى أن القرآن الكريم فى ذمه للجدل والمجادلـين قد ركز على الجوانب الدينية : الأصولية مثل النبـوة ، والألوهيـة والبعث والآيات ، والفرعية كالأحكام المشار اليها ، وبالطبع فان الدين هو الموضوع الرئيسى ، والغاية من نزول الوحى ، ولم يذم الجـدل لأى ســبب دنيوى آخر •

الجــدل قد يذم حتى فى رحاب الايمان :

لم تعتبر قضية الايمان والكفر هى الفيصل فى مدح الجدل مع الايمان وذمه مع الكفر بل أراد الله أن يضبط مسألة المجادلة ضــبطا قويا ، فاعتبر الجدال عن الباطل مذموما ، كما اعتبر أى نوع من الجدل لم يبن على حقيقة واضحة جلية ، أو خالف الواقع ، أو قصد به محاباة بعضهم دون بعض ، أو كان مثيرا للخلاف والشقاق ، أو سيق فى مقام الدفــاع عن النفس وتبرير موقف ، كل ذلك قد نهى عنه القــرآن وحـــذر منــه •

ومثال الجدل الذى لم تتضح فيه الحقيقة ، وجاء مخالفا للواقع قوله سبحانه [ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو

---

(٧٢) تفسير الفخر الرازى ج١٣ ١٦٨ [الأنعام ١٢١] •

مهم أذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ، ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمن يكون عليهم وكيلا](٧٣) .

هـذه الآيات نزلت تقوم طريقة الجدل ونوايا المتنازعين داخل المجتمع المؤمن ، ففى زمن نزول الوحى وعصر الرسول نقب بنو أبرق ، وكانوا ثلاثة أخوة بشر وبشير ومبشر وأسير ابن عروة بن عم لهم مشربة لرفاعة بن زيد فى الليل ، وسرقوا أدراعا له وطعاما ما فعثر على ذلك ، وقيل بل السارق بشير وحده ، فجاء ابن أخى رفاعة الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم يشكوهم ، ورد أسير بن عروة قائلا : يا رسول الله ان هؤلاء عمدوا الى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فأنبوهم بالسرقة ورموهم بها من غير بينة ، وجعل يجادل حتى غضب رسول الله صـلى الله عليه وسلم على قتادة ورفاعة فأنزل الله **[ولا تجادل عن الـذين يختانون أنفسهم]** وفى الوقت نفسه رموا بريئا بالسرقة هو لبيد بن سهل(٧٤) ، ولمـا اتضحت الحقيقة بنزول الوحى فر السارق الى مكة ، وأراد الله سبحانه أن يتخذ من هذا الموقف الجدلى الذى بنى عـلى غير حق ، واتهم فيه أشخاص بالباطل أراد أن يتخذ منه حكما عـاما تجب مراعاته فى كل شبيه ونظير ، وأن يبين أن اى مجادلة تكون على هذا النحو فهى مذمومة ، وعلى المؤمنين أن يتحروا الدقة التـامة ، وأن يكون الحق رائدهم ، وألا يحيدوا عنه لأى اعتبار وتحت أى ظرف أو صلة ، وليعلموا أن أى مخالفة للدقة فى المجادلة سوف تكون عاقبتها وخيمة فى الآخرة ، وعلى فرض أن الجدال بالباطل ستر مذنبا أو أضاع حقا فهل سنستطيع اقامة الجدل عن المخطئين يوم القيامة وستر حالهم بالزور ؟ ان الأمر لن يكون كذلك .

---

(٧٣) النســـاء ١٠٧ — ١٠٩

(٧٤) تفسير القرطبى ج٥ ٣٧٥ - ٣٧٩ وتفسير الفخر الرازى ج١١ ٣٧ والكشاف ج١ ٢٩٧

وكذلك فان الجدل الذى يثير خلافا وشــقاقا بين المسلمين فى أى مكان ولأى سبب فان الاسلام قد ذمه ، ومنه قوله جل شــانه **[فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج](٧٥)**، ولا جدال فى الموقف بعرفة ، ولا جدال فى الزمان بأن يقال الحج اليوم أو غدا ، ولا جدال فى تمام الحج وكماله بأن يدعيه فريق على فريق ، ولا مخاصمة بين الأصدقاء والخدم والمكارين ، ولا منازعة تؤدى الى السباب أو التكذيب(٧٦) ، وقس على هذا بأنه لا جدال فى الصــيام ولا فى مواقيت الصلاة وأن ما يحدث بين المسلمين من خلاف حــول تحديد بداية شهر رمضان وما يترتب عليه من اختلافهم فى الصــيام وشهور الأعياد ، وما يحدث بين المسلمين من جدل داخل المساجد حول ميعاد الآذان هذا كله من الجدل المذموم ، ناهيك عما يقوم به الجهال أو من يتسم بضيق الأفق وقلة المعرفة من خلاف حول الصلاة على رسول الله عقب الآذان ، أو تسويد النبى صلى الله عليه وســلم فى التشهد وعدم ذلك .

وأيضا فان أى جدال حول القضايا التى يتوقف عليها مصــــير الأمة كالجهاد اذا تعين مذموم ، والشاهد الذى يجب أن نحتذى حذوه هو قوله تعالى فى شأن الصحابة بعد أن فاتهم العير وطولبوا بالنفير فى غزوة بدر ، وأعلمهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنه لا يتخذ قرارا من هذا النوع الا بأمر الهى ، وأنهم وعدوا احدى الحسنيين ، فلا يليق بهم فى هذا الحال أن يجادلوا النبى صلوات الله عليه وقد اتضح الحق اتضاحا قويا ، لذا ذم جدلهم فى قوله تعالى **[يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون](٧٧) ولشدة الذم شبه**

---

(٧٥) البقــرة من الآية ١٧٩

(٧٦) روح المعانى ج٢ ٨٦ ، البيضاوى ج١ ٢٢٥ والفخر الرازى ج٥ ص١٦٥ — ١٦٦

(٧٧) الانفال ٦ انظر الكشاف ج٢ ١١٥ ، والقرطبى ج٧ ٣٦٩

حالهم بحال من يساق الى الموت قسرا وهو يرى ويشاهد مصيره ، ألا ما أحوجنا الى مثل ذلك كي تتحد كلمتنا أمام الحق الأبلج ، وكي ندع الجدل النابع من الغرور وحب الرئاسة والخوف على السلطة حتى ننطلق الى غاياتنا المرجوة ٠

وأحيانا يلجأ الانسان الى الجدل دفاعا عن نفسه مع أن الحق واضح ، فهذا أيضا من الجدل المذموم ، لقد حدث على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة فقال [ألا تصليان] فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف رسول الله حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيئا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول [وكان الانسان أكثر شىء جدلا] (٧٨) ٠

فأنت ترى أن عليا أراد أن يجادل عن موقفه متذرعا بالمشيئة ، وبفعل الله وحده ، ولما تبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اللون من الجدل ، ولم يرتضه ، ولم يره مطابقا للمراد وان كان حقا فى نفسه سكت واعرض عن الجواب ، وصار يضرب فخذه للتأسف على تلك المجادلة ، وكان الأولى أن ينسب على التقصير لنفسه بدلا من التذرع بالمشيئة ، أو الاحتجاج بقوله تعالى [الله يتوفى الانفس حين موتها]٠

وأخيرا فان الجدل فى العبادات أو المعاملات ان تجاوز حد الحقيقة الواضحة ، أو خالف واقعا ، أو فرق مجموعا ، أو أساء الى أحد فهو مذموم مهما كان قائله على حالة من الايمان ، وهذا توجيه قويم من القرآن الكريم ٠

خلاصة :

يتبين لنا مما سبق أن الجدل طريقة تقوم على القوة والصلابة واللدد فى الخصومة والرغبة فى الانتصار على الخصم ، وأنه فن يهتم

---

(٧٨) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج٣ ١١

بكل هذا ، ويدبج الأدلة المناسبة ، ولقد ميز القرآن بين نوعين من أنواع الجدل : نوع يقوم على الحق ، ويعتمد على أدلة ، ويمتاز المجادل فيه بأنه خلوق وذو بيان حسن ، وهذا هو النوع المحمود ، وله فوائد يمكن الحصول عليها من وراء جريانه ، أهمها : تقوية الأذهان ، وتدريبها على المحاورة ، وعلى تنويع الاستدلال وسوقه دفاعا عن الحق ، وانتصارا له ، وتحقيقا لليقين فيه ، وبذا ينتصر أرباب الذكاء والقدرة على المجادلة والاقناع للعقائد الصحيحة ، ويدحضون ما سواها من الباطل ، ويلزمون الخصوم بنتائج شبههم الفاسدة ، ويدرجونهم شيئا فشيئا حتى يتخلوا عنها نهائيا •

وهناك نوع من الجدل ذمه القرآن لكونه يقوم على الباطل ، ولا يحمل صاحبه دليلا ولا حجة ، ومع ذلك يمارى فيما لا علم له به من نبوة وألوهية ، ووحى وتشريع •

ولكى تكون عملية المجادلة منتجة ، وتسير سيرا مثمرا فعلى كل الأطراف المشتركة فيها أن يتخلوا عن التعصب والتعنت واللدد ، وأن يفسحوا صدورهم للحق أينما ظهر ، ويستعدوا لقبوله بدليله ، وأن يلتزموا الطرق الاقناعية لا السفسطة ، وذلك بأن يقدموا أدلة صحيحة موثقة من جهة النقل ، أو مسلمة ومشهورة من جهة العقل ، أو ضرورية يسلم بها الخصوم تسليما كاملا ، والا تتعارض أدلة المجادل مع نفسها ، أو يكون ملتزما فى أمر من أمور بضد دعواه ، أو يكون الدليل عن الدعوى ، والا يطعن فى دليل خصمه الا بسند يدعم الرد ، وأن يساق ذلك كله من كل جانب مع أسلوب مهذب وعدم الاستهزاء والسخرية ، ثم فى النهاية لابد أن يكون كل طرف مستعدا للتمسك بوجهة النظر التى تثبت صحتها من خلال المجادلة[٧٩] •

---

(٧٩) انظر احياء علوم الدين ج١ ٧٠ — ٨٢ دار الكتاب العربى ، والشيخ محمد رضا المظفر : المنطق ٢٥٠ الطبعة الرابعة ، الامام زين الدين عمر بن سهلان الساوى : البصائر النصيرية فى علم المنطق ١٤٥ والدكتور زاهر بن عواض الألمعى : مناهج ٤٣١ — ٤٣٧ ، والعبيد ، منهج الحوار فى اثبات أسس العقيدة ٤٤ ، ٥٢ — ٥٧

الفصل الثالث

الموعظة طريق إلى التأثير والاقناع

تمهـــــيد :

سنتوقف قليلا مع لفظة الموعظة ومفهومها لنرى مكانتها بين تلك المحـاولات التى تؤثر فى النفس البشرية امالة واقناعا ، وتهـذيبا واصلاحا ، وسندنا فى اقحام هذا المصطلح بين مصطلحات الاثبـات المعتمدة على الدليل العقلى يقـوم على اعتبـار أن النفس البشرية متعددة الجوانب ، وأنها ليست صفحة واحدة تنفس عليها ضربا واحدا من الفنون ، ولكنها صفحات متنوعة ، ووجوه مختلفة ، كل منهـا له لغته وأسلوبه وطريقة التأثير عليه ، وخطاب النفس على أنها عقـل فحسب يفقدنا التعامل الواسع معها . ويحرمنا من مناطق شاسـعة يمكننا استثمارها داخل كياننا العجيب ، ونحن نعلم أنه يوجد لدينا عقل وعاطفة ووجدان وانفعال الى آخره ، فلما ذا نركز على العقـل وحده ؟ ولمـاذا لا ندخل الى العقل ذاته من أبواب أخرى ربما تكون أمامية عند بعضنا لا خلفية ، وقد تكون مفتاح الاقناع الصحيح عند كثيرين ، وأحيانا تطغى العاطفة أو الوجدان فيكون أى منهما هـو الصفحة الوحيدة القابلة للنقش عليها دون غيرها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان اعتبار الوعظ طريقة منبرية لا ترضي الا العقول الغفل أو الساذجة أمر يتنافى عند التحقيـق مع

تلك الطريقة ، لأنها عند النظر الثاقب تعنى بخطاب العاطفة تخويفا وترغيبا ، ترقيقا وانذارا ، كما تعنى فى الوقت نفسه باقناع العقل من خلال الاستدلال النقلى ، والأقوال الذائعة والمشهورة والعبـارات الحكيمة التى تفعم الذهن باليقين ، أو تستحثه عليه •

وهى عملية متكاملة فى حد ذاتها ، سواء منها ما يتعلق بحال القائل أو الواعظ ، ومقدار صورته ، ومهارته وذكائه وفطنته وبراعته فى الأداء والتأثير ، أم ما يتعلق بجودة العبارة ودقتها ، وكونها كالسيف الماضى والحاد ، أم ما يتصل بتشعب المعانى والتطواف بالنفس البشرية فى عبارات وجيزة بين معانى متعددة ، كل معنى له وجهته ووجاهته ، وله ما يقابله فى داخلنا ، ثم هى تخاطب فئات من البشر تجاوزوا المراحل الأولى من الايمان ، انها تعظ فى الغالب المتقين ، أو من لديهم استعداد عاطفى للخوف والخشية والتأثر حتى ولو لم يدخلوا رحاب الايمان بعـد •

دلالة الكلمة لغة واصطلاحا :

تحمل اللفظة بين طياتها معانى النصح والتذكير بالعـواقب أو بالخير ، والزجر المقترن بالتخويف ، والأمر بالطاعة ، والتوصية بها ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقال وعظة يعظه وعظا وعظة نصحه وذكره بالعواقب الى آخره ، والاسم منها عظة وموعظة ، والموعظـة تكون بالقول أو الفعل ، والغرض منها ترقيق القلب ولينه كى يتذكـر الغافلون ، ويتعلم الجاهلون ، ويتوب المذنبون ويسلم المشركون(١) •

ولقد أبقاها جمع من المفسرين على حالتها فى أصل الوضع ، فرددوا عبارات التذكير والتخويف والنصح ، وأحيانا يسـوقها الزمخشرى

---

(١) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ج٢ ٤٠ ، والمفردات ٥٢٧ ، والمعجم الوسيط ج٢ ١٠٤٣ وابن رجب الحنبلى : الذيل على طبقات الحنابلة تصحيح محمد حامد الفقى : مطبعة السنة المحمدية ج٢ ٤٠١ •

بنصها دون تأويلها اعتمادا منه على وضوحها وضوحا لايحتاج الى شرح وبيان، ولكن بعض المفسرين قد ألبسوها في الاصطلاح أثوابا منطقية ليميزوا بينها وبين الحكمة والجدل فعرفها الفخر الرازى بأنها [الامارات الظنية والدلائل الاقناعية] (٢) .

وللألوسى اتجاهان : اتجاه يردد فيه ما قاله الفخر الرازى من أنها [الاقناعات الحكمية] أو [الخطابات المشهورة المركبة من مقدمات مظنونة أو مقبولة من شخص معتقد فيه] وقد ينفرد فى هذا الاتجاه بالقول بأنها [الدليـل العقلى اليقينى الذى يلزم منه الايمـان بالله سبحانه .. وهو الة لتهذيب الأخلاق وبث التقوى] فنراه فى هـذا التعريف يتجاوز بالموعظة حدود المظنونات والمشهورات الى الحجة اليقينيـة .

وأما الاتجاه الثانى فيحاول فيه أن يمزج فى تعريف الموعظـة بين المعانى اللغوية والاصطلاحية الرامية الى كونها خطابات أقناعية يقول عنها [هى الخطابات المقنعة والعبر النافعة التى لا يخفى عليهم أنك تناصـحهم بها](٣) أو تزجرهم وتخوفهم .

والذى أراه أن ستعمال الكلمة حسب الوضـع اللغوى أدق وأشمل ، وينطبق مع ورودها فى القرآن الكريم ولهذا لم يحد عنـه غير عدد قليل من المفسرين ، لقد التزموه فى تفاسيرهم التزاما كليا على غرار ما فعل القرطبى والزمخشرى ، ولابد هنا من أن نشير الى عدم ضرورة التعريف الاصطلاحى اذا كانت الكلمة واضحة الدلالة ، أو كان مفهومها اللغوى كافيا ويمكننا الافادة به فى المجال المطلوب .

---

(٢) التفسير الكبير ج٢٠ ١٣٨ — ١٤٠ .

(٣) روح المعانى ج١٤ ٢٥٤ — ٢٥٦ وانظر الكشاف ج٢ ٣٤٩ ج٢ ، ٣٤١ وتفسير القرطبى ج٩ ١١٦ ، ٤٨ وتفسير البيضاوى ج٢ ١٩٥ .

ثم ان الذين نقلوها من المعنى اللغوى الى معان اصطلاحية أخذوا فى اعتبارهم أن الموعظة تقوم غالبا على الاستدلال القرآنى والخبرى فحكموا بأنها اقناعات وامارات ظنية أو مشهورة جريا وراء من يقول بأن الخبر يفيد الظن ولا يفيد اليقين ، وهذا المبدأ الذى قال به فريق من المعتزلة ومن سار وراءهم من رجالات الفرق الأخرى غير مسلم كما سنبينه فيما بعد ، وأيضا فان كلمة الموعظة أطلقت على القرآن الكريم وهو متواتر ، ويحمل أدلة وبراهين تسمو فوق براهين العقل التى يدبجها فيكون تعريف اللفظة بأنها امارات واقناعات مشهورة تحكم من المعرفين أنفسهم والأسلم أن تبقى اللفظة كما هى معروفة من جهة الوضع اللغوى •

تفاوت الموعظة باعتبار المصدر :

نعنى بهذا أن الموعظة قد يكون مصدرها ربانيا ، وقد تكون قولا بشريا ، وفى الحالة التى ترجع فيها الى وحى الا هى تكون اما قرآنا واما حديثا نبويا ، واذا جاءت على لسان بشر عادى فهى متفاوتة فى القوة أو الضعف ، ومتنوعة فى الموضع بحسب حال الواعظ والموعوظ ، ولا شك أن أقوى المواعظ تأثيرا وأكثرها تنوعا ، واعمقها دقة وأعذبها رقة ما كانت قرآنا ، ثم ما جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك تقوى وتضعف ، وتعم أو تخص بحسب حال كل من القائل والمخاطب معا ، فهناك البشر الحكماء من العباد والزهاد ، وهناك الذين تخصصوا فى هذا الفن بعينه وأتقنوه موضوعا وأسلوبا ، وهؤلاء قد يوجهون نصائحهم الى عامة المؤمنين أو الناس كافة ، وقد يعظون أمثالهم فى درجة الصلاح والتقوى ، أو يتناولون أبناءهم بالتوجيه ، والتربية ، أو يقدمونها الى الملوك والخلفاء ، وقد يكون الحكماء على درجة عليا من العقل والموهبة وان لم يكونوا مؤمنين فهؤلاء ينتفع بمقالاتهم باعتبارها قولا حكيما نافعا ، أو من جهة كونها نتيجة تجارب كبيرة ، وطلب هذه العبارات من باب « الحكمة ضالة المؤمن » •

ومن تلك المصادر والاعتبارات تتفاوت المواعظ قوة وضـعفا ، وعموما وخصوصا ، ودينا ودنيا ، يقول ابن عبد ربه [فأبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز الذى لا يأتيه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد] ويتابع الترتيب قائلا [ثم مواعظ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ثم مواعظ الآباء للأبناء ، ثم مواعظ الحكماء والأدباء ، ثم مقامات العباد بين أيدى الخـلفاء](٤) وغـيرهم ، ومن الضرورى أن ندخل تعديلا على ترتيب ابن عبد ربه فنجعل حكمـاء المؤمنين من الذين أجادوا فن الوعظ أو كانوا عبادا زهادا أصـحاب تجربة نفسية سلوكية دقيقة عقبدرجة النبوة ، ثم يليهم الحكماء والأدباء بصفة عامة ، ولا ينبغى أن نقدم هؤلاء على العباد الحكماء كما فعـل صاحب العقد الفريد لأن من حاز الايمان والعمل والتجربة السلوكية واتصف بموهبة التوجيه والنصح وحسن العبارة ودقتها كان أحـرى ان يقدم على عامة الحكمـاء والأدباء ، وكان جديرا بأن يلى مرتبـة النبـــوة مباشرة .

ولـما كانت المواعظ المستندة الى وحى أبلغ هذا النوع من القول فان الوعاظ المتخصصين بالذات قد صدروا مواعظهم غالبا بأدلة نقلية من الكتاب والسنة ثم خاضوا فيما يريدون الخوض فيه ، وأحيـانا يضمنون مواعظهم معانى القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، أو يقتبسون منهما اقتباسا ، وربما رفض بعضـهم أن يتجاوز المواعظ النصية ، كما فعل ابن السماك عندما قال له هارون الرشيد : عظنى فقال [**كفى بالقرآن واعظا ، يقول الله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد**](٥)،

---

(٤) الفقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى : العقد الفريد دار
(٥) نفس المرجع ج٣ ٩٣ ، الآيات من سورة الفجر ٦ — ١٤!

ويعتبر هذا السبب هو المسئول عن هذا الحشد الضخم من النصوص داخل الكتب التى غلب عليها أساوب الوعظ ، بالاضافة الى القصص والأمثال والعبر التى تخدم هذا الفن •

الموعظة : حسنها وأسلوبها :

تختلف الموعظة عن المحاورة والمناظرة والجدل من جهة أن كلا من هذه الثلاثة مقاولة بين طرفين أو أكثر ، وان خفت حدة المخاصمة بين المحاورة والمناظرة فانها تزيد فى المجادلة ، وأما الموعظة فانها تكون القاء من واعظ لموعوظ أو أكثر ، وذلك على جهة الغلبة لأنها فى بعض الأحيان تأتى على سبيل المحاورة ، وتختلف عن المجادلة من وجه آخر وهو أن الخصم قد يرد قول المدعى لكونه يخالف رأيه الذى انعقدت النية عليه ، أو يخالف عقيدته التى دان بها زمنا طويلا ، أو يصطدم مع شبهته التى عششت فى أفكاره حينا طال أو قصر ، أما الموعظة فان ثقلها على النفس وردها من المستمع يعود الى كونها على خلاف ما يشتهى ويهوى ، ومهما رقت فى أسلوبها ، ولطفت فى معانيها واتصف قائلها بالحلم وحسن التقديم فانها تظل ثقيلة على نفس السامعين الا بشروط لابد من توافرها فى الموعظة والواعظ والموعوظ •

وفى هذه السطور ينبغى أن نعى طبيعة تلك الطريقة الالقائية ، وكونها تواجه النفس البشرية لا فى مداركها ووعيها ولكن فى شهواتها وأهوائها ، وهى ترصد ما بداخلنا رصدا دقيقا ويحاول الوعاظ أن يقوموا النفس الانسانية ويرجعوها عن غيها وطمعها وظلمها وغرورها وجنوحها عن الحق ، وميلها الى الدنيا ، وان يبعدوها عن فتنها وزائف قولها وسلوكها ، وأن يدلوها الى الحق والعدل والأثرة والزهد والرجاء والخوف من الله ، والمحبة فى سبيله وأن يذكروها بالموت والعاقبة والمصير والجنة أو النار ، فالموعظة اذا تخاطب تقلبات النفس وتغيراتها ، وتنصحها بالاستقامة والسير على الجادة كى تجتاز الصراط بأمان ورعاية •

ونظرا لأن نفوسنا تتأتى على من يحـول دون تحقيق رغباتها وشهواتها فانها تواجه الموعظة فى كثير من الأحيان بالعصيان والانكار وعدم القبول يقول ابن عبد ربه مشيرا الى تلك الحقيقة [والموعظـة ثقيلة على السمع محرجة على النفس بعيدة من القبول ؛ لاعتراضها الشهوة ، ومضادتها الهوى الذى هو ربيع القلب ، ومـراد الروح ، ومربع اللهو ، ومسرح الأمانى] وانما ضاقت بها النفس وتبرمت منها لأنها [مانعة مما نشتهى ، حاملة لك على ما تكره](٦) •

ولمـا كانت النفس مع الموعظة على هذا الحال فان القـرآن الكريم قد اشترط فى العبارة التى نعظ بها أن تكون حسنة فى مداخلها على النفس ، وفى معانيها التى تعرض عليها ، وفى اسلوبها الذى تلقى من خلاله ، ان شرط الحسن ضرورة لامكان قبول الموعظة والاستماع لها والاستجابة لمراميها ، ومن أمثلة ذلك ما قاله أبو بكر رضى الله عنـه فى موعظته [أين الملوك الذين بنو المدائن ، قد تضعضع بهم الدهـر فأصبحوا فى ظلمات القبور : الوحا ، الوحا ، النجاء النجاء انكـم تغدون وترحون فى أجل قد غيب عنكم فسابقوا فى مهل أجلكم ، ان أمامكم طالبا حثيثا ممره سريع](٧) •

ووصف ضرار بن سعد على بن أبى طالب فقال [أشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته ، يلملم الملة السليم ويبكى بكـاء الحزين وكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا الى تعرضت أم لى تشوفت هيهات ! هيهات غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ، عمرك قصـير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير آه آه من قلة الزاد وطـول

---

(٦) العقد الفريد ج٣ ٨٢، — ٨٣
الكتب العلمية ببيروت ط١ ج١ ٨١ — ٨٢ تحقيق الدكتور عبد المجيد الترحينى.
(٧) ابن الجوزى صفة الصفوة ج١ ٢٦١ ، والأصبهانى الحلية ج١ ٣٤ — ٣٥ ، وابن الجوزى : الشفاء ٧٤

الطريق][٨] ويقول محمد بن صبيح السماك (١٨٣ هـ) [عجبت لمن يشترى المماليك بماله كيف لا يشترى الأحرار باحسانه][٩] قالهـا ينصح الأمراء والخلفاء •

واذا خرجت الموعظة عن حسنها فى المعنى والأسلوب والغرض كانت مدعاة الى رفضها بصورة أكثر ، ولقد ساق ابن عبد ربه بعض المواعظ التى كرهها سامعوها [لبعض ما فيها من الغلظ والخـرق] ومنها ما كان بين أعرابى وسليمان بن عبد الملك ، وبين المأمون وبعض الوعاظ ، ولقد جاء يوما رجل للرشيد فقال يا أمير المؤمنين انى أريد أن اعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها قال : كلا ان الله أمر من هـو خـير منـك بالانة القـول لمن هو شر منى ، قـال لنبيـه موسى اذ أرسله الى فرعون [فقولا له قـولا لينـا لعله يتذكـر أو أو يخشى][١٠] •

ما ينبغى أن يكون عليه الواعظ

وهنا أيضا نلفت النظر الى تفرقة أخرى بين المجادل والواعظ ، وذلك من جهة كون المتناظرين والمتجادلين يعتمدون على الاسـتدلال وصيغه فحسب ، فيكفى أن يكون عالمـا به ، وملما المـاما جيدا بأحكام المسائل التى يجادل فيها ، وأن يكون ذا مقـدرة فائقـة فى الاقناع والكر والفر مع بديهة وذاكرة حاضرة ، ولكن الواعظ لا يخاطب عقولا نعرف نحن طبيعة تفكيرها والسلم المنطقى الذى نصعد عليه لنصـل الى منطقة التأثير فيها ، وانما يخاطب نفسا لها كثـير من الشـهوات والأغراض والميول والعواطف ، ولها دروب ومسالك بعيدة الأغـوار ،

---

(٨) احمد بن حنبل الزهد ١٣١ • وابن الجوزى صفة الصفوة ج١ ٣١٥ ، وله ايضا : المصباح ج١ ، والشفاء ٧٧

(٩) الجاحظ : البيان والتبيين ج١ ٢٠٥ ، الا بشيهى المسـتطرف ج١ ١٤٤ ، وابن الجوزى الشفاء ٦١

(١٠) العقد الفريد ج٣ ١١٠ — ١١٣ والآية من سور طه ٤٤

عميقة الشقوق متعددة الجوانب ، ويعتبر العقـل واحـدا من تلـك الجـوانب أيضـا .

ولهذا يلزم أن يتميز الواعظ بمميزات كثيرة تؤهله لأن يكـون مؤثرا فى الغير ، قادرا على أن يملك زمام الأنفس ، ويسيطر عليهـا سيطرة يستميلها فيها الى ما يريد ، ويجذبها الى فكرته ونصـيحته جذبا تتلاشى معه كل رغبة عكسية ، أو شهوة دنيئة ، ويستطيع بمقدراته المتنوعة أن يوقظ النفس من غفلاتها ، وينتشلها من زلاتها ووهادها ، ويحييها من رقدتها ، ويبعث فيها حماس الايمان ، وقوة الاخلاص ، وشعلة العمل ، وندم التوبة ، ولذع الضمير ، وأن يرويه بالحب ، وأن يجعلها تستبدل ما هو خير وأعلى بما هو شر وأدنى .

وأبرز تلك المميزات التى يجب أن تتمتع بها شخصية الواعظ هى أولا الذهن الوقاد ، والجواب الحاضر والذاكرة الواعية ، والبديهة الحادة ، والعقلية النفاذة ، والبصر الخارق ، وبهـذا كله يسـتطيع البحث عن المداخل الجيدة للنفس ، ويكون لذكائه وتجاربه وخبراته القدرة على اكتشاف الآخرين اكتشافا يجعله يعطى لكل واحد حسب نفسه وظرفه واستطاعته ، ثم ان الموعظة تعتمد على ما تحمل من معنى دقيق وحكيم وذلك لا يتأتى الا بالقدرات العقلية والذكائية الثاقبة ، ونحن نسمع كثيرا من مقولات أبى بكر وقوتها ، وعبارات على ودقتها وحكمتها ، ونقرأ كثيرا مما وصل الينا من مواعظ الصحابة فى مجالات كثيرة ، وكلها تدل على عبقرية فذة ، ومقدرة هائلة . كما كان ابن المسيب والحسن البصرى ، والفقهاء الكبار وغيرهم مضرب الأمثال فى ذلك .

ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عن ابن الجوزى قال | ومن أبهـر آياته ، وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدىء القـراء بالقرآن ، وعددهم نيف على العشرين قارئا فينتزع الاثنان منهم والثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتطريب وتشويق فاذا فرغوا تلت طائفة

أخرى على عددهم آية أخرى ثانية ، ولا يزالون يتداولون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة .

وقد أتوا بآيات مشتبهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عددا ، أو يسميها نسقا فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن فى ايراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقرا ، وأتى بها على نسق القراء لها ، لا مقدما ولا مؤخرا ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ، فلو أن أبدع ما فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » « ان هذا لهو الفضل المبين »][11] .

والنبوغ الذكائى لا يسعف الواعظ بالمطلوب ما لم تتكاثر المعارف فى خزائنها لديه ومن ثم اشترطوا أن يتبحر فى العلوم المختلفة ، وأن يتفنن فيها مجتمعة حتى يستطيع خطاب النفس بملائح متنوعة ، ولا شك أننا نعشق الأفكار المتعددة كما نستمتع بالمناظر الطبيعية ذات الألوان الخلابة المتداخلة والمتميزة ، وما من واعظ نابغة فى هذا الفن الا حدثوا عنه وعن سعته العلمية ، فقالوا عن ابن الزاغونى (٥٢٧ هـ) أستاذ ابن الجوزى[كان له فى كل فن من العلم حظ وافر] لاسيما الحديث والفقه ، كما اجاد بجانب الوعظ علم المناظرة ، فكان له بجامع المنصور حلقة يناظر فيها قبل صلاة الجمعة ، ثم يعظ فيها بعد الصلاة[12] .

ولا نسمع عن واحد من الوعاظ القدامى والمحدثين الا وضرب

---

(١١) رحلة ابن جبير ١٩٧ — ١٩٨ دار صادر بيروت ، مقدمة الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء ١٥ — ١٦

(١٢) ابن رجب : الذيل ج٢ ٤٠٢ ، وابن الجوزى المنتظم ج١ ٣٢ مقدمة الشفاء ١٢

بسهم وافر فى مجالات العلوم ، ونفذ الى أغوارها حتى صار كالغدير العذب يسقى كل طالب ، ويروى كل ظامىء ، ويعتبر علم التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والسيرة ، من أبرز الفنون التى يجب أن تكون زادا للواعظ بالاضافة الى ما يجد من ضرورات علمية تناسب عصر الواعظ الذى يعيش فيه ، ولو تعقبنا الذين نبغوا فى هذا الفن مثل أبى عثمان الواعظ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، أو الماوردى (٤٥٠ هـ) أو الغزالى (٥٠٥) أو الطرطوشى المالكى (٥٢٠) وغيرهم لوجدنا لديهم علما غزيرا وسعة فى المعارف لا تبارى .

والذكاء والعبقرية ، والسعة العلمية لا تجدى فتيلا لو لم يقدم الواعظ ما يريده فى قالب لفظى رشيق وأسلوب يقطر عذوبة ويفيض رقة ، وينساب كالجدول الرقراق ، ان المعانى هى مبانى الكلمات ، والألفاظ هى طلاؤها ، والأسلوب نسقها ، واذا لم نحكم الطلاء والنسق خلى المبنى من الرونق والجمال ، والنفوس هى الأخرى كما تحب الرفق فى المعنى تعشق الرقة فى اللفظ ، وربما تقع أحيانا أسيرة العبارة وقيد الكلمة ، وقد يكسر حدتها لفظ منمق ، أو يحطم كبرياءها أسلوب جذاب ، وان كثيرا من اللذين وقع عليهم عقاب من حكامهم وفقوا الى بعض الكلمات التى تسرى بين شعاب النفس فترطبها وتبرد غيظها فحصلوا بسبب ذلك على العفو ، وكانت اللفظة هى الشفيع الوحيد الذى أبرد لهيب الغيظ ، وأطفأ نار الغضب عليهم ، وكانت هى البديل عما بدا منهم بالنسبة لغيرهم ، فلا بد أن يضع الوعاظ فى اعتبارهم سحر الكلمة وجمالها وهى تملك زمام النفس وتنساب بين الأشجان كالطيف الأثيرى الحالم .

ولسنا نجد واعظا فتحت له الأذان الا وقد ملك أعنة البيان ، ولا متحدثا تمكن من شغاف القلوب الا وقد امتاز أسلوبه بالرقة

والعذوبة ، فها هو مثلا ابن الجوزى بصفته واعظ يصفه ابن رجب الحنبلى بقوله [ان ارتجل أجاد ، وان روى أبدع] (١٣) ويقول الذهبى عنه [واليه المنتهى فى النثر والنظم والوعظ] (١٤) ، وقال عماد الدين الأصبهانى فيه [واعظ صنيع العبارة ، بديع الاشارة ، مولع بالتجنيس فى لفظه ، والتأنيس فى وعظه](١٥) ، كان فى وعظه رائق العبارة ، فائق الاشارة ، وله المعانى الدقيقـة ، والاستعارة الرشـيقة ، رخيم النغمات ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة حسبما يقولون عنه .

والعبقرية والعلم والأسلوب لا يستقر فى درة الأذن ، ولا يخترقها ليصل الى أصداف القلوب ما لم تمتلىء نفس الواعظ والقائل باللطافة والكياسة وحسن الشمائل ، وعمق الفضيلة ، ان الذكاء والعبقـرية اذا حلتا فى انسان هذباه بالحكمة ، وسوياه بالتمييز بين الطيب والخبيث ، وان العلم وسعة المعرفة مع العمل تطهير للنفس وتزكية لها ، وان رقة الأسلوب من رقة صفة القائل ، وحسن العبارة من حسـن الخلق ، فالشخصية الفاضلة التى كتب لها البروز على غيرها ، والتأثير على ما سواها هى شخصية متكاملة فى كل جوانبها ، اننا جميعا نعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أفطن الخلق ، وأسماهم خلقا ، وأفصحهم بيانا ، وأقواهم تأثيرا ، والذين يريدون أن يسلكوا طريقه فى هـداية البشر فعليهم التحقق بصفاته ، والتخلق بأخلاقه ، والأدب فى عبارته وقوة الحجة فى منطقه ، وكذلك كان وعاظ الأمة السابقين .

ولا ننسى بعد ذلك كله أن الواعظ الذى لا ينتصر على نفسـه لا يستطيع الانتصار على نفوس الآخرين ، وان الذين يهزمون أمام شهواتهم لايلومون الا أنفسهم اذا ما انهزموا أمام الآخرين ومطامعهم ،

---

(١٣) ابن رجب الذيل ج٢ ٤١٢

(١٤) تذكرة الحفاظ ج٤ ١٣٤

(١٥) عماد الدين الأصبهانى فريدة القصر وجريدة أهل العصر ج٢ ٢٦١

ان عمر بن الخطاب قد أرسل الى أحـد قواده وقد طلب مـددا من الخليفة أن ينبه الجنود الى التخلص من الذنوب ، والتجرد من السيئات وأن يواجهوا الأعداء بقوة الطاعة والصدق مع الله فهذا هو أقوى زاد وأكبر عدة ،ونعم المدد ذاك ، وان الجهـاد فى سـاحة النفوس التى امتلأت شهوة أو معصية أو غفلة كالجهاد فى ساحة الحرب لا سـبيل الى الانتصار فيه الابالتقوى والنقاء ، والصدق والصفاء ،والاخلاص والوفاء قالوا [ما أحسن التاج وهو على رأس الملوك أحسن ، وما أحسن الدر وهو على نحر الفتاة أحسن ، وما أحسن الموعظة وهى من الفاضل التقى أحسن](١٧) وقالوا [الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من السان لم تجاوز الآذان](١٧) وخير [الموعظة ما كانت من قائل مخلص الى سامع منصـف](١٨) وفوق هذا كله أن يضع الله القبول للواعظ فىقلوب الخلق فان العبد مهما أجاد عبقرية وعلما وأسلوبا وخلقا وعلم الله فيه شيئا فصرف القلوب عنه لا سبيل له الى الوصول اليها ، لقد عبر ابن الجوزى عن هذا المعنى فقال [ان أكثر الأنعام على لم يكن بكسبى ، وانما هو تدبير اللطيف بى] وقـال [وضع الله لى القبول فى قـلوب الخلق فوق الحد وأوقـع كلامى من نفوسهم فلا يرتابون بصحته](١٩) ، فينبغى للواعظ أن يتصف بكل ما قلناه ، وأن يسأل الله التوفيق ، ويدعوه كى يهدى به آذانا صـما واعينا عميا وقلوبا غلفا .

الموعوظ وشروط اتعـاظه :

الرجل الذى تلقى اليه الموعظة هو المعنى بالموعوظ وهو الركن

---

(١٦) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٣ ٨٣
(١٧) نفسـه .
(١٨) نفس المصـدر ج٣ ٨٣
(١٩) ابن الجوزى صيد الخاطر ١٩١ ، ولفتة الكبد ٢٥١

الثالث من أركان تلك العملية بعد الموعظة والواعظ (٢) ، وليس كل من استمع الى الموعظة تأثر كما أنه ليس كل من استمع الى الدليـــل اقتنع ، وقد أشرنا الى ثقل الموعظة على النفس وأسباب ذلك ، والآن ما هى الاعتبارات التى يجب وضعها نصب العين حتى يستفيد المستمع من الموعظـــة ؟

اننا يمكن أن نلخص هذه الاعتبارات أو الشروط فى أمور محددة هى : الاصغاء الجيد بالسمع ، وفتح الأذن بغية التلقى والاعتبار ، وتطهير القلب من أدرانه وغفلاته ، وتعريض صفحته لعذب المواعظ وبيناتها ، والانتفاع بما لدى القائل من علم ومعرفة تساعدان على التذكر والقبول ، ومجاهدة النفس بالرياضة والتهذيب ، وفطمها عن المعاصى ، وابعادها عن الذنوب ، وايقاظها بالذكر من الغفلات ، وبالطاعة من الخمول ، وأيضا فلا بد أن يتصف المستمع بالانصاف والحيدة ، ومن هنا تكون الضرورات التى يجب توافرها هى : جودة الســـــمع ، حضور القلب ، الانتفاع بالعلم ، مجاهدة النفس ، وأخير النصـــفة والحيـــــاد .

ولا بأس أن نستمع الى بعض الأقوال الدالة على أهمية تلـــك الاعتبارات ، يقول ابن عبد ربه بعد أن بين ثقل الموعظة على النفس وأنها تظل ثقيلة الا [على من وعظة علمه ، وأرشده قلبه ، وأحكمتـــه تجربته] وان كل مستمع يظل فى عناد معها ، وبعد عنها الا من [تلقاها بسمع قد فتقته العبرة ، وقلب قد حت فيه الفكرة ونفس لها من علمها زاجر ، ومن عقلها رادع] ، فطالمـــا كان السمع مصـــــغيا ، والقلب حاضراً ، والعلم زاجرا ، والعقل رادعا فثمة هى المنفعة ، واذا أغرم

(٢) اذا أركانها ثلاثة : موعظة وواعظ وموعوظ ، ولسنا نجد احد تناولها على هذا النحو ، ولكننا قمنا بانتحال ذلك انتحالا من خلال الأقوال الخاصـــــة بالموعظـــــة .

القلب بحب الدنيا كان ذلك حجابا ، ولم تنجح فيه الموعظة ، وكان الحسن البصري يقول بعد ختم موعظته [بالها من موعظة لو صادفت من القلب حياة] وكان يقول أيضا فى ضرورة المجاهدة [اقدعوا هذه النفوس فانها طلعة ، وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور واعصوها فانها ان أطيعت نزعت الى شر غاية] ولقد مر علينا أن خير المواعظ ما كانت من قلب مخلص الى سامع منصف ، فاشترط الانصاف لدى السامع (٢١) كذلك •

الوعظ صار فنا من الفنـــون :

بعد أن تناولنا الوعظ لغة واصطلاحا والقينا أضواء كاشفة على أركان تلك العملية من موعظة وواعظ وموعوظ نقول ان تلك الحالة كانت فى البداية أقوالا رقيقة تنزع الى علاج موقف معين ، أو خصلة محددة أو نزوة سريعة ، أو تذكرة خاطفة ، وكان النبى صلى الله عليـــه وسلم يتخول المســـلمين بها بين الحين والحين وأحيانا تكون بالقول منه ، أو بالفعل كما كان يخرج بهم الى القبور ليريهم بالفعل نهاية كل كائن ، وأحيانا كان يوقفهم على المزابل ثم يعلن بالقول فى نفس الموقف أن هذه هى الدنيا التى تحرصون عليها ، وكذلك سلك صحابته نفس الطريق•

ثم حدث بعد عصر الراشدين ما حدث من اقبال الناس عـــلى الدنيا ، وافتتانهم بها ، وفتور النفس وضعف همتها ، فاقتضى ذلك كله معالجات وعظية ، واكثار من التخويف والتحـــذير ، وتنويع فى المعانى والأساليب وسلك الوعاظ طريقين :

١ — طريق التخويف والترهيب من سوء المصير والعاقبة ، وكان الحسن البصرى أقوى ممثل لهذا الاتجاه •

---

(٢١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ٨٢ — ٨٣ ، ٩٢ — ٩٣

وطريق الرجاء والحب الالهى واعتبرت رابعة العدوية رائدة فى هذا الميدان ، وتبعا لما صار عليه حال الأمة من الافتتان والفتور وما واجههم به الوعاظ من نصائح التخويف والرجاء والحب أن كثر الوعاظ وكثرت الأقوال(٢٢) ويمكنك أن تتحقق من ذلك اذا رجعت الى كتب الطبقات والتراجم خاصة : طبقات ابن سعد ، والحلية لأبى نعيم، وتاريخ بغداد ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ، سوف تجد بين بطون هذه واشباهها أقوالا حكيمة ، ومواعظ بليغة تدلك على ما جد فى الأمة من ناحية وعلى ما هب الوعاظ به من طرق وأساليب المقاومة النفسية والفكرية •

وصارت تلك الطرق ظاهرة علمية لها رجالها وطريقها ومنهجها فقام بعض المولفين يدونون ما قاله الوعاظ من نصائح فى مناسبات عدة : فردية ، أو جماعية ، لعامة الشعب ، أو خاصتهم ، أو حكامهم وملوكهم وخلفائهم فاجتمع من ذلك علم غزير له مؤلفاته ومؤلفوه ، وله منهجه الخاص الذى يتميز به ، وعلى سبيل المثال فقد ألف الماوردى (٤٥٠) أدب الدنيا والدين ، وكتابه «نصيحة الملوك» وألف محمد بن منوح بن عبد الله الأزدى الحميدى المتوفى (٤٨٨ هـ) وهو تلميذ ابن حزم الأندلسى (٤٥٦ هـ) كتاب « الذهب المسبوك فى مواعظ الملوك » ، وكتب أبو حامد الغزالى (٥٠٥ هـ) كتابه «التبر المسبوك فى نصيحة الملوك» كما ألف الامام الطرطوشى المالكى (٥٢٠ هـ) كتاب «سراج الملوك» وألف ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) كتبه « التبصرة » « المنتخب »، « المدهش » و « الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء » وحوت المؤلفات الطوال مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والفهرست لابن النديم ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والمؤلفات الأدبية الجامعة

---

(٢٢) ونجد أولا أصحاب الصحاح والمسانيد والآثار من الأحاديث المروية يفردون لأحاديث الرقاق كتبا أو أبوابا مستقلة ، ووضع المنذرى عنوان كتابه فى الحديث « الترغيب والترهيب » كما ألف أبو حنيفة فى الزهد ، والامام أحمد كذلك ، والف غيرها فى الرقاق ، وكلها تدور حول موضوعنا الآن •

لابن قتيبة كثيرا مما نحن بصدده ، وفى عصر متأخر صــــدرت كتب لليافعى وغيره تهتم بهذا الفن وجاءت بعض المؤلفات أقل مستوى من المطلوب من حيث جودة الأسلوب ، وضعف الأسانيد مثل كتاب « تنبيه الغافلين » وهو مشهور ، واتجت كل هذه المؤلفات الى ترقيق العامة ونصح الحــــكام .

ومن البدهى أن يكون لكل علم منهجــه ، ولهــذا الفن الوعظى منهجه كذلك ، ويتلخص هذا المنهج فى الاســـتناد على النصوص من الكتاب والسنة ، ودفعت الرغبة فى كثرة الاستشهاد مؤلفو هذا العلم الى الاكثار وعدم الدقة فى تمييز الأحاديث : قويها من ضعيفها ، وصحيحها من موضوعها حتى كان مأخذا شديدا وجه اليهم ، وأفقد بعض هــذه المؤلفات المتأخرة القيمة الحقيقية لها ، وأضعف الثقة بها .

وبجانب الاعتماد على النصوص فانهم قد أبرزوا آثار السلف وأقوالهم واعتبروها هادية على الطريق ، كما اعتبروا تلك الأقــوال سارية المفعول والتأثير ، وأن تجارب قائليها كفيلة بالتحقيق فى كل عصر وزمن لأنها تتحدث عن النفس وطبيعتها وكيفية نصحها وعلاجها ، والنفس البشرية واحدة من تلك الوجهة وان تغيرت السنون والأحداث ، وساقوا كذلك فيضا من الحكم الصادرة من خبرات المؤمنين وغير المؤمنين ، كما لم يجدوا بأسا من سوق القصص الحقيقى والمخترع على لسان الانسان والحيوان ، ولزم منهجهم طريق الترفق مع الحكام والرعية رغبة فى جذبهم وهدايتهم(٢٣) .

اتجاهات الموعظــة وخصــائصها :

سبق أن قلنا فى بداية هذا الفصل ان الموعظة تتفاوت باعتبار مصدرها ، وأشرنا الى أن مصدرها اما ربانى من الكتاب والسنة ، أو بشرى من

---

(٢٣) انظر الدكتور فؤاد عبد المنعم احمد مقدمة الشفاء ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

حكماء المؤمنين أو الحكماء المجربين ، والآن نتناول اتجاهات المواعظ وأغراضها ، والمعانى التى تشتمل عليها وخصائصها الفنية ، وسوف نفصل كل مصدر عن الآخر ، فنشير الى الموعظة فى القرآن ، ثم السنة، ثم ما جاء على ألســنة البشر •

(أ) الموعظــة فى القــرآن :

تتجه كلمة الموعظة الى تناول مسائل الدنيا ، والتقليل من شأنها ، وتهوين أمرها وحقيقتها حتى لا تغتر النفس بها ، وهى تدعو البشر الى الزهد فيها ، وعدم الافتتان بمظاهرها ، وأيضا تركز الموعظة على النفس وجوانبها وشهواتها ونزواتها وتضغط على علاج ذلك بكافة المعــانى والأساليب ، وتعتبر المسائل الأخلاقية والفضائل النفسية من أهم مسالك الوعاظ واتجاهاتهم ونصــائحهم كما أنهــم ينذرون الناس ويذكرونهم بيوم القيامة وأهواله وماسوف يجدونه فيه من مصاعب وعقبات كؤود لا يجتازها الا الصالحون والعبــاد والزاهدون وأرباب العدل والرحمة ويبشرونه بالجنان وما فيها ، وما أعده الله للطائعين وأهــل الخير والصلاح •

ولقد وردت الكلمة فى القرآن الكريم فى أربع وعشرين آية ، ومن خلال سياقها يتضح لنا أن الله سبحانه يعتبر الوحى كله فى التوراة والانجيل والقرآن موعظة قال سبحانه [وكتبنا له فى الألواح من كل **شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء**] (٢٤) ، وقال عن الانجيل [**وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لمــا بين يديه من التوراة وهــدى وموعظة للمتقين**](٢٥) وقال جل شأنه عن القرآن [**واذكروا نعمــة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به**](٢٦) [**يأيها الناس قــد جاءتكم موعظة من ربكم وشــفاء لمــا فى الصدور**] (٢٧)

---

(٢٤) الأعــــراف ١٤٥
(٢٥) المــائدة ٤٦
(٢٦) البقــــرة ٢٣١
(٢٧) يونس ٥٧ ، هود ١٢٠ ، النور ٣٤

وجاءت اللفظة فى سياق تفصيل الأحكام الشرعية ذاتها ، فعقب أحكام الطلاق من سورة البقرة قال سبحانه [**ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**][٢٨] وعقب أمر الله سبحانه الحكام بأن يؤدوا الأمانات ويحكموا بالعدل قال [**أن الله نعما يعظكم به**][٢٩] واستعملت الكلمة فى سياق المطالبة بتنفيذ الأوامر الالهية فقال سبحانه [**ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا**][٣٠] .

وانما جاز اطلاقها على القرآن كله لأ تعنى النصح والتذكير والتخويف والترجى ، فما كان فى القرآن من أحكام شرعية مثل العبادات والمعاملات ، ومن فضائل سلوكية صح اطلاق الموعظة عليه باعتبار معنى التذكير والنصح والتوجيه ، وما كان من قبيل الحديث عن النفس وشهواتها ، والجنة والنار ، والدنيا وما فيها جاءت الموعظة معه تعنى التخويف والترجية .

وهناك آيات أخرى فى مناسبات خاصة تأتى كلمة الموعظة ويراد بها التخويف أو النصح أوهما معا مثل [**واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع**] النساء ٣٤ ، وقوله فى حادثة الافك [**يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين**][٣١] ، وكذلك فقد ربطت الموعظة بانتقام الله من المخالفين لأمره ، أو الخارجين على أحكامه وطريق أنبيائه[٣٢] .

---

(٢٧) ٢٨

(٢٩) النساء ٥٨ ، وكذلك جاءت عقب الأمر بالعدل والاحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر فى النحل الآية ٩٠ ، وعقب احكام الرقيق فى المجادلة الآية ٩ .

(٣٠) النساء ٦٦

(٣١) النور ١٧ ، سبأ ٤٦ لقمان ١٣ هود ٤٦ ، النحل ١٢٥ ، وانظر تفسير الكشاف ج١ ١٤٠ ، ٢٤٣ ، ج٢ ١٩٤ ، ٢٣٩ ، ٣٤٩ وتفسير البيضاوى ج١ ٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ج٢ ٩٨

(٣٢) آل عمران ١٣٨ ، الاعراف ١٦٤ ، الكشاف ج١ ٧٣ ، ٢١٨ ج٢ ١٠٠

ولا يخفى علينا ما فى أسلوب القرآن من اعجاز بحيث يكون من فضول الكلام أن نتحدث عن خصائص هذا الأسلوب أثناء تناول اتجاهات الموعظة هنا .

(ب) الموعظة فى السنة :

جرى رجال الصحاح والسنن والمسانيد والآثار على استخدام كلمة الرقاق ، أو الرقائق ، وجعلها عنوانا على الأحاديث التى تدخل فى باب المواعظ ، وتتناول أغراضها السابقة ، ولم يستخدموا لفظة الموعظة على اللون المعهود لدينا فى هذا الصدد ، ولو رجعنا الى ما قاله ابن حجر فى كتابه فتح البارى عن معنى الرقاق والرقائق لوجدنا أن اللفظتين يتفقان مع الموعظة فى المعنى ، يقول [قال أهل اللغة : الرقة الرحمة وضد الغلظة وقال الراغب : متى كانت الرقة فى جسم فضدها الصفاقة كثوب رقيق وثوب صفيق ، ومتى كانت فى نفس فضدها القسوة كرقيق القلب وقاسى القلب ، وقال الجوهرى ، وترقيق الكلام تحسينه] ويقول ابن حجر أيضا [وسميت هذه الأحاديث بذلك لأن فى كل منها ما يحدث فى القلب رقة](٣٣) .

ولم تطلق الرقاق على الأحاديث المتعلقة بأبواب العبادات أو المعاملات ، وانما وضعت عنوانا للكتب التى ترد الأحاديث بين ثناياها تعالج شهوات النفس ، وتضبطها وتحذر من فتنها وتكشف عن كثير من خصالها وتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخره ، أو تتحدث عن الجنة والنار ، وبعض الوصايا الخاصة بالفضائل النفسية وعلاقاتها بالغير ، والمتأمل بدقة يجد أن أساليب الأحاديث التى تتناول المواعظ تختلف عن تلك التى تعلمنا أحكام العبادات والمعاملات وغيرهما ، سواء من ناحية الرقة اللفظية ، أو التمثيل المؤثر فى النفس كى ترق وتنزجر ،

---

(٣٣) فتح البارى ج١١ ، ٢٢٩

وغالبا ما ركزت الرقيقة أو الموعظة على معنى واحد ، ولم يأت فى الحديث أكثر من معنى الا نادرا أو عندما يكون القصد التنبيه أساسا على عدة فضائل يجب أن تتصف بها النفس .

وللتأكد من تلك الملاحظات الخاطفة راجع البخارى كتاب الرقاق، ومسلم كتاب الرقاق ، أو كتاب الزهد والرقاق والترغيب والترهيب كتاب التوبة والزهـــد .

(ج) الموعظة على لســان المؤمنين والحكماء :

التجربة الدينية شأنها شأن أى تجربة أخرى تفيد صاحبها ، وتفيد غيره ، والتجربة الدينية تجربة نفسية فى الدرجة الأولى ، ومنها تكون القواعد الأصولية ، والأحكام الشرعية ، والفضائل الأخلاقيـة بمثابة الأصول النظرية والعلمية لضبط التجربة النفسية فى عقيـدتها ويقينها ، وعبادتها وخضوعها ، وأخلاقها وسلوكها ، وبمقدار الالتزام بتلك الأصول وتطبيقها بدقـــة ، واعتناقها بعقل ووعى ، وتنفيذها بجد وشـــعور ، والسير على هداها بقلب ووجدان ، وذهن وعاطفة تكون صحة التجربة ونموها وارتفاع الفائدة منها ، أو بمقدار العلم الصحيح بتلك الأصول والأحكام والفضائل وتحويل العلم الى عمل متقـــن ومخلص ، واحساس النفس وتذوقها لكل ما تعلم وتعمل تكون الثمرة اليقينية أعمق ، والعبادية أخضع ، والأخلاقية أقوم ، ويمتلىء العقل والقلب والنفس وجدانا وذوقا .

والانسان اذ يقوم بكل هذا لا تمر عليه تطبيقاته العملية لمـا علمه سلفا دون أن تسجل النفس كثيرا من الملاحظات أثناء سـيرها وتطبيقها ، وقد تختزن فى سجلاتها العرفانية تلك الملاحظات الى أن يحين أوان اخراجها ، والى أن تحل مناسبات معينة تقتضى اظهارها ، وأحيانا يلجأ الانسان الى تدوين ما يلاحظه أولا بأول ، ولا شــك أن الملاحظات المستفادة من الخبرة والتجربة الدينية نابعة أساسا من

الأصول والأحكام والفضائل المشار اليها فليست بدعا ولا ابتداعا ، وليست انتاجا عقليا بعيدا عن الضوابط الدينية ، ولكنها بكل وضـوح معرفة وحصيلة جدت فى وعى الانسان من خلال قيام النفس بالخضوع المباشر والمتقن لأوامر شرعية قصد بها تربية الانسان وعلاجه عقيـدة وتشريعا وسلوكا ، ان تلك المعارف مذاقات نفس وخبراتها ناشـئة من انطباعها على دين قويم ، وهى ثمار تفاعل يقظ بين ما فى داخلنـا كله وما ألقى علينا من تكليفات عقدية وشرعية •

وهذه الملاحظات والمعارف والثمار لا تتولد فى أعماقنا لمجـرد القيـام بالأعباء الشرعية ، ولكنها تحتاج الى دقة فى ملاحظة التطبيق ، وفى مراقبة الكيفية التى تستقبل النفس بها هذه التكليفات ، والوجـوه التى تنفذها بها ، وما يعترض صاحب التجربة اليقظة من عقبات ، والطرق والأساليب التى تغلب بها عليها ، وكيف قاوم نفسه وجاهدها ، وبأى السبل انتصر عليها ، وبالطبع فان كل ذلك لا يتم لكل متدين ، ولا يتحقق لكل مسلم أن يكون صـاحب تجربة يلاحظ ، ويكتشف العقبات ، ويبحث عن أسبابها ، ويعالجها ، ويسجل طرق العلاج المتبعة لانجاح العملية النفسية فى قبولها لفكرة التدين وتنفيذ ذلك على وجه صحيح ، ان كثيرا من الناس يؤدون ما عليهم من شعائر دون ملاحظات وتجارب ، وكسب لخبرة ، وتحصيل معرفة وحكمة ، وبجانبهم أناس لا يعبأون بالدين وتجربته من أساسه •

والذى يهمنا من بين هؤلاء جميعا هو الصنف الذكى والعبقرى الذى يعلم ويعمل ويدخل فى صميم التجربة بكل أبعادها ، ويستفيد منها معرفة قائمة ولصيقة بالشرع وأحكامه ودقائقه ، هؤلاء هم الذين يختزنون نتائج تجربتهم ، ثم يصرفون منها لطلابها ، أو يدونون ذلك كله ويقدمونه مسموعا أو مكتوبا للراغبين فيه ، وأقوالهم هذه تعتبـر ارشارات ودلالات هادية لمن يريد الانتفاع بها على طريق السير نحو الله فى جدية وصحة ، وثبات ويقين ، ومن هؤلاء الوعاظ والحكمـاء

الذين قدموا لنا أقوالا مختصرة أو طويلة ترشدنا الى طريق العمل السليم وتصحح نفوسنا إذا انحرف بها السير ، أو زلت خطاها ، أو كادت أن تزل وهى تخطو على دين الله وشرعه ، والذى يتأمل تلك الأقوال يجدها متنوعة فى معانيها وأغراضها ، وهى نفس الأغراض التى ذكرتاها سلفا ، ودوناها أكثر من مرة .

ولا تظن أننى أبالغ فى قوة التجربة وثمارها النظرية ، لأنه يمكن التحقق من صدق القول بالقاء نظرة ولو سريعة على المنتجات التى خلفها هؤلاء الحكماء ، والذين لم يتحولوا فى كثير من الأحيان الى أرباب حكمة الا بفضل تلك التجربة ، وأحب أن أسجل هنا أن أقوالهم الخاصة بالنصائح والمواعظ قد تحمل معنى واحدا تركز عليه بشدة وقد تحمل الفقرة الواحدة عدة معان ، كل معنى هو نصيحة غالية فى حد ذاته .

ومن أمثلة الموعظة التى حملت معنى واحدا قول عمر بن الخطاب وقد كتب الى عتبة بن غزوان عامله على البصرة [أما بعد فقد أصبحت أميرا تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك ، فيا لها من منفعة ان لم ترفعك فوق قدرك وتطغيك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة ، وإياك أن تسقط سقطة لا لعا لها أى لا اقالة لها — وتعثر عثرة لا تقالها](٣٤) ويقول على بن أبى طالب [من أراد الغنى بغير مال والكثرة بلا عشيرة فليتحول منذل المعصية الى عز الطاعة ، أبى الله الا أن يذل من عصاه] (٣٥) ويقول [من خاف الله أخاف منه كل شيء ، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء](٣٦) ويقول حذيفة بن اليمان [من أحب أن يعلم أصابته الفتنة أولا فلينظر فان رأى

---

(٣٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ٩٥
(٣٥) نفسه
(٣٦) نفسه

حلالا كان يراه حراما ، أو رأى حراما كان يراه حلالا فليعلم ان قد أصابته] (٣٧) وأما الحسن البصرى فيقرر أنه [انما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا الأمر من غير محاسبة ، هيهات هيهات : ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد فى الأعناق ، فصبر وتؤدة فانما هى ليال تعد ، وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت](٣٨) ٠

وينصح خالد بن صفوان كلا منا قائلا [كن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا أقل ماتكون فى الباطن مآلا ، ودع من أعمال السر مايصلح لك فى العلانية](٣٩) ، ويقول الأوزاعى [بلغنى أنه ما وعظ رجل قوما لا يريد به وجه الله الا زلت عنه القلوب كما يزل الماء عن الصفا](٤٠) ويعظ خالد بن يحيى البرمكى (١٩٠ م) فيقول [اذا أقبلت الدنيا فانفق منها فانها تفنى ، واذا أدبرت فأنفق منها فانها لا تبقى] (٤١) ٠

فأنت ترى أن هذه طائفة من المواعظ قصرت فى العبارة ، ودقت فى الاشارة ، وتحددت فى المعنى ، وتكلمت عن النعمة والاحتراس منها خشية أن تطغى ، وبينت أن النعمة تحتاج الى حراسة أشد من المصيبة ، والخطر كل الخطر فى أن يسقط الانسان سقطة لا يجد اقالة منها ، كما تحدثت عن الطاعة وأنها تحقق العز والغنى لصاحبها بخلاف المعصية فان مرتكبها ذليل ولوملك المال الوفير والكثرة فى العشيرة

---

(٣٧) ابو يوسف يعقوب بن سفيان البسوى ٢٧٧ هـ : المعرفة والتاريخ الارشاد بغداد ١٩٧٥ ج٢ ٣٩١ تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمرى٠
(٣٨) ابن الجوزى : الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء ١٠٠
(٣٩) العقد الفريد ج٣ ٩٧
(٤٠) عبد الرزاق قاسم الصفار : الامام الأوزاعى ومنهجه فى الفقه ، دار الرسالة بغداد الطبعة الأولى ١٩٧٦ ص ٢٧٧
(٤١) ابن الجوزى الشفاء ٨١

وكل من خاف جناب الحق وضع له فى قلوب الخلق المهابة فخافوه ، ومن خاف البشر صار جبانا رعديدا يخاف من كل شيء ، وهناك علامة للفتنــة يجدها الانسان فى نفسه فيعلم بها هل أصابته الفتنة أو لا ، ألا وهى أن يرى الحرام حلالا بعد أن كان يراه حــراما أو العكس ، وبجانب هذا كله ينبهنا الحســن البصرى الى ضرورة المحاســبة ، وأبرز خالد بن صفوان أهمية الطهارة والنقاء فى الظاهر والباطــن ، وعلم الأوزاعى الدعاة كيف يكونون مخلصين يريدون وجه الله بوعظهم والا زلت القلوب عنهم ، وانصرفت عن الاستجابة لهم ، واخبــرنا الكريم يحيى البرمكى أن الجود لا يخرب دنيا سواء أقبلت أم أدبرت فلينفق الجميــع •

فهذه أغراض متعددة سيقت فى عبارات محددة ، وكل عبــارة حملت معنى دقيقا يحدد اتجاها مميزا من اتجاهات المواعظ ، فهــل ترى صاحب كل قولة كان يمكن أن يقولها قبل تجربته الدينية بنفس الشروط والضرورات التى بيناها ؟ أظنك معى أن بعض القائلين لهــذه المواعظ عاشوا فى جاهليتهم مغمورين لا صوت لهم ولا حكمة تلــوح من شفاههم ثم أسلموا ودخلوا فى صميم التجربة فنطقوا بما سمعت ، ووعظوا بما قرأت وما ذلك الا بفضل تلك العلاقة الوثيقة بين الاسلام فى عقيدته وأحكامه وبين نفوس أخلصت ، وقلوب تفتحت وعقــول وعت ، ومشاعر رقت ، وأنهم قد أجروا تجربتهم فى يقظة ، وسجلوا كل ما توصلوا اليه فانتفعوا ونفعوا ، ان تلك العبــارات لا تخــرج بهذه السهولة ، وتلك السرعة البدهية • الا اذا كان أصــحابها قــد اختزنوا ثمار تجربتهم بوعى ، وصارت حاضرة ماثلة أمام أذهانهم فى كل لحظة ، خاصة وأننا نراهم ينطقون بها صفوا عفوا بلا كدر ولا طول روية ، وهذا يدل على حضورها وهضمها •

وقد تصل الموعظة ذات المعنى الواحد ، وداخل العبارة الوجيزة الى حد الحكمة بشرائطها أو عمقها ، لقد رد أبو الدرداء على شكوى

أم الدرداء من قــلة الحاجة قائلا [تصبرى فان أمامنا عقبة كئودا لا يجاوزها الا أخف الناس حملا] (٤٢) وقيل لعلقمة الأسود بن يزيد من مدرسة الكوفة [كم تعذب هذا الجسد الضعيف ؟ فقال لا تنــال الراحة الا بالتعب](٤٣) وأما العابد الذى رفض أن يعظ هارون الرشيد فقالوا له لم رفضت أن تعظ فقال [انى أعظمت الله أن يكون يأمــره فيعصيه ، وآمره أنا فيطيعنى](٤٤) أى شفافية تلك لتجربة نفســية بلغت أوجها فى الروحية ، وأى نفس وروح ذابت فيما قامت به من عبادة وطاعة فجنت من وراء ذلك معرفة نقية ، وعلما خفيا ، وحكمــة جلية ، هاتوا عديدا من المثقفين والمتشدقين ، وهاتوا كثيرا من الشعراء والأدباء ، أو من علماء العصر هل يمكنهم أن يصلوا الى تلك الرقــة فى القــول ، والى هــذا العمق فى فهــم الأمور ، انه يمكننــا بكل سهولة أن نقرر مستريحين الى أن تلك العبارات لا تصدر الا من خلال تجــربة دينيــة حيــة .

واذا جاء الغرض ، أو المعنى ، أو الحكمة فى عبارة واحدة فان الموعظة طالت أم قصرت قد تحمل أحيانا أكثر من معنى ، وفيها يعمد القائل الى الانتقال من معنى لطيف الى آخر مثله أو ألطف ، وكأننــا به يريد أن يقلب النفس بين هذه المعانى حتى يستحوذ عليها عبر هذه الرحلة التى مهما طالت فلن تتجاوز بضعة سطور ، وراجع معى نصائح أبى بكر رضى الله عنه ، وعلى من أبى طالب ، وأبى الدرداء ، والحسن البصرى ، وغيرهم ، والتى وردت فى العقد الفريد (٤٥) ، وتأمل مواعظ الأوزاعى المتعددة التى ساقها صــاحب كتاب « تقدمة المعرفة » فى

---

(٤٢) العقــد الفريد ج٢ ١١٤

(٤٣) نفســه ج٢ ١١٣

(٤٤) نفســه ج٢ ١١٧

(٤٥) العقد الفريد ج٢ ٩٠ — ٩١ ، ٩٤ ، ٨٥ ، ٩٥

الجرح والتعديل سوف نخرج منها جميعها بعدة معان وعبر غالية جدا (٤٦) ولولا خوف التطويل لسرناها مع شىء من التحليل ، ولكن نكتفى بأن ننبه الى أنها مواعظ جامعة تضم أكثر من معنى •

الموعظة خطاب للعقل :

الموعظة أغلب ما توجه الى العاطفة كما سبق أن أشرنا ، ولكن الذين يرون أنه لاعلاقة بين أساليب الوعظ والاقناع العقلى مخطئون من عدة جوانب ، أهمها وحدة الكيان الانسانى ، ووحدة الوعى فيه ، ومعنى تلك الوحدة أنه لا انفصال بين ماهو عاطفى وعقلى ، فاذا شحنت العاطفة جذبت العقل الى رحابها ، وأرغمته بحكم هذه الوحدة أن يفكر ليضع مبررات منطقية لميول العاطفة واتجاهاتها ، وان الحوادث المتعددة تدلنا على أن التأثير العاطفى عندما يكون قويا تكون درجة الاقتناع بالحدث كبيرة ، ويكون لدى الشخص من الحجج العقلية ما يدافع به عن لهب مشاعره ، وفيض عواطفه ، ونحن نذكر أن كثيرا من الأباء أو المحيطين بنا يحاولون اقناع الفتى أو الفتاة بالعدول عن رغبة أى منهما فى الزواج من طرف آخر ، ويعلل الأباء هذه المحاولات بتعليلات تبدو قوية من وجهةنظرهم ، ولكن الفتى أو الفتاة لا يسكت كل منهما أمام ضغط وعلل الأباء ، وانما يقدمان من المبرات والأسانيد ما يدحضون به أحيانا أراء المعارضين ، وهم لا يقفون عند حدود الاشباع العاطفى بالحب وحده ، وانما يتجاوزن ذلك الى الاستدلال ، وهذا يفيد أن العاطفة المشبوبة قد دعت العقل ليتفرغ الموضوع من جميع جوانبه ويبتكر من الأسانيد ما يدعم الموقف العاطفى بجدية واهتمام •

---

(٤٦) لشيخ الاسلام ابى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد ابن أدريس بن المنذر التميى الرازى ٣٢٧ هـ والطبعة الأولى دائرة المعارف العثمانية ١٢٧١ ، ١٩٥٢ ١٨٧ — ٢١٧

ودعونا من الاستشهاد بالحب الجنسى فان لدينا عـــديدا من الشواهد الذين أسلموا عاطفة ثم بحثوا عن مبررات عقلية لاسـناد الجانب العاطفى كما فعل سيدنا حمزة ، اذ أسلم بدافع عاطفة القرابة وصلة الرحم لــا بلغه أن أبا جهل أساء الى النبى صلى الله عليــه وسـلم ، فتحركت مشاعر القرابة لديه ، وبعـد أن خمـد الموقف ، وهدأت الأحوال دعت العاطفـة العقـل كى يبحث فى أدلة الاقتناع فاحتاج وقتها الى مساعدة جدية من النبى صلى الله عليه وسلم ، واقد طلب منه فعلا ذلك ، ولـا اسـمعه النبى صلوات الله وسـلامه عليه طرفا من حديثه تلاقى العقل مع العاطفة فى موقف اشباعى ، وتلاحما فى درجة يقـين قـوية •

وبالعكس فعندما يقتنع الانسـان عقليا بامر ما يحاول بعد ذلك اكتشاف الجوانب الجمالية ، والصور الحسنة فيه لتنصرف العاطفة اليه ميلا واحساسا ، وكلما كانت أدلة الاقناعة قوية كلما كان كشفه لـا يرضى العاطفة سريعا ،ولا شك أن حادثة اسلام أمير المؤمنين عمر من هذا القبيل ، لقد ذهب الى أخته ثائرا غاضبا ملتهب الحماس والعاطفة لينتقم منها ، وعندما وصل حاولت اخماد ثورته العاطفية ، وما زالت به حتى استقر روعه ثم أسمعوه أوائل سورة طه فاقتنع بعقله ، ثم ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم على يديه ، وغمر بعد ذلك بالعاطفـة الايمانيـة •

هذا ما يتعلق بالنسبة لوحدة الكيان الانسانى داخل الشـخص المدرك ، وهناك ما يتصل بالموضوع المدرك ذاته ، فكلما كان عميقـا يرسل دلائل الاقناع للعقل وجدنا فيه أيضا جمالا من أى زاوية يجذب العاطفة ، والأشياء الجميلة التى تخلب اللب من أول لحظة ، وتثير الشجن هى نفسها التى تكشف فيها بسرعة وجوه الدلالة التى تغدق على عقولنا ألوانا من الاستدلال ، وهذا يعنى وحدة الموضـوع المدرك من حيث القيمة والعمق والجمال •

واذا طبقنا هذا على المجال الدينى وجدنا قـوة الأدلة فى الدين، وهى غذاء العقل وبراهينه ، ووجدنا قوة الأسلوب مع تربية الضمير ، وايقاظ المشاعر النبيلة والعواطف السامية واهتمامه بهـا ، وهـذا وذاك يقنع العقل ، ويجذب الوجدان ، ويحرك العاطفة ، وعندما ينظر الانسان فى أمر الاسلام اما أن يسترعى انتباهه ما فيه من اهتمام بالجانب الوجدانى والشعورى فيسلم ثم يكتشف البراهين ، واما أن يقتنع بالبرهان ثم ينجذب بعد ذلك وينساق بعاطفتـه ، والمواعظ وان ركزت على العاطفة فسوف ينتهى بها الأمر الى التـأثير على الكيان الانســانى كله طبقا لوحدة المعرفة والادراك فى الانسان ، ووحـدة الموضوع المدرك عمقا وجمـــالا .

على أنه لا يقتصر الأمر على ذلك من ناحية تأثير الموعظة واهتمامها بل يتعداه الى محاولة خطابها للعقل اما باستخدام أساليب العقـل كالتقسيم ، واما بالاســتدلال النقلى والاستقرائى ، وعلى ســبيل المثال فان على بن أبى طالب كتب الى عبد الله بن عباس يقول [أمـا بعد فان المرء يسره ادراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على مـا فاتك منها وما نلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحا ، وما فاتك فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت][٤٧] ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ذهب فى الصباح ليقيل بعد سهر على دفن سليمان [فأتاه ابنه فقال له أ أتقيل ولا ترد المظالـــم فقـال عمـر : أى بنى انى سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فاذا صليت الظهر رددت المظـالم فقال : من لك ان تعيش الى الظهر ؟ فقبل عمر رأسه ، وقال الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى][٤٨] .

---

(٤٧) العقـد الفـريد ج٢ ٨٤
(٤٨) ابن الجوزى الشفاء ٧٧ — ٧٨

وكان من عادة الدولة الساسانية أن يخرج الملوك لرد المظالم ، وينادوا على الجميع ، ويبدأ القاضى بالملك ثم يقول [انه لا ذنب عند الله أعظم من ذنب الملوك ، خولهم الله فى الرعية ليدفعوا عنها الظلم ، فاذا كانت هى ظالمة حق لمن دونها أن يظلم](٤٩) ووعظ ابن الجوزى الخليفة المستضىء فقال [يا أمير المؤمنين ان تكلمت خفت منك ، وان سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفى عليك من خوفى منك لمحبتى دوام أيامك ، وأن أقدم قول القائل : اتق الله خيرا من قول القائل : أنتم أهل بيت مغفور له ، وكان عمر بن الخطاب يقول : اذا بلغنى عن عامل ظالم أنه ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم ، يا أمير المؤمنين كان يوسف عليه السلام لا يشبع فى زمان القحط لئلا ينسى الجياع ، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول قرقرى أولا ، والله لاشبعت والمسلمون جياع](٥٠) .

فقد ظهر من خلال هذه المواعظ أسلوب التقسيم والحديث عن كل قسم وما يترتب عليه ، وايثار الحق عن الباطل . كما ظهر الاستدلال بالأمور المشهورة ، وبتقصى أخبار السابقين واستقراء أحوالهم للعبرة منها ، وهذا بالاضافة الى ما سبق قوله من أن المواعظ تقوم على الاستدلال النقلى بصورة رئيسية ، وكثيرا ما تأتى المواعظ فى صورة حوار بين شخصين(٥١) ، ولكن الحوار فى الموعظة يدور بين سائل يطلب المنفعة وبين مجيب يحقق للسائل سؤله ، وقد يتبارى طرفان فيذكر كل منهما ما يفتح الله عليه فى أمر معين ، وحتى هذا التبارى يختلف عن المناظرة والمحاورة من جهة أن كل شخص من المتحدثين يتناول نفس الموضوع الذى يتحدث فيه الطرف الآخر ويزكيه ، أو يحكى عنه من

---

(٤٩) نفسه ٦٣

(٥٠) نفسه ١٧ — ١٨

(٥١) انظر العقد الفريد ج٣ ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ — ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ والشفاء ٧٩ ، ٨٧ فقد جاءت مواعظ فى صورة محاورات .

بعض أطرافه ووجوهه ، وفى بعض الأحيان يسكت طرف لينتفع بما يقوله الآخر ، والمحاورة فى الوعظ لا تبنى على الخصـــومة كما فى الجدال ، ولا تكون بين سائل وراد كما فى المناظرة بل تكون ســؤالا بريئا وجوابا مقنعا ، وكل منهما صديق حميم للطرف الآخر ، وكل من الأطراف محل تقدير عند الآخر ، وهى محاورة تمحى فيها جميع أشكال المنــازعة والمخاصـــمة •

الموعظـــة بالقـــدوة :

تختلف الموعظة هنا أيضا عن المحاورة والمناظرة والمجادلة من جهة أن كلا من هذه الثلاثة لا تكون الا بالقــول أما الموعظــة فتكـــون بالقول وبالفعل أو بالقدوة فى السمت والهيئة والخلق والحال ، لقــد حدثنا الامام أبو حنيفة عن افادته بأيوب السختيانى الزاهد المشهور قال لمــا ذكر أيوب أمامه : [رحمه الله — ثلاثا — لقد قدم المدينة مرة وأنا بها فقلت : لأقعدن اليه لعلى أتعلق منه بسقطة فقام بين يدى القبر مقاما ما ذكرته الا أقشعر له جلدى](٥٢) •

ومن الناحية النفسية تعتبر الموعظة بالقدوة أكثر تأثيرا من القول وأقرب قبولا لدى النفس ، لأن نفوسنا قد تتأبى على الاستجابة بحكم ميلها الى الشهوة ، وحرجها أمام من يوعظها ، وذلك بخلاف القــدوة فان النفس هنا هى التى تتجــه بذاتهــا الى حال الواعظ فتعتبر به ، ويكون اتعاظها نابعا منها هى بايحاء خفى من صاحب الحال ، وأشار بعضهم الى تلك الدقيقة فقال [السعيد من وعظ بغيره لا يعنون من وعظه غيره ، ولكن من رأى العبر فى غيره فاتعظ بها فى نفسه](٥٣) ، وهذه المســألة تقع كثيرا ، وكــم من الأشخاص يحــاكى الآخرين فى اليوم وفى الحيــاة مرات ومــرات •

---

(٥٢) العقــد الفريد ج٢ ١١٥
(٥٣) نفســـــه ج٣ ٨٢

الفصل الرابع

الحكمة أرقى طرق الاقناع

المادة كلها مسندة الى الله :

نعنى بهذا أن مادة «حكم» ومشتقاتها مسندة الى الله سبحانه وتعالى على جهة الحقيقة ، وأنك اذا رجعت اليها فى القرآن الكريم وجدتها تمثل نظرية كاملة ، تبدأ تلك النظرية من نقطة التصريح بأن الحكم لمن يملك الخلق والأمر ، وفى الحقيقة نرى القران الكريم يعمق ويربط مسأله الحكم بمسألة الخلق ، فى الوقت الذى يصرح بأن من يخلق يأمر ، والحكم هو الجذر اللغوى الحقيقى للحكمة ، وبين الحكم والحكمة تتوارد مراحل النظرية التى يفصلها القرآن بكل دقة .

وأما تعميق فكرة الحكم وربطها بالخلق فنجدها فى قوله تعالى [ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين](1) . فمن يخلق شيئا يملكه ، ومن يملكه هو صاحب الأمر فيه ، والأمر اما أن يكون أمرا تسييريا وكونيا يجرى الخالق به خلقه ويصيره ويصرفه ويدبره كيفما شاء ، واما أن يكون أمرا تكليفيا يقضى فيه بما يشاء لما يشاء ، والقضاء والحكم ناشئان من الأمر التكليفى الشرعى .

---

(1) الاعراف ٥٤

وكما قصر الخلق والأمر على ذاته قصر الحكم فقال [**ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين**][2] [**الا له الحكم وهو أسرع الحاسبين**][3] [**ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**][4] فهو متفرد بالخلق والأمر والحكم والقضاء واذا حكم فلا معقب لحكمه، ولا يشرك فيه أحدا[5]، وحكم الله وقضاؤه فى الآخرة يتولاه بذاته ليفصل بين الخلق فيما اختلفوا فيه [6].

وأما حكمه فى الدنيا فقد كلف به الخلق، وأمرهم أن يحكموا بالعدل والقسط [7]، ولم يدع ذلك الى اجتهادات البشر وفقههم بل أنزل كتبا فصل فيها ما يريد من حكم وتشريع وختم ذلك بكتاب [**أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**][8] وقال لنبيه [**انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**] [9] [**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم**][10] وكل حكم شرعى مبثوث فى الكتاب العزيز فهو حكمه الذى ارتضاه لعبيده كما قال فى سورة الممتحنة عقب الآية التى تحدثت عن تحريم زواج المؤمنة بالكافر، والكافرة بالمؤمن وما يتعلق بذلك من أحكام : [**ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم**].

---

(٢) الأنعام ٥٧

(٣) نفس السورة ٦٢ ويأتى قصر الحكم على الله فى يوسف ... ، ٦٧ واثباته له وحده بدون قصر فى القصص ٧٠ : ٨٨ [له الحكم واليه ترجعون].

(٤) المائدة ٥٠.

(٥) الرعد ٤١ ، الكهف ٢٦

(٦) آل عمران ٥٥ ، الزمر ٤٦ ، البقرة ١١٣

(٧) النساء ٥٨

(٨) هود ١

(٩) النساء ١٠٥

(١٠) المائدة ٤٩ ، ونفسها ٤٨

فالكتاب الحكيم ، والذكر الحكيم حوى قضاءه وفصله ، والله طالب المؤمنين بتنفيذ ذلك ، وطالب البشرية كلها أن يؤمنوا به ويحكموه فيما شجر بينهم ، ولكن الله جلت حكمت لم يقتصر بفضله على ذلك بل أنزل الكتاب وعلمه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعلمه النبى لأمته ، وأنزل مع الكتـاب الحكمـة كذلك حتى قـال النبى صلى الله عليـه وسـلم [ألا انى أوتيت الكتـاب ومثله معى] وهذا يعنى أنه أنزل كتـابا وبينه وعلمه وأنزل الحكمة معه ومن مجموع الكتـاب وعلمه والحكمة وتفصيلها تكون مجمـوعة التشريعات والأحكام التى أمرنا أن نحكم بها وأن نرجع اليها فى اختلافاتنا وفيما شجر بيننا ، ومن لم يرجع اليها فلا ايمان له ولا انقياد ولا طاعة ، وما حكمه الـذى يلوذ اليه الا حكم الجاهلية ، وقد وصف القرآن الذين دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم فأعرضوا وانصرفوا عن حكمه بأنهم كافرون وظالـمون وفاسقون ، ولا نخوض فى أى الأوصاف ينطبق على من لم يحكم بكتاب الله وحكمته اليوم بل نبقى الأوصاف الثلاثة كما ســاقها الله جل جلاله ، وما يدرينا لعلها تجتمع كلها فى جماعة واحدة لا تحكم كتاب الله وشرعه !! بحيث يصح أن نقول عنهم أنهم كافرون وساترون الحق ، وظالمون لأنفسهم ولغيرهم ، وفاسقون خرجوا عن الحـدود التى رسمها الله سبحانه فى كتابه .

الحكمـة فى الكتـاب والسـنة :

وردت كلمـة الحكمـة فى القـرآن الكريم قرابة عشرين مرة ، وجاءت رديفة الكتاب ، أو رديفة الحكم أو سبقت وحدها ، وغلب السياق الذى جاءت فيه الحكمة عقب الكتاب مثل [**واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة**] (١١) على غيره ، يليـه مجيئها منفردة ، ثم مجيئها بعد الحكم .

---

(١١) البقـرة ٢٣١ .

وهناك دقائق هامة ينبغى أن نلتفت اليها منها : أن الله سبحانه عندما تحدث عن انزاله الكتاب والحكمة نراه فى مرات يحدث النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فيقول له [**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما**](١٢) أو يمن عليه بما أوحاه فيقول [**ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة**](١٣) ، وفى بعض الآيات يكرم الله الأمة فيحدثها جميعها بأنه أنزل عليها كتابه وحكمته كما جاء فى آية البقرة السابقة ، مع أنهما انما أنزلا على النبى صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة ، ولكن لما كان نزولهما انقاذا للأمة وهداية لها وتعليما وتكريما صح نسبة الانزال اليها باعتبار أنها منتفعة بما أنزل عقيدة وتشريعا وسلوكا .

هذا من ناحية نسبة الانزال أما من ناحية التعليم فان آية النساء بينت أن الله أنزلهما على النبى ، وأنه سبحانه علمه صلى الله عليه وسلم ما لم يكن يعلم ، وبهذا العلم الذى تعلمه الرسول صلوات الله وسلامه عليه علم الأمة الكتاب والحكمة ليزكيهم بهما [**كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**](١٤) ، فما تعلمه مما لم يكن يعلمه علمه للأمة لكى تعلم ما كانت من قبل ليست على علم به كما كان نبيها ، وأحيانا يختص الله من يشاء من عباده المؤمنين فيؤتيه الحكمة [**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا**](١٥) .

وبمعنى الاختصاص بالفضل حدثنا النبى صلى الله عليه وسلم أن الله شرفه بذلك ، فعن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [فرج عنى سقف بيتى وأنا بمكة فنزل

---

(١٢) النساء ١١٣
(١٣) الاسراء ٣٩
(١٤) البقرة ١٥١ ، آل عمران ١٦٤ ، الجمعة ٢
(١٥) البقرة ٢٦٩

جبريل ففرج صـدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه](١٦) الى آخـر الحديث ، ومن نال هذه المنحة فهو صاحب الغبطة ، روى عبدالله بن مسعود قال قال النبى صلى الله عليه وسلم [لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها](١٧) ودعا النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس قائلا [اللهم علمه الكتاب] وفى رواية [اللهم علمه الحكمة] وفى رواية النسائى والترمذى من حديث عطاء عن ابن عباس قال [دعالى رسول الله أن أوتى الحكمة مرتين](١٨) أو ضمنى رسول الله صلى اللـه عليه وسلم الى صدره ثم قال [اللهم علمه الحكمة] أو [علمـه الكتاب] الى آخـر ما جاء •

السـعة والشـمول فى دلالة الحكمـة :

كثيرا ما يختلف المفسرون اختلافات كثيرة حول تحديد معنى كلمة وردت بين ثنايا الآيات القرآنية ، ومن المرجح أن يكون هذا الاختلاف ناشئا من اعتمادهم على المعنى اللغوى وهو متسع وفسيح ، أو من طبيعة الكلمة ذاتها وتشعب استعمالها واطلاقها ، وتعتبر كلمة الحكمة واحدة من تلك التى تشعبت الآراء حول مفهومها تشعبا له أهميتـه ومغـزاة ، وله دلالته ومرماه •

أما التشعب فى حد ذاته فانهم يقولون عنها : انها الأفعـال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله فى عباده ، وخلقها لهم مثل محاسـن

---

(١٦) فتح البارى شرح البخارى ج١ ٤٥٨ — ٤٦١ ومسـلم ١٦٣ باب الاسراء كتاب الايمـان •

(١٧) فتح البـارى شرح البخارى ج١ ١٦٧ كتاب العلم باب الاغتباط فى العلم والحكمة والامام أحمد ج١ ١٤٤ ، وابن ماجه الحديث ٤٢٠٨ فى الزهـد والترمذى ١٩٣٧

(١٨) الترمذى حديث ٣٨٢٤ وابن ماجه ١٦٦ ، وفتح البارى شرح البخارى ج١ ١٦٩ — ١٧٠.

الأخلاق وقوانين المعانى ، والأفعال الدقيقة ، أو هى الاصابة فى القول والفعل ، أو التفكر فى أمر الدين والاتباع له ، أو هى تفسير القرآن وأحيانا يرون أنها الحكم والقضاء ، أو حكمة التشريع ، أو الرضا بالقضاء ، أو الزجر والمنع لأنها تزجر صاحبها عن الفعل القبيح وتمنعه منه ، وقيل هى السنة أو بيان الشرائع فى مقابل الكتاب الذى هو القرآن .

وأحيانا يفسرونها بأنها الشأن والقدر ، أو طاعة الله ، أو العلم والعمل به ، أو العقل فى الدين ، أو العلم المشتمل على المعرفة بالله مع انفاذ البصيرة ، وتهذيب النفس ، وتحقيق الحق للعمل به والكشف عن ضده ، أو علم القرآن وعلم آياته ، أو هى العدل ، أو الفقه فى التأويل والفهم الذى هو سجية ونور من الله ، أو الفقه فى الدين والاتباع له والطاعة والعمل ، أو الحكمة هى القضاء والحكم أو القرآن .

وقيل هى المقالة المحكمة الصحيحة ، والدليل الواضح المزيل للشبهة ، أو معرفة الدين والعمل ، أو المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ، وربما قالوا فيها هى ما منع من الجهل وزجر عن القبيح ، وقيل المحكم والحكمة المتقن والاتقان ، أو هى النبوة أو الورع .

تلك هى المعانى التى وردت فى كتب التفسير والحديث وسيق معظمها فى كتب اللغة أيضا ، وقد رتبناها على حسب حروف المعجم ، وذلك لكثرتها ، وقد رأيت أنها اتسعت الى حد كبير ، الا أنها مع هذا التشعب يمكن جمعها فى أصول محددة :

أولا : القرآن والسنة والنبوة .

ثانيا : الادراك والعقل والفهم والفقه والتفكر والسجية المركوزة واستناد ذلك على الأصل الأول .

ثالثا : التشريع والحكم والقضاء والرضا بذلك ٠

رابعا : الزجر والمنع والخشية ٠

خامسا : العمل والاتباع والطاعة ٠

سادسا : الاقناع بالأدلة والبراهين والأقوال المصيبة والحكيمة والموجـــزة ٠

وبالنظر فى هذه الأصول وما دار فى فلك كل منها من المعـــانى نجد أن الاختلاف حول المعنى هو اختلاف تنوع لمـــا تقتضيه الكلمـــة من دلالات ، وانما كان اختلاف تنوع لأنه يمكن الجمع بين هذه الفهوم كلها بحيث تكون الكلمة جامعة لها ممسكة بأعنتها ، مستوعبة لكـــل اتجاهاتها ، فيقال فى عملية الاستيعاب : ان اللفظة تستند على المصادر الاسلامية : الكتاب والسنة ، والذى يريد أن يكون حكيما أو ذا حكمة لابد أن يرجع اليها فى معارفه وعلومه ، وأن يتسم مع ذلك بالادراك الواعى والذهن الثاقب والعبقرية الجيدة ، وأن يعمـــل ذلك كله ويتفكـــر فى المصادر ليفهم ويفقه ويعلم ويحصـــل ويستوعب ، فان وصـــل الى درجة عالية من التحصيل والمعرفة صار هذا العلم زادا له يدفعه الى العمـــل المطابق للشرع ، ويصحح له طاعته واتباعه ، ويزجـــره عن المعاصى والمخالفات ، وتؤهله علومه تلك الى أن يكون حكما وقاضـــيا وفقيها ومفتيا ، وتكون لديه ذخيرة من الحجج والبراهين والأقـــوال الحكيمة المتقنـــة التى يستطيع بهـــا اقناع الآخرين ، وكل من حاز ذلك كله فهو الحكيم وهو صاحب الحكمة ٠

وطبقا لسبك المعانى على هذا النحو يمكننا أن نقرر مستريحين بأن القرطبى على حق حينما ذكر أن كل ما ذكر من الفهوم فهو نوع من الحكمة التى هى الجنس[١٩] ، وبصرف النظر عن المصطلحات المنطقية

---

(١٩) انظر : تفسير القرطبى ج٣ ٣٣٠ ج٤ ١٢١ — ١٢٢ ج٥ ٣٨٢ ج٧ ج١٣ ١٩٢ ، تفسير الكشاف ج٢ ٣٤٩ تفسير البيضاوى ج١ ١٤٠ ،

من نوع وجنس فان الكلمة جامعة حاوية لكل ما ذكر من الفهوم ، وهى تدل عليها لفظا وتقتضيها مضمونا ، وأنها بما تشتمل عليه من معـانى ودلالات تخدم أهداف التشريع والقضاء والاقناع والاستدلال كما تخدم الشخص ذاته من حيث العمل والطاعة والانتهاء عن المعاصى ، لهذا كله كانت الكلمة فسيحة ، وكان التشعب له مغزى وأهمية بالغة ، وبهذا كله أيضا نفهم أن الكلمة اذا أطلقت على الانسان انصرفت الى ما قلناه فى عملية الاستيعاب التى سبكناها من جماع المعانى الواردة ، واذا ما أطلقت على القـرآن أو السنة فلأنهما يحويان من المعـارف والاتقان ما يكونان مصدرا لكل حكيم ، وأما اذا ما أطلقت على الله فلأنه يعلم الأشياء ويوجدها على غاية الأحكام ، وأنه المنزل والموحى لمصدرى المعرفة الحكيمة وهما الكتاب والسنة .

من الخطـأ تضييق المعنى :

لقد رأيت أن الحكمة لفظة جامعة تشمل المصادر الرئيســـية الهادية للتفكير ، والقوة المفكرة العاملة فى رحابها ، ومجال تلك القوة واستكمالها بالعلم والمعرفة والفقه ، ثم استكمالا بالعمل والطـاعة ، والقضاء والفتيا والحكم ، وكذلك محاولة اقناعها للغير بما توافـر لديها من حجـج وبراهين ، واذا كانت بهذه السـعة فى القـرآن ، وكما تصورها المفسرون طبقا لمـا هى عليه فى أصل الوضع اللغوى فان أى محاولة لتضييق هذه الكلمة وحصرها فى مجال محدود يعتبر خروجا بها عن الرحابة التى أرادها القرآن .

ولا شك أننا لو تجولنا قليلا مع التعريفات الاصطلاحية للمسنا بأيدينا عملية الخنق واضحة ، نلمس ذلك عند ابن سـينا اذ يقول فى

والمفردات ١٢٦ — ١٢٧ — وشرح السنة للبغوى ج١٤ ١٤٦ ، وفتح البارى ج ٤٥٨ — ٤٦١ — ١٦٧ ، ٦٩ — ١٧٠ ، وابن تيمية : مجموع الفتـاوى ج٢ ٣٦٦ والرد على المنطقيين ٤٢٤ ، والمعجم الوسيط ج١ ١٩٠ .

تعريفها انها [استكمال النفس الانسانية بتصور الأمور والتصـديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة البشرية] ويقول الجورجانى هى [علم يبحث فى الأشياء على ما هى عليه فى الوجود ، وبقدر الطاقة البشرية] والجورجانى مزج بين تعريف أرسطو وابن سينا فالجزء الأول من تعريفه هو نص ما قاله أرسطو ، واضافة بقدر الطاقة مستوحى من تعريف ابن سينا ، ولا تخرج تعريفات حاجى خليفـــة وغيره عن هذه التعـــريفات(٢٠) •

وتتمثل عمليـــة الخنق للفظة فى جعلها مقصورة على اســتكمال النفس فى الجانب النظرى أو الأخلاقى فحسب ، أما أن تتحدث عن مصدر المعرفة ومعيارها ، وضرورة الاستيعاب الكامل للمعارف النابعة من هذه المصادر واستكمال النفس بذلك يقينا ومعرفة وطاعة الله طبقا لشرعه ، وتأهيل النفس بتلك المعارف لتكون حاكمة ومقنعة للغــير نهذا كله ما لا تتضمنه التعريفات الاصــطلاحية ، من ذلك نرى أن اللفظة يجب أن تبقى سابحة فى شمولها داخــل الألفاظ القــرآنية ولا نخرجها الى مضايق الاصطلاحات الفنية التى تحد من ســــعتها وانتشارها وتأثيرها ومغـــزاها •

ومن الجدير بالذكر أننا عند نتناول بعض الألفاظ أو المصطلحات الدينية لا يلزم من تناولها أن نخضعها للمفاهيم التى تحددها فى مجال بعض العلوم الأخرى ، وليس من الضرورى أن نعرفها بما تواطأ عليه أرباب فن من الفنون لأن المصطلح من الناحية المعرفية العامة قــد يستخدم بعدة مفاهيم حسب وضعه ، أو حسب الاتفاق عليه بالنســبة المشتغلين فى علم ما ، فيستعمله هؤلاء فى علمهم بمعنى ويســتخدمه

---

(٢٠) انظر كتابنا «الحكمة العربية» ٢٥ ــ ٢٦ ، والملاحظ أننا لــم نورد للمعانى اللغوية والاصطلاحية كثيرا من الشرح والبيان لاننا تناولنا الكلمة فى كتاب الحكمة العربية باسهاب لمن اراد فليرجع اليه •

آخرون فى علم آخر بمعنى مغاير ، ولذا نجد كتب المصطلحات تعطى عدة تعريفات لمصطلح واحد بحسب وجوده فى أكثر من علم .

وبناء على ذلك فان أى لفظة تستخدم يجب أن نراعى عند استخدامها المجال العلمى المستعملة فيه ، أو الموضوعة له بين مسائله ، ويتأكد هذا الوجوب بصفة أساسية فى دراسة الألفاظ القرآنية ، فلا يجوز نقلها من الرحاب الواسع الذى نزلت لتعمل فيه ، ومن المناسبات التى قيلت فيها ، ومن جو السياق الذى ذكرت فيه لنطبق عليها تعريفا جامدا جلب اليها من علم آخر ، ومن ميدان قد يختلف تماما عن ساحتها الرحبة التى جاءت لتعمل فيها ، هذا بالاضافة الى أن القرآن نزل بأسلوب عربى مبين فيجب أن نبقى ألفاظه خاضعة لما يفهم العرب من الكلمة ، ولما يتفق مع الشرح والبيان الوارد فى السنة ، ولما قام به الصحابة ورجال السلف السابقون من تفسير وتأويل فهذا كله هوالذى يصور ماتحتمله الكلمات منمعانى ، وما يمكن أن تتضمنه من مفاهيم ، ولم ينزل القرآن طبقا لاصطلاح علم من العلوم ، أو فن من الفنون السابقة عليه أو اللاحقة له ، وفى كثير من المناسبات كان النبى صلى الله عليه وسلم يحيل على اللغة نفسها ، وكان الصحابة يفسرون الكلمات بها دون الرجوع الى أصل الوضع لكونهم يعرفون لغتهم بالسليقة ، وبعد مضى مدة صار المفسرون والباحثون فى المفردات يسوقون الاشتقاقات اللغوية ويفسرون الكلمة بها ، وبما ورد من أحاديث وأخبار وروايات عن السلف .

وهذا هو الاتجاه الأقوام ، وأما ما عمد اليه بعض المفسرين المتأخرين من محاولة شرح المفردات بمصطلحات فن ما ، مثلما تناولوا كلمة الحكمة فعرفوها بما وجد فى الجو الفلسفى كقول الفخر الرازى أنها [الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية] (٢١) ، أو قول الألوسى [انها المقالة المحكمة والحجة القطعية المزيحة

---

(٢١) التفسير ج٢٠ ١٣٨ — ١٣٩

للشبه](٣٢) فهذا وأضرابه خروج باللفظة القرآنية عن معناها وجوها وعما اتفق عليه السابقون من علماء الاسلام المخلصين الذين لم يتأثروا بمؤثرات علميـة وافدة •

القــرآن ومنهجيــة الحكمــة :

الحكمة اذا كما بدت من المعانى السابقة هى : وصف أو اســم وصفى لمن علم وعرف وفقه وعمل وحكم وأقنع وهى لفظــة جامعــة للكتاب والسنة ، وقبل ذلك كله توصف بها أفعال الله وآياته ، لكن بعد هذا هل وقف القرآن باللفظة عند حد الوصف ، وحد المعرفة والعمل الذاتى كلا لقد أمر القرآن أن تكون الحكمة مع الموعظــة والجــدل منهجا فى هداية الناس الى ســبيل الله فقال **[ادع الى ســبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن](٢٣)** •

وهذه الآية بمصطلحاتها المنهجية الثلاثة ، وبكونها حثت عــلى الاقناع هى التى برزت مواقف الذين حاولوا تفسير كل من الحكمــة والموعظة والجدل بتعريفات جلبت اليها من ساحات المنطق والتفلسف ، ولست أرى هذا الرأى وانما أتمسك بما أعلنته توا من ضرورة ابعــاد التعريفات الفنية لعلوم أخرى عن ألفــاظ القرآن ما لم تقترب أو تتطابق مع الوضع اللغوى والأقوال المأثورة ، أو ما لم تكن من نحت المشتغلين بالعلوم الدينية الأوفياء لمصادرها نصا ومضمونا ، لا تعصبا فى ذلك ولكن لكونهم أعرف الناس باللفظة وجوها وسياقها ومناسباتها •

وبما اننا قد استقر رأينا على ذلك فالمنهجية التى يريدها القرآن من الحكمة أو الموعظة أو الجدل لا تعنى ما قيل عن الأولى بانها الأدلة القطعية فحسب ، أو ما قيل عن الموعظة من أنها المشهورات ، أو ما ذكر عن الجدل بأنه الدلائل التى تلزم الخصم ، وانما يجب أن تبقى

---

(٢٢) روح المعــانى ج١٤، ٢٥٤.
(٢٣) النحــل من الآية ١٢٥.

الحكمة فى سعتها التى ذكرناها ،وتكون المنهجية معتبرة على أساس الشمول ، وبذا يكون الحكيم مقنعا للآخرين بما يوجد لديه من فطنــة وروية ، ومعرفة وعلم ، وعمل واخلاص وطاعة ، وقول صادق دقيق ، أو حجة مقنعة ، ويكون الواعظ مقنعا بما ذكرنا من صفاء قلب ، وحسن نية ، وبراعة فى الأسلوب ، وتلطف فى الخطاب . وأن يلتزم المجادل الآداب التى تناولناها سلفا ، وبالتالى فأى مفهوم يحد من رحابة الحكمة والموعظة فى الآية بالذات يعتبر تضييقا للمنهجية فى الطريقين.

وبهذه المناسبة يطيب لنا أن نتناول آراء العلماء حول المنهجية فى آية النحل ، وهل هى ثنـــائية مقصورة على الحكمة والموعظة ؟ أو ثلاثية شاملة لهما وللجدل ؟ ومن يخاطب بكل منها ؟ وحول هذه المسألة نجد المفسرين والعلماء يتجهون اتجاهين :

الانجـــاه الأول ــ المنهــج ثلاثى :

يتمسك الطبرى والزمخشرى والقرطبى وغــيرهم بضرورة أن يبقى المنهج ثلاثيا كما نصت الآية الكريمة ، ويرون أن الله جلت حكمته خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يدعو من أرســـل لهم الى دين الله وهو الاسلام والى عقيدة التوحيد والى شرع الله الحكيم بالحكمة المنبثقة من الكتاب والسنة ، والقائمة على الفقه والفهم ، والتى صيغت بعبارة وجيزة مع معنى مفيد ، أو جاءت فى مقالة صحية ودليل واضح يزيل اللبس ، ويقضى على الشــبه .

أو يحاول جذبهم وهدايتهم الى الله بالموعظة الحسنة المتمثلة فى العبر الجميلة التى جعلها الله حجة عليهم فى كتـــابه وذكرهم بها فى تنزيله ، والتى تحمــل زواجر رادعة ، وبشائر مرغبة ، ويظهر لهم من خلال وعظك لهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها ، واذا ما دعت الضرورة الى الجدل والخصومة فجادل بالتى هى أحسن من حيث رقة الأسلوب ، وصدق الدليل ، واللين فى القول ، والاخلاص فى

الاقناع ، والرغبة في اظهار الحقيقة ، وخفض الجناح ، من غيرما فظاظة ولا تعنيف ولا غلظة[٢٤] •

ويلاحظ على أنصار هذا الاتجاه أن معالجتهم لمسألة ثلاثية المنهج القرآني في الاقناع ومحاولة الهداية خلت من الطرق الكلامية ، والأساليب الفلسفية ، وكانت كما أشرنا سلفا متفقة مع جو القرآن في سياقه ومناسباته ومع ما تحمله الألفاظ القرآنية من معان تتفق مع أصل الوضع اللغوي ، وعلى هذه الطريقة سار معظم المفسرين المتقدمين •

ويعلل الغزالي سر تعدد طرق الاقناع في الآية بأن ذلك راجع الى أحوال المخاطبين ، وأن الله سبحانه أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب كل جماعة بما يتفق مع طبيعة تفكيرها ، ودرجة ثقافتها ، وما انطوت عليه في فطرها وطبائعها ، واختلاف القرائح والأذهان والطبائع والفكر يقتضي ممن يحاول هدايتهم أن يتفرس المخاطب جيدا ليقف على ما لديه ، ويطلع على قدراته وحدوده الذهنية والثقافية ، وأي خلل في تقدير موقف المخاطب سوف يعرض عملية الاقناع الى أن تفقد تأثيرها ، أو تضل طريقها الى عقل وقلب المخاطب يقول الغزالي في صميم ذلك :

[اعلم أن المدعو الى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم ، فأن الحكمة ان غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير ، وأن المجادلة ان استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوي من الارتضاع بلبن الآدمي ، وأن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن غذى البدوي بخبز البر ، وهو لم يألف الا التمر ، أو البلدي بالتمر وهو لم يألف الا البر][٢٥] وتلك

---

(٢٤) الطبري : التفسير ج١٤ ١٣١ ، الكشاف ج٢ ٢٤٩ • القرطبي ج١٠ ٢٠٠ ، ابن الجوزي زاد المسير ج٤ ٥٠٦ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج٢ ٥٩١

هي سنة الأنبياء مع أقوامهم ، فما قابلوا الأقوام الا بما يتفق وطبائعهم ، وماحدثوهم الا بالحسنى والرحمة ، وفهم مقالاتهم واقامة الحجة عليهم (٢٦) .

وفى مقام التعليل لثلاثية المنهج ، وأنه ينبغى الجمع فى محاولات الجذب والهداية للبشر بين الطرق الثلاث يقول الألوسى أيضا [وانما تفاوتت طرق دعوته عليه الصلاة والسلام لتفاوت مراتب الناس] فى الفهم والاستعداد(٢٧) .

من هو المخاطب بكل من الثلاثة ؟

اذا تفاوتت المناهج طبقا لتفاوت الطبائع فهل يعنى هذا اختصاص كل منهج بجماعة معينة ؟ واذا كان كذلك فما صفات الجماعة التى نخاطبها بالحكمة ، وما صفات الأخرى التى تخاطب بالموعظة وهكذا ؟

حاول بعض العلماء أن يضع تصورا عن ذلك . فرأى أن الشخص الذى نخاطبه بالحكمة هو الذكى القابل الذى لا يعاند الحق ، ولا يأباه ، ولكنه يستجيب له ، وقلبه مع ذكائه حاضر واع قابل للهدى ، فهذا لا يحتاج الا الى ايصال الهدى اليه لكمال استعداده ، وصحة فطرته ، فاذا جاءه الهدى سارع الى قبوله ، وهكذا صوره ابن قيم بلا تقعير كلامى ولا فلسفى .

وأما الفخر الرازى فعلى الرغم من أنه لا يقرر الثلاثية كما سنبين بعد ذلك الا أنه يعطينا وصفا لحال من يخاطب بالحكمة ومن يخاطب بغيرها فيقرر بداية أن الدعوة الى المذهب والمقالة لابد وأن تكون مبينة على حجة وبينة ، والمقصود من ذكر الحجة اما تقرير ذلك الاعتقاد أو المذهب فى قلوب المستمعين ، واما أن يكون المقصود الزام

---

(٢٥) القسطاس المستقيم ١٠١ — ١٠٢
(٢٦) ابن نجم الحنبلي : كتاب استخراج الجدل ٥٣ — ٥٤
(٢٧) روح المعانى ج١٤ ٢٥٤ — ٢٥٥

الخصم وافحامه ، والحجة أما أن تكون حقيقية يقينية قطعية فتلك هى الحكمة ، واما أن تكون مفيدة الظن الظاهر فهذى هى الموعظة ، والزام الخصم وافحامه هو الجدل فهذه ثلاثة طرق .

ويرى أنه يخاطب بالحجة اليقينية القطعية التى هى الحكمة الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية . والمكالمة مع هؤلاء لا تتم الا بالدلائل القوية المحكمة ، ويضيف الألوسى فى أوصافهم قوله : انهم أصحاب نفوس مشرقة قوية الاستعداد لادراك المعانى ، قوية الانجذاب الى المبادىء العالية ، مائلة الى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهم السابقون الذين يفادون من الحكمة اليقين البرهانى أو العيانى ، أو الدليل العقلى القاطع ، والشهود البصيرى الضرورى ، فيمكنهم تحصيل البرهان العقلى باستعدادهم ، ونوال البرهان الذوقى والقلبى بصفائهم ونبلهم .

وأما الذين يخاطبون بالموعظة فى نظر من ذكرنا فهم كل من ليس لديه استعداد الصنف الأول ، ولكن اذا ورد الهدى اصغى اليه بسمعه ، وأحضر قلبه ، وجمع فكرته ، وعلم صحة ما يلقى اليه وحسنه بما لديه من نظر واستعداد مناسب ، ومن صفاته أيضا أنه قابل مستجيب ولكنه غافل أو لديه نوع غفلة ، وربما كان معرضا الا أنه مع أعراضه مستعد للانصياع والاستجابة حسبما فصل ابن قيم الجوزية هنا كذلك .

ولكن الفخر الرازى يرى أن المخاطبين بالموعظة الحسنة التى تعرض فى صورة دلائل ظنية ، ودلائل اقناعية هم قوم لم يبلغوا فى الكمال حد الحكماء المحققين ، ولم يصلوا فى النقصان والرزالة الى حد المشاغبين المخاصمين ، ولم يعوا الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، وقد يتسمون بشىء من ضعف الاستعداد والميل نحو المحسوسات وان بقوا على الفطرة الأصلية ، والسلامة الخلقية .

ثم يستطرد صاحب روح المعانى فيقرر أنهم أقوياء التعلق بالرسوم والعادات ، وأنهم جبلوا على المسالمة التى لا عناد معها ،

وأغلب ما يكونون من العوام ، واذا كانوا من العلماء فهم من ذوى الألباب وأرباب القلوب التى تؤثر فيهم المواعظ ، وتفيدهم الرقائق ، وهذا يعنى فى نظر الألوسى أنهم اما أن يكون من العوام الذين يتعلقون بالرسوم والعادات ويعشقون المحسوسات ، واما أن يكونوا من العلماء ولكنهم حملوا فى داخلهم قلبا كبيرا وفطرة صافية ، ولبا نقيا فهم مستعدون للافادة بما يلقى اليهم من تذكير ونصح .

واذا جئنا الى من يخاطب بالجدل وجدنا ابن قيم يوضح أنه المعاند المعارض ، والمشاغب المخاصم ، وهو الذى غلب على طبيعته حب العناد واللجاج لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية ، أولاهم لهم الا أن يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ولما رسخ فيهم من العقائد الباطلة ، حتى صاروا بحيث لا تنفعهم المواعظ والعبر ، بل لابد من التامهم الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته وتزول شيكمته ، وهكذا فصل الفخر الرازى والألوسى والقمى النيسابورى[٢٨] .

ويتبين لنا من خلال هذا الحديث أن الفخر الرازى والألوسى قد تناول المسألة بأسلوب فلسفى ، ولغة منطقية مخالفين بذلك تلك اللغة ، وهذا الأسلوب الذى ظهر عند متقدمى المفسرين ، وقلنا مرارا ان الأولى والأوجب ابعاد الروح الفلسفية والطريقة المنطقية عن القرآن الكريم وألفاظه ، ومصطلحاته وأدلته . وأيضا فان الألوسى بالذات أقحم البرهان الذوقى مع البرهان العقلى أثناء حديثه عمن يخاطبون بالحكمة مع أن أرباب الأذواق لا يعبأون بتلك الحكمة التى عناها الفخر الرازى والألوسى ، والقائمة على الحجج اليقينية ، أما الحكمة التى يسعون لها فهى ما يتصل بمجاهدة النفس وبيان

---

(٢٨) ابن قيم الجوزية : مفتاح دار السعادة ج٣ ١٠١ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، الفخر الرازى التفسير الكبير ج٢٠ ١٣٨ — ١٣٩ ، الألوسى روح المعانى ج١٤ — ٢٥٤ — ٢٥٥ النيسابورى غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج١٤ ١٣٠ — ١٣١ هامش الطبرى .

أمراضها وطرق معالجتها ، وما يتصل بنوع الحكمة الذى هو عطـاء ربانى محض كما جاء فى سورة البقرة « **يؤتى الحكمة من يشـــاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب**] •

وأيضا ورد فى أثناء بيان أصناف المخاطبين بالحكمة والموعظة أنهم قد يكونوا من المستجيبين ، وربما قصروا الخطاب بالطريقتين المذكورين على هؤلاء القابلين من أرباب الهدى ، وأعتقد أن الخطاب يجب أن يبقى عاما شاملا لكل من لم يؤمن ، أو آمن وغفل ، وكذلك فان محاولة تصنيف المخاطبين على النحو السالف ، والذى يقضى بأن من يخاطب بواحد من الطرق الثلاثة لا يعتبر أهلا لغيرها ليس مطردا لأن بعض الأفراد قد نخاطبه بالحكمة حتى يؤمن ، ثم نخاطبه بعـد بالموعظة اذا سها وغفل ، أو أقبل على الدنيـا وأردنا لفت نظره نحو الآخرة بصورة أكثر ، وكذلك قد نجادله مجادلة حادة فيسلم ويقتنع ثم بعد ذلك نوالى عليه المواعظ لترقيق قلبه ، وتزكية نفسه ، وهكذا لا نستطيع الفصل التام بين من يخاطب بالحكمة أبدا ، ومن يخاطب بالموعظة على طول الخط ، أو من نلزم معه أسلوب الجدال ، والأسلم أن تكون الطرق الثلاثة مناهج نستخدمها عند اللزوم وبحسب الحاجة وعلى قدر المخاطب وظروفه واحتياجاته •

الاتجـاه الثانى — ثنائية المنهـج :

يرى أنصار هذا الرأى أن المناهج التى أمر الله نبيه صـلى الله عليه وسلم أن يدعو بها دائما ، وفى كل الظروف العادية منحصرة فى الحكمة والموعظة الحسنة فحسب ، وقد تبنى هذا الرأى الفخر الرازى فى تفسـيره حيث ذكر أن المنهجين المذكورين قد جاءا رديف الدعوة وبأسلوب واحد ، وصيغة واحدة ، وهذا يعنى أنهما هما المعتبران على طول الخط ، يقول ما نصـه :

[ومن لطائف هذه الآية أنه قال « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسـنة** » فقصر الدعوة على ذكـر هذين القسمين ، لأن

الدعوة ان كانت بالدلائل القطعية فهى الحكمة ، وان كانت بالدلائل الظنية فهى الموعظة] أما الجدال فليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الالزام والافحام فلهذا السبب لم يقل ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن ، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها عن أنه لا يقصد أساسا من أجل الدعوة ، وانما الغرض منه شىء آخر (٢٩) ، ووافقه ابن تيمية على ذلك مرددا [فالقران ليس فيه أنه قال : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل ، بل قال « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم » مما يفيد أنهما منهجان لا ثلاثة] وهاتان [هما الطريقان : الحكمة والموعظة ، وعامة الناس يحتاجون الى هذا وهذا] ولا يدعى بالجدل الا المنكر المعارض(٣٠) .

ونفس الشىء يفعله القمى النيسابورى فيكرر أنه [ليس للدعوة الا هذان الطريقان ، ولكن الداعى قد يضطر مع الخصم الألد الى استعمال الحجج الملزمة المفحمة ، فلهذا السبب عطف على الدعوة قوله « وجادلهم بالتى » أى بالطريقة التى هى أحسن . فكأن طريق الجدال لم يكن سلوكه مقصودا بالذات ، وانما اضطر الداعى اليه لأجل كون الخصم مشاغبا] ثم يعقب بقوله [هكذا ينبغى أن يتصور تفسير هذه الآية فان كلام المفسرين الظاهريين فيه غير مضبوط](٣١) .

الخلاف بين الاتجاهين غير حقيقى :

هذا صحيح فنحن لو دققنا النظر فى تلك المسألة لوجدنا أن الخلاف بين أنصار الاتجاه الأول وبين القائلين بالاتجاه الثانى غير بعيد ، وأن الفرق بين ثلاثية المنهج أو ثنائيته انما هو فرق بالاعتبار لا بالحقيقية ، أى أنه مبنى على اعتبار معين سكت عنه الطرف الأول

---

(٢٩) التفسير الكبير ج٢ ١٣٩ — ١٤٠ .

(٣٠) الرد على المنطقيين ٤٦٧ — ٤٦٨

(٣١) غرائب القران ورغائب الفرقان ج١٤ ١٢١ هامش الطبرى

واعتد به الطرف الثانى ، هذا الاعتبار هو أننا لا نلجأ الى الجدل الا عند الضرورة ، وعند مشاكسة الخصم ومعاندته ، وفى غير تلك الحالة تكون الحكمة والموعظة الحسنة هما المنهجان الساريان أبدا ، هكذا اعتبر الفخر الرازى وابن تيمية والقمى حالة الضرورة مع الجدل ففصلوه عن الانضمام الى المنهجين الثابتين مع اعترافهم بأنه منهج وطريق عند اللزوم •

ونقول لهم اذا هو منهج معتبر لديكم بشرط الضرورة ، وهو كذلك عند أنصار الاتجاه الأول لأنهم يرون أن الحكمة والموعظة يسريان أبدا ، وفى كل الأحوال ، وينضم اليهما الجدل حينا ، ولم يصرحوا باعتبار العناد والمخاصمة استنادا الى ما ذكروه فى ضبط الجدل حتى يكون محمودا ، وفى الشروط التى يجب توافرها فيه ، واستنادا الى أن واقع المسلمين بصفة عامة يقضى بأنهم لم يلجأوا للجدل الا عند الضرورة القصوى ، ومن هنا فقد سكتوا عن ابراز الاعتبار الذى نبه اليه أصحاب الاتجاه الثانى •

وأيضا فان المعتد به فى الحكم بالثلاثية أو الثنائية هو الاقرار بمنهجية الجدل أصلا ، أو عدم منهجيته ، فاذا اعتد به الفريق الثانى انضم على الفور الى الاثنين السابقين ليتكون منها جميعها المنهج الثلاثى ، ولا يمنع من انضمامه اليهما ما اشترطوه من الضرورة لأن هذا الشرط معروف بين المسلمين وان لم ينصوا عليه • ولو أنهم أنصفوا فقالوا المناهج ثلاثة : اثنان يستخدمان بلاقيد ولاشرط ،وواحد لابد فيه من شرط العناد والمخاصمة لكان موقفهما أقل اضطرابا ، وأكثر دقة ، على أنه حتى فى تلك الحالة التى يظهرون فيها بالنصفة لا يأتون بجديد لأن المعروف فى استخدام الجدل من حيث طبيعته فى البناء المنهجى للقرآن أنه لا يستخدم الا كذلك ، والقيد الذى وضع فى الآية(٣٢) يغنى عن ذكر الشرط •

---

(٣٢) ونعنى بالقيد هو « الأحسن » الموصوف به الجدل .

وبجانب ذلك كله فاننا نرى ابن تيمية يهمل القول بالثنائية تماما ، ويركز على الثلاثة معا فى عبارة مثل قوله « ان الله أمر نبيه أن يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن وهذه الطرق الثلاثة هى النافعة فى العلم والعمل ، وتشبه ما يذكره أهل المنطق من البرهان والخطابة والجدل] والثلاثة تعطى التصديق واليقين والعمل(٣٣) ، وكأنه عدل عما قال فى كتابه « الرد على المنطقيين » .

تنزيه الألفاظ القرآنية عن المصطلحات المنطقية :

بعد أن اعترف ابن تيمية بثلاثية المنهج قرر كما جاء فى النص السابق أنها تشبه ما يذكره أهل المنطق من البرهان والخطابة والجدل ، ثم بين مقدار التشابه بين الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالمصطلحات المنطقية فقال [ان هذه الثلاثة تشبه من بعض الوجوه الأقيسة الثلاثة التى هى : البرهانية ، والخطابية ، والجدلية وليست هى ، بل أكمل من وجوه كثيرة] .

ويمكن بيان التشابه بين هذى وتلك بما يقولونه عن الحكمة من أنها الدلائل القينية فهى من حيث هذا التفسير تشبه البرهان العقلى ، ويقولون عن الموعظة انها دلالات مشهورة ذائعة فتقترب من الدليل الخطابى ، والجدل يعرف بما يلزم الخصم فهو شبيه بما لدى المناطقة ، وأرى أنه حتى تلك الوجوه فقد خالف ابن تيمية فيها منهج السلف لأنه أحدا من المفسرين القدامى لم يفسر الحكمة والموعظة والجدل بتلك التأويلات التى تدنيها من الأقيسة العقلية ، وانى لأعجب كيف يدافع ابن تيمية عن بقاء الألفاظ القرآنية بعيدة عن المؤثرات المنطقية ثم هو يدنيها منها ، ويعقد أواصر قربى بينها من وجوه !!

ولكنى لا أعجب بل أقدر مسلكه الآخر فى نفس الموقف الذى يفصل فيه بين الألفاظ القرآنية والمصطلحات المنطقية الثلاثة أيضا ،

---

(٣٣) مجموع الفتاوى ج٢ ٤٢ ، ٤٤ .

وآقدر فيه نظرته العميقة القائمة على فروق حقيقية أهمها ما يلى :

أولا : ان التى فى القرآن تجمع بين العلم والعمل ، والخبر والطلب على أكمل الوجوه ، فالحكمة فى القرآن معرفة الحق وقوله والعمل به ، والموعظة الحسنة تجمع التصديق بالخبر والطاعة للأمر ، والجدل انما يكون من أجل التصديق والطاعة وذلك كله بخلاف الأقيسة المنطقية فانها لا تفيد الا مجرد اليقين بما هو نتيجة البرهان العقلى أو مجرد الاعتقاد والتصديق الذى هو بين اليقين والظن بما هو نتيجة البرهان المشهور أو المسلم ، أو مجرد الالزام فى حالة الجدل .

ثانيا : ان كلام الله لا يشتمل الا على ما هو حق ويقين ، واذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة أو مسلمة فلابد وأن تكون يقينية ، وأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة ، أو بمجرد كونها مشهورة وان لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله الذى كله حق وصدق ، ومن تلك الحقيقة فان جميع قضايا القرآن واستدلاله حق وصدق ، وذلك بخلاف الأقيسة المنطقية فانها حتى ولو كانت يقينية لا تفيد الا أمرا كليا لا يدل على شىء معين ، وتلك الكليات لا يوجد غالبها الا فى الأذهان لا فى الأعيان .

ثالثا : والقرآن فى حكمته وموعظته وجدله يخبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وعن الملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار ، وقصص الأنبياء السابقين ، والأخبار الماضية والمستقبلة مما لا سبيل الى الأقيسة المنطقية به اذ لا تحدثنا الا عن أمور كلية ذهنية فحسب ، ولا تستطيع الوصول الى ما ذكر من السمعيات أو الأخبار فى ماضيها ومستقبلها(٣٥) .

رابعها : واذا قلنا ان قضايا القرآن حق وصدق فاننا ينبغى

---

(٣٤) مجموع الفتاوى ج٢ ٤٤ — ٤٦

(٣٥) الرد على المنطقيين ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦

ألا نحكم عليها بعلم الآخرين بها أو عدم علمهم ، وتصديقهم لها أو تكذيبهم بها لأن كل مقدمة لها وصف ذاتى ، ووصف اضافى ، والوصف الذاتى لها أن تكون مطابقة فتكون صدقا ، أو لا تكون مطابقة فتكون كذبا ، وجميع مقدمات القرآن مطابقة فهى صدق ، فوصفها الذاتى الثابت لها هو كونها حقا وصدقا أبدا .

وأما الوصف الاضافى فهذا هو الذى يختلف باختلاف الأشخاص، فمنهم من يعلم القضية فى نفسه سواء كانت جلية أم خفية ، ومنهم من لا يعلمها حتى ولو كانت جلية ، فمن هذا الجانب الاضافى يقع للأفراد التصديق بالمقدمات أو عدم التصديق ، وذلك من جهتهم هم لا من جهة القضية القرآنية التى هى صدق فى ذاتها .

والنتيجة التى ينتهى اليها ابن تيمية فى هذا الصدد قوله : نزه الله وكلامه عما يوجد فى كلامهم من الطرق الذهنية فحسب أو الفاسدة فى ذاتها (٣٦) ، ويرد ابن قيم الجوزية تسمية الحكمة بالبرهان ، والموعظة بالخطابة والجدال بالتى هى أحسن بالقياس الجدلى قائلا [وهذا باطل ، وهو مبنى على أصول الفلسفة ، وهو مناف لأصول المسلمين ، وقواعد الدين] ويقول عن مثل هذا التفسير انه [ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ، ولا أحد من أئمة التفسير ، بل ولا من تفاسير المسلمين ، وهو تحريف لكلام الله تعالى ، وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والايمان (٣٧) حسب رأيه ، وأخيرا فكل ما قيل عن الحكمة والموعظة والجدل فى القرآن يجب أن يبقى كما فسره المفسرون السابقون ! وطبقا لما عرف فى اللغة ، أو روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو نقل عن التابعين ، وتابعيهم أو عن صادق العلماء وثقاتهم ممن لم يتأثروا بالفلسفة ، أو لم يروموا التشبه بأساليب المنطق ، وقد سبق أن قررنا ذلك سلفا .

---

(٣٦) مجموع الفتاوى ج٢ ٤٧

(٣٧) مفتاح دار السعادة ج١ ١٩٥ ، ٢١٧

الباب الثالث

مصطلحات الاستدلال

الفصل الأول

مفهوم الدليل ومنزلته

توطئـــة تبين المقصـــود :

أننا نعى تماما أن بعض الألفاظ قد نالت قسطا من البحث والذيوع والاشتهار بحيث لم يعد هنا مجال لاضافة شىء جـديد بالنســـبة لمفهومها على الأقل ، وقد اتضحت فى أذهان الجميع اتضاحا يجعـل من الصعب على من يتناولها أن يخوض فى كثير من مسائلها وخاصـة قضية التعريف ، وذلك لأن التعريفات تصير ضرورية اذا كانت اللفظة ما زالت بكرا لم يكشف الباحثون عنها النقاب كشفا يزيل لبسها ، أو تحدث عنها البعض وما زالت تقبل المزيد ، أو حدث فيها تطـــور ينبغى التنبيه عليه ، أو أن اللفظة قد عرفت فى ساحات علوم كثـيرة فهذا أمر يجعل دراستها تحصيل حاصل .

ولفظة الدليل من تلك الألفاظ التى بينهـا اللغـويون والفقهاء والأصوليون والمتكلمون والفلاسفة ، وتبدو أمام الأعين كأنها لا تتحمل اضافات ، لا سيما وأن تعريفاتها بلغت حدا من الكثرة جلعت الذوق العلمى يمـج أى زيادة على ما ألصـق بها ، وهى من الكلمات التى اتضحت حتى فى أذهان العامة ، وتبعا لذلك فمن حق أى انســـان أن يقول لمـاذا نعرف المعرف أو نوضح المبين ؟

وهذا حق ولكن عذرنا فى القاء الضوء على الكلمة من الناحيـة اللغوية والاصطلاحية يكمن فى أننا نريد أن ننظر فى استخدامها داخل البناء اللفظى القرآنى ، وهل هى مستخدمة بالمعنى اللغوى ، أو بمعنى اصطلاحى ؟ واذا كان فما هو المفهوم الذى ينطبق أو يقتـرب منهـا حال كونها بين آيات الله سبحانه ، رأيضا فاننا نبحث عن العلاقة بين الألفاظ الأربعة : الدليل والحجة والسلطان والبرهان ، وأيها أقوى من الآخر حسبما جاءت كلها فى كتاب الله جل جلاله ، ومعرفة الاستخدام لتلك الألفاظ بين الأساليب القرآنية ، والوقوف على الفروق بينها ، وأيها أدنى وأيها أرقى يستلزم المرور ولو سريعا على الوضع اللغوى ، والمفاهيم الاصطلاحية لتلك الألفاظ .

الدليل بحسب الوضع وملاحظاته :

تعتبر كلمة « دل » هى المـادة التى يشتق منها الدليل ، وهذا الجذر اللغوى يمتد الى عدة معان . وسوف نكتفى منها بما يتصـل بالمعروف من كلمة دليل ، والناظر فى كتب اللغة يجد بعض هذه المعانى المرتبطة بالمراد من مصطلح الدليل ، وأهمهـا : **الارشـاد** فيقال دل عليه ، ودل اليه دلالة ودلالة أرشده ، والدليل على هذا هو المرشد ، ومنها **السداد** : كما تقول دله على الطريق سدده اليه ، وكذلك **التعريف** بالشىء تقول أدل بالطريق عرفه ووضحه ، والدليل من هذا كله هو المرشد المعرف والموضح ويجمع على أدلة ، ومثله تماما «الدليلى والدليلة» . وتقول دلل على المسألة أقام الدليل عليها واستدل بالشىء على الشىء اتخذه دليلا عليه ، والدليل أيضا فاعل الدلالة ، ولهذا يقال لمـن يتقدم القوم فى الطريق دليل اذ كان يفعل من التقدم ما يسـتدلون به ، ويستعمل الدليل فى العبارة ، والامارة ولا يستعمل فى الشبه[1] ، وسوف نفرق بعد قليل بين الدليل والدلالة والعلامة وغير ذلك .

---

(١) القاموس المحيط ج٣ ٣٧٧ ، المعجم الوسيط ج١ ٢٩٤ ، والفروق فى اللغـة ، ٥٩ — ٦٠.

ونلاحظ على المــادة التى انبثقت منها كلمة الدليل وهى «دل» أنها لم تستعمل كثيرا فى الارشاد والسداد والتعاريف الخاصــة بمجال اثبات المعانى ، أى اثبات الأحـكام للأشـياء . وانما جـل اســتخدامها ان لم يكن كله فى اطار الدلالات الحســية والشــكلية كالطريق والصورة وحسن المنظر والسكينة ، وهيئة المرأة فى دلالها على زوجها ، وحركات الرأس وبعض الأعضاء فى المشى(٢) ، وبجانب هذه الوفرة الحســية ترد معانى الارشاد والســداد تعم ما هــو حسى وما هو معنوى ، وهذا الطابع لتلك المــادة يعطينا تفســيرا صحيحا عن قلة استخدام كلمة دليل فى القرآن الكريم الى حد أنهــا لم ترد سوى مرة واحدة فقط ، وهذا بعكس ألفاظ الحجة والســلطان والبرهان فقد جاءت على بابها من اثبات الدعاوى بكثرة كثيرة .

المعــانى الاصطلاحية وما يتعلق بهــا :

دخل مصطلح الدليل ساحات علوم كثيرة . وكان له مفهــوم خاص لدى أصحاب كل فن ، فهو عند الفقهاء مثلا [ما يمكن التوصــل بصحيح النظر فيه الى مطلوب خبرى] وعند المتكلمين [ما يمكــن التوصل به الى العلم بمطلوب خبرى] وهو يشمل القطعى والظنى ، وهو المعتبر عند أكثرهم ، والقطعى هو البرهان ، والظنى يسمى امارة ويقولون كذلك انه ان كان المطلوب تصورا سمى طريقه معرفا ، وان كان تصديقا سمى طريقه دليلا ، ويلزم من العلم بالدليل العــلم بوجود المــدلول ، ويرون ضرورة تحقيــق النســبة بين الدليــل والمدلول ايجابا كان أو سلبا من غير اعتبار وصف المدلولية ، وأحيانا يعرفونه بأنه [العلم بما يؤخذ من النظر فى وجه دلالته من المقدمات المرتبة مع سائر الشروط التى من جملتها التفطن لجهة الانتــاج وكيفية الاندراج] .

---

(٢) انظر القاموس المحيط .

والدليل فى نظر المناطقة هو [المقدمات المرتبة المنتجة للمطلوب] أو [قول مؤلف من قضايا يستلزم لذاته قولا آخر] والانتقال من المقدمات الى النتائج ان كان من كلى لكلى أو من كلى الى جـزئى فيسمى برهانا وقياسا ، وان كان من جزئى لكلى فهو اسـتقراء ، وان كان من جزئى لجزئى فهو تمثيل ، وليس للفلاسفة دليل مستقل ولكنهم فى الغالب يوافقون المناطقة • ويستخدمونه بمعنى مجمـوع الأقوال التى يؤدى تصديقها الى تصديق قول وراء هذا المجموع ، وربما صاغوه فى عبارة وجيزة قائلين [هو الذى يلزم من العـلم به علم بشىء آخر] وغالبا ما يقود الذهن الى التسليم بحقيقة قضـية كانت موضع شك من ذى قبـل •

وقد يرادف الدليل البرهان وذلك عندما يكون قياسا مركبـا من مقدمتين يقينيتين ، أو يرادف الحجة اذا كان معـلوما تصـديقيا موصلا الى مجهول تصديقى ، وفى الحالة التى يكون الدليل فيهـا مكونا من قضيتين يكون شبيها بالقياس أو مرادفا له •

ولكنه قد لا يتألف من قضايا فيكون أمارة ، أو ظاهرة معينـة ، أو شهادة شاهد ، فالدليل على هذا هو المرشد الى أمر ما بأى نحـو من أنحاء الارشاد ، فهو عام : قد يكون ضربا من الاستدلال ، وقـد يكون غير ذلك كالامارة أو الظاهرة الى آخره : وفى كل حالاته قـد يكون قطعيا ان انبنى على مقدمات يقينية ، وقد يكون ظنيـا كمـا سبق، وقد يكون عقليا ان كانت مقدماته جميعها عقلية ، أونقليا أن اعتمد كلية على السمع ، أو كانت بعض مقدماته عقلية وبعضها نقلية لتوقف العقلى على النقلى حسبما يرى فريق من المتكلمين(٣) •

---

(٣) شرح المقاصد ج١ ٩٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، والملا احمد فى حاشـيته على شرح العقائد العضدية والتهاونى ، كشاف اصطلاحات الفنـون ج١ ٤٩٢ — ٥٠٠ مادة دلالة والدال ، جميل صليبه المعجم الفلسفى ج١ ٥٦٤ ، والمعجم الفلسفى لمجمع اللغـة ٨٤ ، الاحمد نكرى دسـتور العلماء ج٢ ١٠٨ — ١٠٩ •

وفى النهاية يعرف الدليل عند الأطباء بالعلامة ، وعند المنجمين بالمزاعم ، فقد بان لنا كيف وجد الدليل بين مصطلحات علوم كثيرة ، وكان لكل منهم تعريف يخصهم من وجهة نظرهم وان تقاربت التعريفات عند التحقيق ، فانها فى مجموعها لا تخرج عن كون العلم بوجود شىء يلزم منه العلم بوجود شىء آخــر •

والعلم بوجود الشىء الأول أو السابق قد يكون عبارة عن أمارة حسية ، أو شهادة رجل ، وقد تكون مقدمات يقينية أو مظنــونة ، فكل ذلك علم بوجود شىء ، والشىء الثانى المترتب على الأول اما أن يكون مطلوبا خبريا أو غير ذلك •

والرابط بين العلم الأول والثانى هو اللزوم فلابد فى الدليــل من أن يكون مستلزما للمدلول ، فكل ما كان مستلزما لغيره أمكــن أن يستدل به عليه ، والتلازم قد يكون من الطرف الأول التى يستلزم الثانى ، والعلم به يقتضى على جهة اللزوم العلم بالثانى ، وقد يكون التلازم متبادلا أى محققا فى الطرفين معا ، واذا ما وجد على هذا النحو أمكن أن يستدل بكل منهما على الآخر . فنستدل بالأول عــلى الثانى وبالثانى على الأول كالتلازم بين النار والحريق ، فان رأينــا النار حكمنا بالحريق ، وان شاهدنا المحروق حكمنا بوجود نار ، يقول ابن تيميــــة •

[ان الحقيقة المعتبرة فى كل برهان ودليل فى العالم هو اللزوم ، فمن عرف أن هذا لازم لهذا استدل بالملزوم على اللازم وان لم يذكر لفظ اللزوم ولا تصور معنى هذا اللفظ ، بل من عرف أن كذا لابــد له من كذا ، أو أنه اذا كان كذا كان كذا ، وأمثال هذا فقد علم اللزوم ، كما يعرف أن كل ما فى الوجود فهو آية لله فانه مفتقر اليه محتــاج اليه لابد له منه فيلزم من وجوده وجود الصانع] •

وقد مثل للدليل وما يشتمل عليه من لـــزوم بقوله تعـــالى

[أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون] الطور ٣٥ — ٣٦.

والآية حصرت التقسيم فى أمرين : اما ان يكونوا خلقوا من غير خالق فهذا ممتنع فى بداهة العقول ، واما أن يكونوا قد خلقوا أنفسهم فهذا أشد امتناعا ، فعلم أنه يلزم من وجودهم الحادث وجود خالق قديم مبدع ، وذكر الدليل بصيغة الاستفهام ليبين أنها قضية فطرية بديهية ، لا يمكن انكارها ، ولا يمكن لصحيح النظر أن يقول هو أحدث نفسه(٤) ، فقد لزم من اعترافهم بأنهم مخلوقون وجود خالق ضرورة .

والدليل الشامل للعلم بالطرف الأول والثانى وما بينهما من لزوم يقتضى كذلك كون صاحبه عالما به ، فاذا لم نعلم الدليل أصلا لا نعلم المدلول فرعا ، واذا علمنا الدليل بوجهه الذى به يدل أمكننا أن نعلم لزوما المدلول ، قال القاضى عبد الجبار [لو لم يكن المرء عالما بالدليل على الوجه الذى يدل لم يولد نظره العلم ، ولا أمكنه اكتساب العلم] وعندما نعرفه بعلاماته أو بشروط نظره ، أو بمقدماته نعثر معه على المدلول لأنه [لما كان الدليل وجها يقتضى العلم لم يتصور العثور عليه الا مع العلم بالمدلول] والعثور على الدليل ، أو معرفته ، أو العلم به أمر ضرورى للوصول الى المدلول ، وهذا بين ، ولكن الدليل بكل ما فيه لا يتضمن المدلول ولكنه يتعلق به(٥) على جهة اللزوم كما أشرنا .

العموم والخصوص بين الدليل والمدلول :

قلنا لابد من التلازم بين الدليل والمدلول ، وأن العلاقة بينهما

---

(٤) الرد على المنطقيين ١٦٥ — ١٦٦ ، ٢٥٢ — ٢٥٣
(٥) شرح الأصول الخمسة ١٩٢ وانظر الجوينى الشامل فى أصول الدين ١٠٠ ، ١٠٧ .

ليست تضمنية فلا يتضمن الدليل المدلول ولكن يستلزمه ، واذا كان كذلك فما العلاقة بينهما بعد ذلك من ناحية العمـوم والخصـوص ؟ ولكى نجيب ينبغى أن نلحظ بدقة أن تلكالعلاقة تختلف بالنسبة للدليل مع المدلول ، وبعبارة أخرى تختلف بالنسبة للمدلول بمعنى الحكم ، وبالنسبة للمدلول بمعنى المحكوم عليه .

فبالنسبة للعلاقة بين الدليل والحكم فيجب أن يكون مساويا له أو أخص منه ليكون مستلزما لهذا الحكم ، ولا يكون أعم منه ، لأنه لوكان أعم لأمكن وجوده بدون الحكم فلايصلح أن يكون دليلا مستلزما له ، ولابد أن يكون أعم من المحكوم عليه أو مساويا له ليتناول جميع صور هذا المحكوم عليه ، ولو كان الدليل أخص من المدلول عليـه لكان دليلا على حكم بعضه لا على حكم كله .

وأما بالنسبة للعلاقة بين الحكم نفسه ودليله ، أو بين المدلول عليه بمعنى الحكم ودليله فيجب الا يكون المدلول عليه بمعنى الحكم أخص من الدليل بل يكون اما مساويا له أو أعـم منه ، وأن عنينـا بالمدلول عليه المحكوم عليه فهذا يجب أن يكون مساويا للدليل أو أخص منه ، ولا يكون أعم منه(٦) .

الدليل بين الألفاظ المشابهة من نفس المـادة :

الدليل هو ما مر من المعانى اللغوية والاصطلاحية ، وهو العنصر الرئيسى لاثبات المطلوب ، وقد قصد به المبالغـة فى الدلالة كعـالم وعليم ، وقادر وقدير ، ودال ودليل ، **والدال** من حصـل منه ذلـك الدليل أو الدلالة بأى شـكل من الأشكال ، **والمدلول** هـو النتيجة أو المطلوب ، أو ما يلزم من العلم بشىء آخر العلم به مثـل ثبوت الصانع أو البارى الذى يأتى نتيجة من وراء الدليل بالعالم أو النفس ،

---

(٦) انظر ابن تيمية الرد على المنطقيين .

والدلالة تطلق ويراد بها ما يمكن أن يستدل به قصد فاعله ذلك، أو لم يقصد مثل الأفعال المحكمة فانها تدل على علم فاعلها وان لم يقصد فاعلها الى ذلك ، وقد يراد بها العبارة ، كما تقول للمسئول، أعد دلالتك أى عبارتك ، **والأمارة والشبهة** مثل أمارة المخالف أو دلالته كذا ، وقد يراد بها دلالة الألفاظ على معانيها ، وكل ما يتوصل به الى معرفة ما مثل دلالة الاشارات والرموز والكتابة وغيرها •

وقد تسمى دليلا مجازا ، ومن ثم كان النظر فيها يوجب العلم ، وكانت مجالا للاستدلال ، واذا كانت بمعنى الدليل ، أو جاءت بمعنى مايمكن أن يستدل به ، أوكانت بأى معنى من معانيها فانها تمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها ، كالعالم فانه دلالة يمكن أن ننظر فيه فنستدل به على الخالق •

وأما وجه الدلالة : فهو فى دلالة العالم على الله مثلا ، أو دلالة الأنفس على باريها يعنى امكان العالم وحدوثه الذى هو سبب الاحتياج الى المؤثر ، أو هى الأمر الذى بواسطته ينتقل الذهن من الدليل الى المدلول بعد النظر ، **والاستدلال** يعنى فى اللغة طلب الدليل ، أو طلب الشىء من جهة غيره ، وهو فعل المستدل أيضا ، كما أنه عند الأصوليين من المتكلمين يطلق على اقامة الدليل مطلقا من نص أو اجماع أو غيرهما وعلى أى نوع من أنواع الأدلة •

والأمارة : تطلق على ما يؤدى النظر فيه الى غلبة الظن ، وتستعمل فيما كان عقليا وشرعيا ، وفيها معنى الظهور ، وقريب من معناها لفظة **العلامة** وتكون بمعنى اظهار الشىء بالأثر فيه وتكون بغير أثره الذى يوجد به ، وتكون العلامة مقصورة على من يعرفها ، ومن يشاركه فى تلك المعرفة ، ولهذا قد أعرف شيئا بعلامة لا يعرفه غيرى بها لأنها مختصة بى ، ولا تنتقل الى غيرى الا باخبارى له(٧) عنها •

---

(٧) المفردات ١٧١ ، الفروق فى اللغة ٥٩ — ٦٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٤٩٢ ، ٤٩٨ وشرح المقاصد ج١ ٧٣ — ٧٤ ، وشرح الأصول الخمسة

الاســتخدام القرآنى للفظة دليــل :

انما سقت ما سبق من المعانى اللغوية والاصطلاحية لنتبــين بدقة المعانى التى وردت بها الكلمة فى القرآن الكريم ، وعندما نسترجع تلك المعانى ونضع أمام أعيننا الآيات السبع التى وردت فيها كلمــة دليل وبعض مشتقات مادتها نجد أنها استخدمت فى ست منها بالمعنى اللغوى وفى واحدة فقط بما يقرب جدا من المعانى الاصطلاحية ٠

أما الآيات التى جاءت تعبــر عن الوضــع فهى قوله تعــالى [**اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله**] (٨) وقال الشيطان موسوسا لابينا [**يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**](٩) [**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد**](١٠) وجاء فى حق سيدنا سليمان [**فلما قضــينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته**] (١١) [**يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم**] (١٢) ٠

تلك هى الآيات الســت التى وردت فيها لفظــة أدل ، وندل ، ودل ، وغالبية المفسرين لم يلتفتوا الكلمة بالتفسير والشرح لا اهمالا ولكن اعتمادا على ظهور معناها ووضوحه ، فقد تركت كما تركت بقية الكلمات التى لا تحتاج الى بيان لشدة وضوحها ، ورسوخ معنــاها فى أذهان الخاصة والعامة ، لقد مر عليها الطبرى والكشاف والقمى والبيضاوى وابن كثير وغيرهم ولم يقفوا عندها جميعــها ، اللهــم الا القرطبى فانه قد تمهل قليلا عند آية سبأ فقال [هل ندلكم على

---

(٨) طه ٤٠ ونظيرها فى القصص ١٢ .

(٩) طــه ايضــا ١٢٠ .

(١٠) ســــبأ ٧

(١١) ســــبأ ١٤

(١٢) الصــف ١٠ .

رجل ينبئكم] أى [هل نرشدكم الى رجل](١٣) وعليه فيكون قد أشار الى ما تحتمله الآيات الأخرى من معنى ، وأنها تحمل نفس المفهوم وهو الارشاد ، والارشاد أحد المعانى اللغوية كما مر •

ولعل الآية الوحيدة التى استخدمت كلمة الدليل نصا ومفهوما هى آية الفرقان قال تعالى [**الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا**](١٤) والمعنى العام للآية يفيد أن الله مد الظل ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، ولو شاء لجعله دائما لا يزول ولكن الله نسخه بطلوع الشمس ، أو أن الله سبحانه خلق السماء قبة أولا فألقت ظلها على الأرض ، ولو شاء لجعله مستقرا على تلك الحالة ، ولكنه جلت حكمته خلق الشمس فبددت ذلك ، ومع أنها تنسخ الظل بعد طلوع الفجر ، أو أنها نسخت ظل السماء الا أن الله سبحانه يقبض ضوء الشمس قبضا خفيفا شيئا فشيئا •

وفى هذه الآية يكمن الدليل فى الشمس وضوئها ، وهو اما أن يكون بمعنى العلامة المحسوسة المشاهدة اذا فهمنا قوله سبحانه « **ألم تر الى ربك** » أى ألم تنظر بعين رأسك ، وطبقا لهذا الفهم يصير معنى كون الشمس دليلا أن الناس يستدلون بها فى أحوالها ومسيرها على أحوال الظل من كونه ثابتا فى مكان أو زائلا ومتسعا ومتقلصا ، فيبنون حاجتهم الى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك ، كما يبنون منافعهم على قبض الدليل شيئا فشيئا ، ولو قبضه الله دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا •

ان تفسير « **ألم تر** » بمعنى ألم تنظر بعينك لم يمنع دلالة الشمس من أن تفيد علوما أخرى لازمة للعلم بضوئها ، ومن ثم

---

(١٣) تفسير القرطبى ج١٤ ٢٦٢
(١٤) الفرقان ٤٥ — ٤٦

فالدليل هنا ولو أنه مشـــاهد بالعين كالعلامة الحسية التى تشـــاهد إلا أنه يترتب عليه من المعارف الذهنية ما لا يخفى ، ومن المنـــافع العمليـــة ما نلمسه دوما •

وتزداد العملية الاستدلالية تقدما اذا فسرنا « ألم تر » بمعنى ألم تعلم لأنه فى تلك الحالة تتوافر ادلينا الأركان • فيوجد الدليـــل وهو الشمس ، والمدلول عليه وهو الظل ، والحكم وهو نسخ الشمس عند طلوعها لهذا الظل وبيان أنه خلق من خلق الله يوجده اذا شاء ، ويفنيه اذا أراد كما يصرح الطبرى •

والدلالة هى كون الظل شيا ومعنى حادثا ، اذا لو لم يكن الدليل وهو الشمس التى تنسخه لم يعلم أنه شىء اذ كانت الأشـــياء انمـــا تعرف بأضدادها ، وشرط التلازم متحقق فى كل من الظل والشـــمس طالمـــا أنهما متضادان ، فاذا وجدت الشمس نسخت الظل ، واذا جاء الظل قبضت الشمس قبضا يسيرا • وبهذه الأركان كلها صح الدليل ، وسلم أن تكون الشمس حجـــة وبرهانا تكشـــف المشكل من الظـــل وتوضحه ، حسبما يؤكد القرطبى[١٥] •

ولكننا نلاحظ على سوق الدليل أن عملية التلازم التى هى شرط ضرورى فى احداث علم جديد من علم سابق ، وفى ترتب شىء عـــلى شىء لا تتم بمجرد العمليات الذهنية ، ولا تعتبـــر لزوما عقليـــا ، ولا تخضع للتوليد الطبيعى وانما ينبه الله سبحانه أن أى تلازم بين ظاهرتين كونيتين يبنى عليه العقل أحكامه انما هو ناشىء من قـــدرة الله وابداعه ، وليس من حركة الطبيعة وجريانها بعيدة عن ارادة الله ومشيئته ، انه سبحانه هو الذى أنشأ المدلول عليه ، وخلق الدليل ، ورتب التلازم بينهما ، أى جعل هذا سببا فى احداث هذا أو تغيـــيره

---

(١٥) انظر تفســـير الطبرى ج١٩ ١٢ — ١٣ والكشاف ج٣ ٩٩ ، وتفسير القرطبى ج١٣ ٣٧ وتفسير البيضاوى ج٤ ٩٥ — ٩٦

وزواله ، وبتدخل القدرة فى كل شىء نستطيع بأدنى سهولة أن نستخرج الحكم وهو أن كل متغير مخلوق ، على أن تلك النتيجة لم يتركها الله لنا بل نبهنا اليها كثيرا جدا ، كما نبهنا على المنافع العملية التى نحصل عليها من وراء التلازم بين الأشياء .

وبناء على هذا فالقرآن يشير فى هذه الآية النى وردت كلمة الدليل فيها كما يشير فى كثير من الآيات التى صحت أن تكون أدلة وأن لم ترد فيها تلك الكلمة أن مواد الاستدلال كلها من دليل ومدلول عليه وحكم وتلازم ودلالة كلها خلق من خلق الله ، ومسندة اليه جل جلاله ، وأن تلك الأدلة الكثيرة المسوقة فى كتابه سبحانه تغدق علينا معارف نظرية كما تعطينا كثيرا من المنافع العملية ، فقد أفادت الأدلة علما نظريا ، وعلما عمليا يتعلق بسلوكنا وطاعتنا ، ، أو بحاجاتنا الدنيوية ومعايشنا فيها ، وهذه الفوائد بالقطع لا صلة للاستدلال المنطقى بها لأنه لا يهتم الا بما هو ذهنى فحسب .

على أننا نقول ان هذا التصور الذهنى قاصر فى أمور كثيرة ، أهمها أنه قد لا يصدق تماما فى عملية التلازم ، وربما تكون مظنونة لكن القرآن الكريم حينما يبين التلازم بين أجزاء الدليل ، أو بين شىء وشىء انما ينبنى صدق التلازم على حقيقتين : أولاهما من ناحية الاخبار الالهى ذاته ، فالله هو الذى يخبرنا بالتلازم أو السببية وهو حق لا يصدر عنه الا حق ، وثانيهما : أنه لا يكتفى بمجرد الاخبار ، وهو كاف ولكنه يفتح أعيننا وأذهاننا وجميع ملكاتنا على الأشياء لنحس وندرك عملية التلازم وهى تتم وتسرى ، وبذا نجمع فى صدق الدليل بين اخبار الله لنا عن صدقه ، وهو طريق ضرورى لأننا لا نستطيع ادراك التلازم والسببية فى كل مظاهر هذه الحياة ، وبين التحقق من صدق القول بتجاربنا الحسية أو قدرتنا العقلية .

هذا بالاضافة الى أن العقل حينما يدلل يحكم على التلازم بين القضايا على أنه أمر عقلى ، والعقل وحده هو الذى يقضى بالتلازم

بين الأشياء ، أو بوجود علاقات سببية ، ثم نراه بعد ذلك ينتقل من هذا التلازم العقلى الى اثبات حكم وراء مواد القضايا التى استخدمها ، أى أن قضاياه غالبا ما تكون مرتبطة بامكان العالم أو حدوثه وتغيره ، وأحكامه تثبت لله أمورا وراء العالم الذى اشتقت منه تلك القضايا ، وليس هذا محل الشاهد ، ولكن الشاهد هو أن العقل يحكم بقدرته على التلازم بين التغير والحدوث مثلا دون رجوع الى شىء آخر غير العقل ، وهذا الحكم فى حد ذاته قد يدفع كثيرا من المنكرين الى الوقوف عند هذا التلازم ويرونه طبيعيا ناشئا من الطبيعة ذاتها ، وأنها ستظل كذلك فلا داعى أن تستند الى تلك الفكرة فى الصعود الى ما فوقها •

وهذا بخلاف الدليل القرآنى فانه كما ترى يحدثك عن الظاهرة موضوع الدليل ، ويحكى لك قصة أجزائها جزء جزء ، وأن الجزء الأول صفته كذا وأنه مخلوق ، ولو ترك على حالة لترتب على ذلك أمور معينة نحن نلمسها بحسنا ومشاهداتنا ، وخذ مثلا الظل فى الآية فان الله سبحانه قدبين أنه هو الذى مده ابتداء ، ومده فى حد ذاته جميل لأننا نحتاجه ، ولكن حاجتنا اليه لا يمكن أن تجوز بقاءه أبدا بل هى حاجة موقوتة فلابد من أن يتغير الظل وينسخ ، كيف ينسخ ؟ هنا تتدخل القدرة فى احداث جزء آخر وكائن آخر هو الشمس نحن نحتاج اليها هى الأخرى ولكن لا بصفة دائمة ، من ثم فهى تنسخ وجود الجزء الأول الذى هو الظل فى الأوقات التى لا نكون محتاجين اليه فيها ، وتأتى هى فى الأوقات التى نحتاج اليها ، ثم يقبضها الله بعد أن تكون حاجتنا اليها قد أشبعت ، وخلال الحديث عن طبائع أجزاء الدليل من ظل وشمس وما يترتب عليهما من منافع لنا يتحدث عن التلازم بينهما وأنه مخلوق شأنه شأن عموم الأطراف ، والنتيجة أنه ما دامت جميع أجزاء الاستدلال مخلوقة فلابد لها من خالق ، والله يصرح بذلك فى كل عبارة ، وفى كل مرحلة ، فليس هناك أى ثغرة يمكن أن يتدخل

فيها العقل لينفذ منها الى نقض الدليل بوجود خلل فيـه أو تعارض فى أجـزاء منـه .

وكذلك فان التواءم والتوافق يتم بصـورة بديعة فى أدلة القرآن الكريم الى حد أننا لا نسـتطيع ابطال الدليل بالتركيز على ابطـال قضية منه لوجود تعارض أو بعد بينها وبين غيرها ، والتوافق لا يتـم بصـورة عقليـة فحسب بل بصورة جمالية أيضا .

أنظر مثلا الأية التى معنا ، انها تكون دليلا فى الوقت الذى تكون فيه مقطوعة أدبية وجمالية فائقة فى التصوير والابداع .

وفى معظم الأدلة تسوق الآيات ما تريده من الاثـبات قبل أن تسوق الدليل ذاته كما ترى هنا فى الآية « ألم تر الى ربك » فتذكر الرب ثم تسـوق بعد ذلك دلائل قـدرته وابداعه ، وأحيانا تقـول « الله الذى خلق » أو هو الذى خلق وغير ذلك ، واذا أخذنا نشرح طريقة القرآن فى الاستدلال وتفوقها لطال بنا المقام فلله فى كل آية ودليل حكم دقيقة تجل عن قدرة مثلى .

القـرآن مصـدر الاستدلال :

لهذه المميزات نقول لابد من اللجوء الى القرآن الكـريم فى الاستدلال ، وأن نعتبره المصدر الرئيسى فى تلك العملية سواء أراد الناظر أدلة مطلقة من غير تعيـين مطلوب ، أم حـدد مطلوبا معينا ، فالقرآن هو الدليل الهادى الذى يفيد العلم . ويوصل الى الهدى ، ويحقق الانتفاع بالعلم والهداية ، وأدلته هى التى تحمـل العـلم المفصل الذى يزيد الايمان وينميه ، يقول جندب بن عبد الله البجلى [تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا] ، واذا ما نظـر الناظر فى الدليل الهادى بين أدلة القرآن وأخطأ فهذا منه لا من تلك الأدلة ويكون الناظر هو الذى أخطأ مقصود الدليل لا أن الدليـل نفسه هو الذى لم يوصل الى الهدى ، فكل دليل صـحيح فى ذاته ،

صادق فى حكمه ، يهدى الى المطلوب ، والناظر اما أن يكتشف ذلك بصحيح نظره ، وسلامة آلاته ، واما ألا يكتشف المطلوب لخلل فيه وفى طريقته وآلاته ، ويستحيل أن يكون الخلل من نفس دليل الحق سبحانه •

وهذا بخلاف الناظر فى الأدلة العقلية فانه يقع فى أخطاء تتصل بالدليل ذاته عندما يحسبه الناظر صحيحا وهو فاسد ، أو حقا وهو باطل[١٦] ، أو لا يعرف ما يدله على المطلوب ، فيتخبط بين أدلة متعددة ، ويتردى بين شبه ربما يعدها أدلة وهى ليست كذلك ، وقد يكون الخطأ راجعا الى قصور فى المستدل وطريقته ، وما دام الأمر كذلك فاللجوء الى أدلة صحيحة صادقة من كتاب الله أولى وأوجب ، وعلى الناظر أن يتروى أثناء نظره ، وأن يتبين مواضع الكلم بجودة وأن يكون صافى القلب ، نقى الخاطر كى يشع دليل القرآن عليه مما يحمل من علم وهداية •

قيمة الدليل فى الاقناع :

مر بنا المعانى اللغوية والاصطلاحية لهذه اللفظة التى تحت أيدينا ، ونظرا لأنها وجدت فى القرآن الكريم مع غيرها من الحجة والسلطان والبرهان فيهمنا الآن أن نعرف مركزها بالنسبة للاقناع ثم مكانتها مع غيرها من الألفاظ المذكورة •

وتتحدد تلك المنزلة وهذه المكانة من خلال مفاهيم الدليل ، ومن خلال نظرة القرآن اليه ، أما بالنسبة للمفاهيم فاننا نراه قد يستخدم مرادفا للقياس فيؤلف من قضيتين يلزم عنهما لذاتهما مطلوب نظرى ، واطلاقه بهذا المعنى قليل ، وقد يرادف الحجة ان جاء فى صور معلوم تصديقى يوصل الى مجهول تصديقى ، وأحيانا يرادف البرهان أن

---

(١٦) ابن تيمية مجموع الفتاوى ج٢ ٥٩ ، ج٤ ٢٦ — ٢٨

متركب من مقدمتين يقينيتين(١٧) ، ويبدو أن استخدامه بتلك الصـور ليس غالبا ، وفى الحالات التى يأتى فيها يفيد اليقين ، ويكون استدلالا .

ومع احتمال وروده بها قليـلا أو كثيرا فالشيء المقطوع به أن مصطلح الدليل عام يشـمل الامارة والعلامة الحسية والظـاهرة المعينة ، وشـهادة الشاهد ، وفى مثل تلك الحالات يكون مفيدا للظن حسب آراء الاصطلاحيين أنفسهم ، ولا شك أنه يختلف من تلـك الجهات عن القياس والبرهان والحجة (١٨) فهو أدنى .

وتأكيدا على دنو منزلته عن الحجـة والسـلطان والبرهان فى المنهجية القرآنية نجد أن وروده بين آيات الكتاب بصريح اللفظ الدال على الحجية أدنى بكثير جدا من الألفاظ الثلاث الواردة ، حيث لم ترد لفظته الا مرة واحدة كما أشرنا سلفا ، وكذلك فلم نسمع القرآن يطالب المنكرين بأن يأتوا بدليل كما طالبهم بتقديم السلطان أو البرهان ، أى لم يقل لهم « فأتوا بدليل » كما قال لهم « أم لكم سلطان مبين » أو « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » واذا كنا نعلم أن القرآن عندما يطالب بتقديم الأسانيد انما يطلب أقواها صيغة ، وأعمقهـا حجية ولم يجعل الدليل بين طلباته ازاء المعاندين فهذا يعنى ضـعف مستوى الدليل عما سواه صيغة واحتجاجا .

ولهذا جعلنـاه فى أول درجة من درجات المفاهيم والمصطلحات الخاصة بالاستدلال ، ولم نجعله قمة من قممها ، ولا فى أعلى منزلة لها، انه بداية وليس نهاية ، وانه محاولة أولى وليس المحاولة الراقية .

---

(١٧) الأحمد نكرى دستور العلمـاء ج٢ ٢٠٨ .

(١٨) شرح المقاصد ج١ ٩٢ ، مجمع اللغـة المعجم الفلسفى ٨٤ ، جميل صليبا ج١ ٥٦٥ .

الفصل الثانى

الحجة ومكانتها

ما ترمى اليه الكلمة لغــة :

تدور المــادة وهى « حج » حول معنيين رئيسيين :

المعنى الأول : يرتبط بالأمور المحسوسة ، وفيه تأتى معــانى القصد ، وكثرة التردد ، وتطلق بعض مشتقات الكلمــة على الناحية أو حرف الشىء ونهايته ، كما تطلق على شحمة الأذن ، فيقال حــج البيت قصده ، وحج بنو فلان فلانا أكثروا التردد ، والحاجة شحمة الأذن ، والحجاج من كل شىء حرفه وناحيته وعظم الحاجب •

والمعنى الثانى : هو عرفانى بحت ، وتتجه الكلمة فيه الى السبر لمعرفة الغور والبعد ، فاذا قلنا حج الجرح فمعناه سـبره ليعرف عمقه ليرتب على ذلك كيفية العلاج ، كما تتجه الى مغالبة الخصــوم ومجادلتهم ، واقامة الحجة عليهم لاثبات أمر أو نفيه ، وفى هذا الاتجاه تأتى المــادة بمعنى المجادلة ، فيقال : حاجه محاجه جادله وتحــاجوا تجادلوا ، والمحجاج الذى يكثر الجدل ، والحجة بمعنى الدليل والبرهان، والمحجة الطريق المستقيم ، ومن تفوق فى هذا المضمار قيل حجة أى

غليه وأقام عليه الحجة فقطعه بها (١) .

ونلاحظ أن المعنيين غير منفصلين ، لأنها ان اتجهت الى الأمور المحسوسة كالبيت ، وبعض الأفراد أفادت معرفة ، فمن قصد البيت حاجا نال معارف ومنافع كثيرة ، ومن تردد على شخص بكثرة خبره وعرفه بدقة ، وأيضا فانها فى شعبتها العرفانية من السبر والمجادلة واقامة البرهان تحتاج فى ذلك الى معنى القصد وكثرة التردد ، لأننى لا أجادل ولا أغالب ولا أصوغ دليلا بدون نية سابقة لدى تدفعنى على قول شيء والاتجاه اليه بالقول والجدل ، أو الاستدلال والبرهان، وقد يضطرنى الخصم المعاند ، أو المستمع بصفة عامة الى كثرة الترديد لما أقول ، أو كثرة تنويع الحجج ليفحم ان كان مجادلا ، أو يفهم ويقتنع ان كان مستمعا .

والمدقق فى المعانى اللغوية للكلمة يجد أن الحجة ليست حالة واحدة ثابتة ، ولكنها تتدرج من مطلق القصد الى التردد والاكثار ، الى السبر والتعمق ، الى الاحتجاج والبرهنة ، الى الوضوح فى الحجة والاستقامة على طريق محدد ، الى التثبت من كل ما وصل اليه حتى ليقال للعالم الثبت حجة فى تخصصه ، أو هو حجة فى علم الحديث ان أحاط بثلاثمائة ألف حديث علما ومتنا واسنادا ، وقس على درجة الحجة عند المحدثين كل حجة فى أى علم آخر .

ولا أدعى أن هذا التدرج يوجد لدى كل من يحتج على خصمه ، أو يدبج حجة ليعارض بها شخصا آخر أو يرد رأيه ، أو يثبت بها لنفسه رأيا أو حكما ، ولكن هذا ما ينبغى أن يكون عليه خط سير الحجة كى تصل الى مرحلة تكون فيها بينة وواضحة ، الا أن بعض

---

(١) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ج١ ١٨٢ ؛ والمعجم الوسيط ج١ ١٥٦ — ١٥٧ والمفردات للراغب : ١٠٧ — ١٠٨ ، وتفسير الفخر الرازى ج٤ ١٣٩ — ١٤٠ ج٧ ٢٢

المحتجين أو المجادلين لا يسلكون نفس طـريق الترقى هـذا ولكن ينحرفون فى مسالكهم فتكون حجتهم داحضة وباطلة ، وبناء على كل هذا فتكون الحجة بمعنى المجادلة ، وبمعنى البرهان والدليل وتكون بينة ، والحجة قد تكون باطلة ، واطلاق الحجة على البرهان الصحيح اطلاق حقيقى واطلاقها على ما هو باطل مجازى ، وعن قريب سوف نرى سويا أن القرآن الكريم يستخدمها بحسب هذه المعـانى الثلاثة الواردة فى اللغــة •

أضــواء على المفاهيم الاصــطلاحية :

انما قلنا أضواء على المعانى التى اصطلحوا عليها لأننا لا نجـد لها تعريفا وحدا محددا ، ولا حتى تعريفين أو ثلاثة انما تجد لها عدة تعريفات تقترب وتتباعد فى تحديدها ، ولا تختلف فى غايتها ، فكل الأقوال الواردة فى بيان مفهومها ترمى الى اثبات شىء أو نقض شىء •

ولا بأس من التجول قليلا بين الأقوال المعـرفة لها لنتبـين اختلافها الى حد ما ، يقول الحسن البصرى : الحجة هى [الكـلام المستقيم على الاطلاق](٢) ، ويرى أبو هلال العسكرى أنها [الاستقامة فى النظر ، والمضى فيه على سنن مستقيم من رد الفرع الى الأصل](٣) وتاثيرها فى النفس كتأثير البرهان فيها ، وأما التهانوى فيقول [هى التى يلزم من التصديق بها التصديق بشىء آخر] وتكون الزامية ان كانت مركبة من مقدمات مسلمة عند الخصم ، وسميت بذلك لأنها تلزمه وتسكته ، ولا تزول صفة الالزام عنها حتى ولو لم تكن تلك المقدمات صادقة فى نفس الأمر ، لأن المعتبر فى الالزام الاصطلاحى والعقلى هو اخراس الخصم واسكاته (٤) وهذا فى الحجة العقليـة لا النقـلية كمـا سـيأتى •

---

(٢) تفسير القرطبى ج٢ ٤   (٣) الفـروق : ٦١

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون ج٢ ١٥٠ ج ٢٨٤

والقاضي الأحمد نكرى أحيانا يكرر عبارة التهاونى السابقة فيقرر أن الحجة هى : [معلوم تصديقى موصل الى مجهول تصديقى] وأحيانا يجمل الكلام ويختصره فيقول انها فى الاصطلاح المنطقى تعنى: [الموصل الى التصديق] سواء كان دليلا أو سلطانا أو برهانا فهى مرادفة لتلك الألفاظ الثلاثة ، وسمى الموصل الى التصديق حجة لأنه سبب الغلبة من باب تسمية السبب باسم المسبب ، والموصل الى التصديق يكون قياسا أو استقراء أو تمثيلا كذلك(٥) .

وفى المعجم الفلسفى لجميل صليبا أنها تعنى [الاستدلال على صدق الدعوى أو كذبها وهى مرادفة للدليل] ويستشهد برأى ابن سينا فى قوله : انه قد جرت العادة بأن يسمى الشىء الموصل الى التصديق حجة فمنه قياس ومنه استقراء وهى نفس تعريفات التهاونى كما أشرنا وقد يقال انها البينة ومنها قولهم البينة على المدعى ، وهذا يؤدى الى أن عبء الاثبات يقع على المدعى لا على المنكر (٦) .

وفى معجم فلسفى آخر يقولون فيه هى [ما يراد به اثبات أمر أو نقضه] (٧) وبهذا تكون الحجة من المدعى والمنكر على حد سواء ، وأخيرا يرى ابن نجم الحنبلى أن الحجة عبارة عن دليل الدعوى ، وقد تطلق على الشبهة لكونها مستند المخالفة ، وتكون حقيقة فى الدليل مجازا فى الشبهة (٨) .

وبالنظر فى هذه التعريفات نجد أنها تقوم على اعتبارات ثلاثة :

الاعتبار الأول يرتكز على اللغة ، وأنها تفسر الحجة بالاستقامة ، ولا يعتد أنصار هذا الاتجاه فى الاحتجاج إلا بالحجة المستقيمة ، وتخرج الباطلة عن التسمية الحقيقية ، والمفهوم الحقيقى لهذه اللفظة ،

---

(٥) دستور العلماء ج٢ ١٤ ، ١٠٨
(٦) المعجم ج١ ٤٤٥ — ٤٤٦
(٧) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى ٦٧
(٨) كتاب استخراج الجدل ٨٢

ويظهر هذا الاتجاه عند الحسن وأبى هلال ، ويضاف الى ذلك أن أباهلال بالذات لم يشر الى الحجة باعتبارها حكما يقدم لاثبات شىء أو ابطاله ، انما أشار اليها على أنها طريق النظر ، والاستقامة فيه ، وما ينبغى أن يكون عليه النظر من شرائط الدقة ، واحالة الفروع على الأصول ، وأظن أن طريق النظر وضروراته شىء والذى يتوصل اليه من وراء هذا النظر المنضبط شىء آخر •

والاعتبار الثانى ينظر الى الحجة على أنها لفظة رديفة للدليل والسلطان والبرهان ، وكلها تعنى وجود معلوم تصديقى نتوصل به الى مجهول تصديقى ، سواء كان ذلك قياسا أم استقراء أم تمثيلا ، وهذا الاتجاه فى تفسير معنى الحجة هو مايتمسك به المناطقة والفلاسفة ، وغالبا ما يشترطون فيها أن تكون بينــة ، ولا يطلقونها أيضا على الشــبهة اللهم الا اذا استثنينا ابن نجم الحنبلى فانه يسمى الشــبهة حجة من قبيل المجاز •

وأما الاعتبار الثالث فيرى أن الحجة عامة تشمل ما هو استدلال وما هو غيره كشهادة الشاهد والقرائن والعلامات والأخبار ، وفى تلك الحالة هى مرادفة للدليل بمعناه العام أيضا ، وذلك حسبما بينا سلفا معانى الدليل ، فهى ترادفه بمعنى القيــاس كما فى الاعتبار الثانى ، وبالمعنى العام كما فى الثالث ، وسوف يكون لنا حكم فى تلك المسألة ، وهل الحجــة غير الدليل أولا عندما نتناول الحجــة من حيث تقديرها ومنزلتها فى نفسها وفى غيرها •

الحجة باعتبار المصدر والمخاطب :

الحجة أما أن تستند الى أمور ومقدمات نصبها الله سبحانه وأقامها أو علمها لأحد فنقول باعتبار مصدرها هذا حجة الله ، ودلالة الله ، وأما أن كان مصدرها النظر الذى يفضى الى العلم من غير افتقار الى أن ينصبها ناصب(٩) فنقول فيها حجــة العقل ودلالة العقل ، فانقسمت الحجة

---

(٩) الفـــروق ٦١ .

باعتبار المصدر الى حجة الهية ، وحجة عقلية ، وأما بالنظر الى الشخص الذى نخاطبه فتتنوع الى ثلاثة أنواع :

حجة شخصية ، وتوجه الى قول الشخص نفسه لافحامه ، وتنصرف عن الوقائع الثابتة ، وتوجه الى النيل من الشخص نفسه ، والى التصدى للخصم ، اما لوقوعه فى الخطأ أو التناقض ، أو لأن المحتج رأى أن يصوب سهامه الى أحد جوانبه الخاصة ، أو لمذهبه المعين ، وهى من تلك الزوايا تقابل الحجة التى تسمى بالموضوعية .

وهذا بخلاف الحجة التى تركز على الموضوع ذاته ، فانها تتجه الى صميم الموضوع ، وتدخل فى أعماقه ، وتتناوله بالرد أو التأييد ، وتسمى طبعا بالحجة الموضوعية .

وهناك نوع ثالث يسمى بالغوغائية ، وهى تلك التى تحاول أن تؤثر فى مشاعر الناس ، وأن تكسب تأييدهم ، وذلك بمخاطبة مواطن الضعف العاطفية لديهم ، وتتجنب النظر الى الوقائع الثابتة والأسس المعقولة المقبولة لدى الناس جميعا[10] .

ماذا تعنى الكلمة فى البنـاء القرآنى :

وردت اللفظة بين آيات الله قرابة عشرين مرة[11] ، وعلى الرغم من كثرة العدد عما ورد فى كلمة دليل الا أننا نرى الدليل سار فى خط واحد ، وهو طريق الارشاد والنصح أو الاستدلال ، أما لفظة الحجة فانها قد تعددت مسالكها ، فأحيانا تأتى بمعنى الجدل والمخاصـمة والغلبة ، وأخرى بمعنى الحجة الفاسدة الباطلة ، وثالثة هى الحجة

---

(١٠) مجمع اللغـة ، المعجم الفلسفى ٦٨

(١١) ومنهـا فى سـورة البقـرة الآيات ٧٦ ، ٨٧ ، ١٣٩ ، ١٥٠ ، ٢٥٨ ، آل عمران ٢٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٣ : النساء ١٦٥ ، الأنعام ٨٠ ، ٨٣ ، ١٤٩ ، الشورى ١٥ ، ١٦ غافر ٤٧

البينة الواضحة ، وهذا يعنى أن الكلمة سلكت الطريق اللغوى بكل ما فيه •

واطلاقها على الجدل ، وعلى الشبهة الفاسدة هو الذى جعلنا نضعها عقب الدليل فى الدرجة الثانية من عمليات الاثبات ، وننزلها عن مكانة السلطان والبرهان ، هذا مع أن لفظة الحجة يبدو براقا وجذابا ، وقد يدفع البعض لأن يضعه فرق قمة الأدلة ، ولكن الأمر كما ترى من اطلاقها على المخاصمة والشبه ، وهذا فى حد ذاته لا يعطيها حق الصعود أكثر مما وضعناها له فى الدرجة الثانية ، واذا صح أن الله قد أعطى الحجة لابراهيم ، ووصفها بأنها بالغة فهذا بالنسبة لحجج الخصوم وأسانيدهم لا بالنسبة لأدلة أخرى كالسلطان والبرهان •

ولا بأس من التجول قليلا مع اللفظة فى مسالكها التى أشرنا اليها •

الحجة بمعنى المخاصمة :

لا نكون مبالغين اذا قلنا ان أكثر استعمالات كلمة الحجة قد وردت فى هذا السياق ، وجاءت تعنى المغالبة والمجادلة ، وانبنت المخاصمة فى هذا الاتجاه على الغرور ، وادعاء ما ليس من حق الخصم ، أو التعالى بما أعطى من فضل ونعمة ، نرى ذلك عند النمرود فى محاجته لابراهيم ، ولا نتعرض هنا لتفصيل الحاجة بقدر ما نشير الى صدر الآية الذى حمل سبب المجادلة يقول سبحانه **[ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك]**(١٢) •

ان غرور الملك ، وبطره قد دفعه الى المخاصمة مع أن الأولى والأوجب أن يكون ايتاء الملك سببا فى الشكر لا العناد ، وموقفه هذا

---

(١٢) البقرة ٢٥٨ •

قد عرضه لأن يكون أنفه من أن يذكر فى الآية الكريمة ، ومن ثم حذفه الحق جل جلاله ورمز اليه باسم الموصول .

ونفس الدافع ، وهو الغرور المبنى على وجود النعمة نراه فى محاجة أهل الكتاب للنبى صلى الله عليه وسلم زاعمين أن الله لو اصطفى نبيا لاصطفاه منهم ، وأنهم أولى الناس بابراهيم .

[قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم](١٣) ويقول جل شأنه [يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوارة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون](١٤) .

ان منطق الغرور لدى هؤلاء يدعى أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أسبق دينا ، وأقدم كتبا فلوصح بناء على هذا فى نظرهم أن اختار نبيا لاختاره من بينهم ، وبلغ بهم الصلف مع ذلك أن يدعوا أن ابراهيم كان يهوديا وأنه ينتمى الى دينهم ، هذا منطقهم العنادى والمخاصم ، وهذه نفسهم الحاسدة والحاقدة ، فماذا كان من رد القرآن عليهم ؟

انه على الرغم من ظهور الاستكبار والغرور وجحود النعمة ، وانكار الحقيقة التى يعرفونها من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن تقدم ابراهيم على دينهم ، وهذا كله يمكن أن يطبع الرد عليهم بالشدة والقسوة والتهديد والتعنيف لكننا نجد رد القرآن جاء هادئا ومقنعا الى أبعد الحدود ، وجاء يرد بعقلانية فائقة لعلهم يفيئون الى رشدهم ويعترفون بالحق ، وأيضا ليفرق القرآن بين أساليب الخصوم الجهال المستكبرين والمتعنتين وبين طريقة أصحاب الحق فى اعتدالهم ونصفتهم ومحاولتهم اقناع هؤلاء وجذبهم الى الحق ، وبيان

---

(١٣) نفس السورة ١٣٩
(١٤) آل عمران ٦٥

أن دعاة الحقيقة لا ينبغى أن يستثاروا من موقف المنكرين وردودهم، وعلى من يتصدى للاقناع فى ساحة الجدال نصرة للحق أن يتسم بالهدوء وعدم الاثارة ، وأن يخاطب ، عقل الخصم فى لين وهدوء ، وأن يبحث عن كل نقطة يمكن أن تخفف أو تهدىء من غلواء المجادل وصلفه •

ولهذا كله يجىء رد القرآن هاديا ومرشدا يقول لهم : اتجادلوننا فى دين الله والقرب منه ، والحظوة عنده وتجاذبوننا الحجة على دعواكم والحال أن الله هو ربنا وربكم(١٥) ، فانتم ام تنفردوا بربوبيته وحدكم ، ولم تقروا بها دوننا ، ولسنا ندين برب سواه حتى تزعموا أنكم اختصصتم بربوبية الاله الحق ونحن نأينا عن ذلك ، كلا اننا جميعا ندين باله واحد ، ونعتقده ، ولا يحق لطرف أن يدعى منزلة وقربى لديه دون سند ودليل ، وما دام هو رب الجميع فليختر لرسالته من يشاء ، فهو أعلم بمن يصطفى ، وعلى كل فاذا لم تستجيبوا لتلك الحقيقة فانتظروا فان لنا أعمالنا ولكم أعمالكم •

وتلاحظ أن الله جل شأنه قدم فى السياق ، ربوبيته للمؤمنين على ربوبيته لأهل الكتاب ، وأعمال المؤمنين على أعمال أهل الكتاب ليشير دون تصريح الى عكس دعواهم وهو أن الله رب المؤمنين أولا وأعمالهم تسبق أعمال غيرهم ، وذلك لكونهم آمنوا به على حق وآمنوا بجميع رسله وأخلصوا له العمل ، ولم يدعوا منازل تقربهم الى الله الا ما أخبرهم بها مولاهم عز وجل •

وبنفس منطق الهدوء المتزن جدا يقول لهم فى الموقف الآخر : انكم تدعون أن ابراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، فهل هذا صحيح مع

---

(١٥) الكشاف ج١ ٩٨ ، ١٩٤ ، وتفسير القرطبى ج٢ ١٤٥ وانظر ج٤ ١٠٨ وتفسير البيضاوى ج٢ ٢٣ — ٢٤ وتفسير الزمخشرى ج٨ ٨٨—٨٩ وروح المعانى ج٢ ١٩٥

أن التوراة والانجيل جاءا بعده ؟ ان ادعاءهم بانتماء سـيدنا ابراهيم الى دينهم شديد البطلان ، وواضح التهافت ، وكان من الممكن ازاء هذا أن يأتى الحديث عنيفا قاسيا ، ولكنه جاء على النحو الذى رأينـاه يحاول بكل اتزان وهدوء وبداهة أن يعيد العقول الى صوابها ، ويرجعها الى رشدها ، والى ما نقرر لديها من بداهة ظاهرة ، كيف ينتمى السابق الى اللاحق والعكس هو الصحيح ؟ وكل ما فى الأمر ان ادعاءهم لـما خالف أظهر قواعد البداهة قال لهم فى ختام الأية « أفلا تعقلون » ولفت نظرهم فى الآية التى بعدها الى أنه ان صح أن يجادلوا بشىء من العلم ، أو مع وجود شبهة فلا ينبغى لهم فى موقف آخر ان يجادلوا بدون علم ولا شبهة ، وان هم فعلوا ذلك كان مراء ومكابرة .

ويتضح لنا من خلال الآيات السابقة أن الله سمى الجـدل أو المخاصمة حجة لكونه انبنى على شبهة ، فأطلقت الحجة على الشبهة وهذا وحده كفيل بأن يجعل الحجة باعتبارها مصـطلحا نظريا أدنى مما نتصور ، وليس هذا فقط بل قد سمى الظن حجة فى دعواهـم نسبة سيدنا ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسـليم اليهم مع أنه مخالف لبداهة العقل وضروراته ، وليس لهم أدنى شبهة فى هذا الادعاء ، ومع ذلك أطلقت كلمة الحجة على دعوى ومخاصـمة لا سند لها ولا شبهة البتـة .

ومما تجدر الاشارة اليه فى نهاية هذه النقطة هو أنه على الرغم من أن الحجة أطلقت على الجدل والمخاصمة ، وعلى الشبهة ، وعلى ما ليس فيه شبهة الا أن هذا الاطلاق تم بناء على وجهة نظر الخصم ، وباعتبار حاله ، أما بالنسبة الى الطرف الثانى وهو النبى صلى الله عليه وسلم وأنصار الحق من بعده ، أو بالنسبة لسيدنا ابراهيم فى محاجتـه

---

(١٦) وترد الحجة بمعنى المخاصمة فى قوله تعالى [**وحاجه قـومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان**] ٨٠ الانعام اى خاصموه فى التوحيد ، ويريدون الزج بالشركاء فى ساحة الألوهية وهذا وهم وبطلان .

النمروز فان اطلاق الحجة اطلاق حقيقى ، يتم على بابه من الطريقة الحسنى ، والسبيل المستقيم ، وذلك لما لمسناه من أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام حاج خصمه بسند عقلى سليم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم حاجج أهل الكتاب بمنطق عقلى دقيق . ولم تكن محاججة هذا ولا ذاك دفعا أو مشاحنة أو مخاصمة على غير وجه ودليل ، ومعناه أيضا أن الأنبياء مهما حاول خصمهم أن يستكبر ويستنكف ويشتط فى دعوه ، ولايستند فى ذلك الى شىء فان مثل هذه المواقف لاتدفع أرباب الحق الى أن يسلكوا نفس مسلك الخصوم ولكنهم يظلون على طريقتهم المثلى فى الاحتجاج بما هو حق ، وفى اتباع أفضل الطرق ، وأحسن الأساليب لمواجهة هؤلاء المنكرين .

جولة ثانية فى ساحة أخرى :

نعنى بهذا أننا نخوض مع الحجة بمعنى المخاصمة جولة أخرى ليست على أرض العالم الحسى المشاهد ، ولكنها تتم فى العالم الغيبى يوم يعرض جميع الأطراف على الله فيتحاج أصحاب الحق مع أرباب الباطل ، كما يتحاج المبطلون مع أنفسهم اذ يتلاومون فيما بينهم ، ويخاصم الضعفاء المستكبرين ، كما يعترف المستكبرون بالمصير النهائى وأن لا فائدة من الجدل .

ويختلف اطلاق الحجة بمعنى المخاصمة فى الدنيا عن اطلاقها بنفس المعنى فى الآخرة ، وذلك من جهة أن الاستخدام الدنيوى قد يتم تعسفا وبدون علم ، وأقوى ركيزة تستند اليها الحجة هى الشبهة لا الحقيقة والصدق فى المقدمات وأما فى الآخرة فانه لا مجال للغرور ولا للاستكبار ، ولا لمغايرة الحقيقة وتزييفها ، ولا للادعاء والافتراء لأن الحق قد ظهر ، وبرز واضحا ما كان خفيا ، وتجلى ما كان مستورا ، ومن هنا فان الحجة المستعملة فى الآخرة اما أنها اقامة الحجة من طرف على صدقه ضد خصمه الذى كان فى الدنيا ، واما أنها تحسر وتندم وتلاوم بين فريق الباطل الذى كان متحدا ضد الحق فى عالم الشهادة .

ومن أمثلة ذلك كله قوله تعالى حكاية عن منافقى اليهود [**واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون**](١٧) وقول اليهود أيضا [**ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**](١٨) فقد خشى منافقوا اليهود ، كما خشى من كابر واستمر على يهودية صرفة ان هم أخبروا المؤمنين بما يوجد فى دينهم من صفة النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك حجة للمؤمنين عليهم يوم القيامة ، وما دروا أنهم سواء حدثوا بذلك أم لم يحدثوا سوف تنكشف الحقيقة بفعل الهى ، أو باعتراف نبيهم وشهادته عليهم ، أو بشهادة النبى صلى الله عليه وسلم بما أوحاه الله اليه ، وباعتباره يشهد على الجميع ، وكذلك فانهم لو خاصموا فى الموقف يوم القيامة على نقصان أجورهم سوف يرد عليهم بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وعليهم فى كل حالة أن يدركوا أنهم محجوجون باحوا بما لديهم أولا(١٩) ، وهذه المحاجة ابراز للحق ، واظهار لسنده فى ساحة لا يستطيع الخصم مواصلة العناد ولا كتمان الحقيقة ، وقد لا تكون ابرازا لتلك الحقيقة بل تحسرا وندما ، كما فى محاجة أهل النار مثل قوله تعالى :

[**واذا يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد**](٢٠) .

---

(١٧) البقرة ٧٦
(١٨) آل عمران ٧٣
(١٩) الكشاف ج١ ٧٨ ، ١٩٥ والقرطبى ج٢ ٤ ، ج٤ ١١٢ — ١١٤، وتفسير البيضاوى ج١ ١٦٤
(٢٠) غافر ٤٧ — ٤٨ تفسير البيضاوى ج٥ ٤٠ ، والكشاف ج٣ ٣٧٣

الحجــة الفاســـدة :

وتطلق كلمة الحجة أيضا فى مجال العناد والخصام على نوع من التحايل الذى يلجأ اليه المنكر للحق امعانا فى الخصومة واغراقا فى التعصب لوجهة نظره ، أو عندما يتضح له الحق اتضاحا جليا ولايريد الاعتراف به فيلجأ الى حيلة يفر بها من الاعتراف والتسليم ، والذى نلحظه من حديث القرآن فى هذه المواطن أن المعاندين فقدوا كل طريق للتدليل على رأيهم ، أو الاستناد الى أى فكرة أو مقدمة فلجأوا الى تبريرات لفظية لا تتصل بالاحتجاج من أى طريق ، وصاحب الحق هنا يكون فى منعة منه ومن ظهوره وجلاء بنيانه .

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن موقفين من تلك المواقف التبريرية التى لاعلاقة لها بالمنطق ولا بالاحتجاج ، والموقف الأول يتعلق بتحويل القبلة وما وقع فيه من كلام اليهود وكفار قريش يقول سـبحانه فيه **[ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتـم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون]**[٢١] .

والآية تصف حال اليهود فى قولهم ماله يدين بغير ديننا ويتبع قبلتنا ، ونحن لسنا ملزمين باتباعه لأن الموصوف عندنا فى التـوراة بالنبوة يتجه الى الكعبة لا الى الصخرة ، كما تدفع أقوال المشركين فى قولهم ماله صلى الله عليه وسلم يدعى أنه على ملة ابراهيم ثم يتجه الى غير قبلته ، فلما رجع الى الكعبة قالوا ماله تحير وعاد ، والقرآن الكريم لا يعتبر ما قاله اليهود والمشركين حجة أصلا لأنه لم يبن على أصل ، ولم يخضع لمنطق سليم ، وما هى الا تبريدات لمواقفهم العنادية كمـا قلنـا .

---

(٢١) البقـرة ١٥٠ .

يقول القرطبي : نفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في استقبال القبلة والاتجاه نحو الكعبة ، والنفي منصب على اعتبار الحجة السليمة المعقولة المبنية على شرائط الاستدلال الصحيح[٣٢] والا فقد سمى تبريراتهم تلك حجة حسب زعم المحتج وظنه لا بحسب حقيقتها في نفس الأمر ، أى أنها حجة فاسدة وغير مقبولة لكونها فقدت كل شروط الصحة . وانما سماها الله حجة بحسب زعم قائلها لا أنها كذلك من جهة الحقيقة والصواب .

وأما الموقف الثاني فهو المتمثل في قوله جل شأنه عن الكفار **[واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا أئتوا بآبائنا ان كنتم صادقين]**[٣٣] ، وأنت ترى أن منطوق الآية يدل على أن صاحب الحق قدم أدلة بينة واضحة لا شبهة فيها . وازاء هذا حاول المبطلون تدبيج حجة مناسبة للرد على تلك الآيات فلم يجدوا شيئا يستندون عليه الا قولهم أئتوا بآبائنا حتى نسألهم ، وأسلوب الآية يشير الى أنهم فكروا مليا لايجاد حجة لهم ، وتكمن الاشارة في قوله تعالى « ما كان حجتهم » أى أنهم بحثوا ونقبوا فوجدوا طرق الاحتجاج مغلقة فاخترعوا تبريرا لا يعتد به في مجال الاستدلال، ولبس نمطا من أنماطه اذ قالوا أئتوا بآبائنا ، وسمى هذا التبرير حجة على سبيل التهكم أو لأنه كذلك في حسبانهم وتقديرهم[٢٤] كما مر في الموقف الأول .

الموقفان اذا تبريرات لا مبادىء ولا أحكام ولا قواعد ولا أصول ولا معقولية .

---

(٢٢) تفسير القرطبي ج٢ ١٦٨ — ١٦٩ ؛ وتفسير الكشاف ج١ ١٠٣ وتفسير البيضاوى ج١ ٢٠٠

(٢٣) الجاثية ٢٥

(٢٤) الكشاف ج٣ ٤٣٩ والبيضاوى ج٥ ٧١

ولا يمكن أن يستمر الأمر الى ما لا نهاية بل انه فى لحظة من اللحظات يحكم الحق جل جلاله بأن أى تبرير من هذا النوع انما هو حجة فاسدة وداحضة خاصة بعد أن قبلت العقول السليمة دين الله وصدقت به ، وبعد أن علا الحق وظهر ، ان كل من يحاجج بعد وضوح الأدلة ، وبعد ان اقتنعت بها عقول كثيرة انما يكابرون ويعاندون وما يخترعونه من مزاعم ان هى الا حجج باطلة لا صحة لها **[والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم]**(٢٥) وهذا حكم صادر من الله على مزاعمهم بصرف النظر عن فساد تصوراتهم وتخيلاتهم وأوهامهم ، وان كان لديهم من رد على هذا الحكم فليأتوا به ليثبتوا صدق حججهم •

الأمر بايقاف المحاججة :

تختلف طريقة الاحتجاج فى القرآن عنها فى المجال العقلى البحت ، وذلك لأن المتحاجين والمتجادلين فى الساحة العقلية مستعدون للسير فى خصومتهم الى ما لا نهاية ، وطالما أمكن الجدل ، ووجد كل خصم مادة يدافع عن رأيه بها فلا يسلم للطرف الآخر ، ويرغب فى مواصلة الصراع •

ولكن القرآن الكريم يأتى عند حد تتضح فيه الحقائق وتتجلى ، وتبدو الحجة بينة لا غبار عليها ، وعندما يتحقق المدافع عن الحق بأنه قد أتى بما يمكن أن يكون سندا كافيا لاقناع العقول السليمة ، عندئذ يأمر القرآن بايقاف الاحتجاج ، وانما أصدر القرآن هذا التوجيه الحكيم لأنه قد بات واضحا أمام العيون والأذهان أن المنكرين ركبوا متن العناد وبالغوا فى الخصومة ، وأتوا من الأقوال المزورة ، والمغالطات المموهة بما لا فائدة من ورائه ، وأيضا فان مسلكهم هذا قد أغلق عليهم منافذ العقل ، وسد مسام القلب فلا طائل من

---

(٢٥) الشورى ١٦

وراء الاستمرار معهم فى المحاجة ، وبالتالى فعلى صاحب الحجة البينة أن يعلن بصراحة أنه ، قد أدى ما عليه ، وأسلم وجهه لله وحده ، ولم يعد هناك مجال للاحتجاج ولا مزيد على ما قدم من بينات .

وبالفعل لقد نفذ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، وأوقف التمادى فى الاحتجاج ، ودعا الى نوع من الاختبار الذى يتشف بجلاء عن صاحب الحق ، وهو ما عرف فى القرآن باسم المباهلة ، ورفض المبطلون هذا التحدى وجبنوا عن تنفيذه ، وهذا يدل على خور المبطلين ، وعدم الثقة فى مزاعمهم ، ولا يخفى أن عملية الايقاف هذه تتم عندما يتبارى الخصوم فى المحاجة ، وعندما تكون الحجة بمعنى المغالبة والمعاندة ، ان سورة آل عمران تحمل هذا التوجيه بكل صراحة يقول الله فيها :

[فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد](٢٦) وفى سورة الشورى يأمر الله نبيه قائلا **[فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير]**(٢٧) وغنى عن البيان أن هذا الايقاف لسير المخاصمة يتم فى كل موقف جدلى أو احتجاجى يسير من المعلوم فيه أن احد

---

(٣٦) آل عمران ٢٠ وهى نفس السورة التى حملت حادثة عرض المباهلة بعد جولة من الجدال طويلة امر الله النبى بعدها قائلا له **[فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين]** الآية ٦١ انظر الكشاف ج١ ١٩٢ — ١٩٣ ؛ والبيضاوى ج٢ ٢٢

(٢٧) الآية ١٥ وانظر تفسير القرطبى ج٤ ٤٥ وابن قيم الجوزية مفتاح دار السعادة ج٢ ٤٥٢ ، ج١ ١٨٤

الأطراف لا يصدع لصوت الحق ، ويتحتم الايقاف ان انتهى حـال جميـع الأطراف الى ذلك .

شروط قبـول الحجـة :

اتضح من العرض السـابق أن الحجة تستخدم بصـفة غالبة فى معنى الجدل والمخاصمة ، وتبدو مرادفة لهما حتى أن القرآن قد عرضها بصورة تتشابه مع تلك التى عرض بها الجدل خاصة فى ابراز المغالبة والتزييف ومحاولات تبرير العناد لا اسناده ، ثم ايقاف المخاصمة فى بعض مراحلها ، ويمكن أن نطلق على المحاجة من هذا القبيل المحاجة المذمومة كما سمينا الجـدل سلفا .

ولكن الحجة لا تقتصر على ذلك ، ولا تستعمل فقط فى مضـمار المشاحنات المذمومة بل تأتى بمعنى الطريق المستقيم حسبما رأينـا فى الوضع اللغوى ، وفى تلك اللحظة نسأل أنفسنا كيف تكـون على هذه الحالة المستقيمة ؟

ان القرآن الكريم عندما أراد أن يتحدث عن الحجة المحمـودة المستوفية لشروط الصحة استخدم أسلوبين أبرز فيهما سمات هـذا النوع المحمود من الاحتجاج وهما :

الأسلوب الأول هو أسلوب الاضافة ، وفيه جاءت الحجة مضافة الى ضمير التعظيم لذات الحق جل جلاله يقول المولى عز وجل اشارة الى جميع حجج سيدنا ابراهيم ابتداء من الكوكب ثم القمـر ، ثم الشمس : [**وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم**] وقبل عملية الاحتجاج ذاتها يقول سبحانه [**وكذلك نرى ابراهيـم ملكوت السـموات والأرض وليكون من الموقنـين**][٢٨] .

---

(٢٨) الأنعـام ٨٣ ، ٧٤

والآيتان معا يتحدثان عن مصدر الاحتجاج فالله سبحانه هو الذى أرى ابراهيم الملكوت ، وهو الذى آتى ابراهيم التوفيق والارشاد لما قام به من براعة فى الاستدلال ، وهنا نضع أيدينا على أول أساس تقوم عليه الحجة المقبولة ، وهو اسنادها الى الله سبحانه ، ولجوء المحتج الى جنابه ، والركون اليه والى آياته البديعة ، والمحكمة ، والعقل الانسانى اذا ركن الى الله فى مصدرية الاحتجاج استطاع أن يأتى بحجج متقنة وذلك بعكس ما لو ركن الى ذاته فان انتاجه يصير عرضة للزلل والفساد ، وفى هذا رد على المعتزلة الذين يشيدون بالعقل وقدرته قبل وبعد النص •

واراءة الله ملكوت السموات والأرض لسيدنا ابراهيم شاملة لظاهر الكون وأنواع موجوداته وأفرادها كما أنها تعم السنن والنظام ، ولو كانت الاراءة متعلقة بأشخاص الموجودات دون سننها لجاءت كلمة الملك بدلا من الملكوت ، لكن المبالغة الواردة فى لفظة الملكوت(٣٩) تدل على المبالغة فى رؤية أفراد الكائنات بقوانينها وسننها •

وهذا الفهم يتفق مع سير الاحتجاج الذى قام به سيدنا ابراهيم ، لأنه رأى الكوكب والقمر والشمس واكتشف أنها لا تصلح آلهة لا لشىء فى شكلها ومظهرها ولكن لما يتعلق بسننها من التغير والأفول فالعنصر الأساسى فى الاحتجاج هو النظام لا الصورة •

وطبقا لما تمتع به الخليل من فضل الله فى الاراءة حسب المعنى الذى فهمناه فان احتجاج ابراهيم لا يكون متوجها لاقناع ذاته ، ولكنه خطة اختطها لاقناع قومه ، فهو تدرج مقصود ، ومجاراة للخصم محكمة•

واذا كان الله هو المصدر الصحيح والحق فى الاقناع ، وقد لقن

---

(٣٩) يقولون ان ملكوت بمعنى الملك وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الصفة قرطبى ج٧ ٢٣

أنبياءه أنواع الحجج وأحكمها فان كل ذلك قد أودع فى كتاب الله لكى يصبح معينا للعقل فى احتجاجه • وهاديا له فى اقناعه ، وهذا يعنى أن كتاب الله المتلو ، والمنشور المبدع وهو الكون مصدر الاحتجاج ونبراس العملية كلها ، وهذا هو الشرط الأول ، ويلى ذلك ضرورة أن تكون الحجة ناصرة للحق لا للرأى ولا لمقالة معينة ، وأن تكون مبنية على علم وفهم ودقة ، وأن تكون مناسبة لمقامها ، وللموضوع الذى سيقت له ، وأن تكون من الوضوح الى حد تقطع به عذر الخصوم وتبطل مزاعمهم ، وقد أشار الى تلك الشروط كل من الطبرى والقرطبى والزمخشرى فى تفاسيرهم(٣٠) ، ووردت أثناء شرحهم للآيتين السابقتين •

وأما الأسلوب الثانى فهو أسلوب الوصف ، وقد جاءت الحجة مقيدة بوصف كونها بالغة ودقيقة عقب تذرع المشركين فى شركهم بالمشيئة الالهية ، ومطالبة القرآن لهم بان يدللوا على تذرعهم هذا ، أو أن يخرجوا ما لديهم من علم يصحح زعمهم ، ولما عجزوا حكم على قولهم بأنه ظن وتخريص ، وقد فصلنا القول فى تلك القضية من ذى قبل •

عقب ذلك كله قال الله تعالى [قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين](٣١) يقول الطبرى مشيرا الى فائدة الوصف [ويعنى بالمبالغة أنها تبلغ مراده فى ثبوتها على من احتج بها عليه من خلقه ، وقطع عذره اذا انتهت اليه فيما جعلت حجة فيه](٣٢) ، وفيها من القوة واليقين ما تفحم الخصم وتشل فاعلية تفكيره فيسلم ، أو يلجأ الى المبررات كما قلنا •

---

(٣٠) تفسير الطبرى ج٧ ١٧١ ، والكشاف ج٢ ٢٦ والقرطبى ج٧ ٣٠ — ٣١

(٣١) الأنعام ١٤٩

(٣٢) التفسير ج٨ ٥٩

ويضيف القرطبى فى الحديث عن البالغة بالاضـافة الى كونها تقطع عذر المحجوج قوله [وتزيل الشك عمن نظر فيها](٣٣) كما يصفها ابن قيم بضرورة أن تكون حجة بينـة وهى [اسـم لكل ما يبـين الحق من علامة أو أمارة أو دليل] وهـذا يعنى أنه يجعلها مـرادفة للدليل ، ومرة أخرى يقول : هى ما كانت أدلة علمية يعقلها القـلب وتسمع (٣٤) بالأذن ، ويقول الألوسى مركزا على هذا الشرط ومعنى كونها بينة [أى واضحة بلغت غاية المتانة والقوة على الاثبـات ، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه](٣٥) •

أهم مميـزات الاحتجاج القـرآنى :

ان عملية الاحتجاج فى القرآن الكريم تتميز بعدة مميزات ، منها ما يتصل بالمحتج ، أو بالحجة ، أو بسير المخاصمة •

أما المحتج فانه يكون صادقا ، حسن النية ، وألا يقف عند حدود الحجة الواحدة ، بل الأفضل له أن ينوع فيما يقدم ، كما فعل سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسـلام ، وتلك عادة الأنبياء فان طريقتهـم لا تلزم نوعا واحدا ولكنهم يتجولون فى النفس والآفاق والنعـم ، والبديهات ليقدموا للنفس البشرية دلائل تثبت التوحيد ، أو ارسال الرسل ، أو البعث ، والمحتج الصادق لا يقابل عناد الخصم الا باللين والرفق ، ويقدم اليه حججا تطفىء غضبه ، وتعيد له توازنه النفسى لو أنصف وأحسن الاستماع والانصات ، ويا حبذا لو انتقـل الى القبـــول •

---

(٣٣) التفسـير ج٧ ١٢٨

(٣٤) مفتاح دار السعادة ج١ ١٨٤ — ١٨٦ وانظر تفسير الكشاف ج٣ ٣٦ ، والبيضاوى ج٢ ١٩٦.

وتتميز الحجة القرآنية فى أنها تعتمد على المصدر الالهى الذى يعلم خبايا النفوس ويقدم لها ما يروى ظمأها ، ويكسر عصيانها ، وتبنى على بديهيات أو مقدمات بينة واضحة كما ذكرنا توا ، وانها لا تلزم تلك الطريقة القياسية المعروفة فى المنطق ، وانما تنفرد بطريقتها الخاصة التى أشرنا اليها فى الدليل ، ونجد لمقدماتها أساسا صحيحا لدى العقل أو فى خارج الذهن ، وربما كان أساسها موجودا فى نفس المعاند ذاته ، أو بما يعرف ويقرأ ويعتقد كما هو حال اليهود عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يثيرهم ويوجههم الى ما لديهم من أخبار عنه ، وهم يعرفونها جيدا •

ومن هنا فان درجة اللزوم بين مقدمات الحجة ، ونتائجها مبنية على صدقها فى حد ذاتها ، لامن حيث الزام الخصم واسكاته حتى ولو كنا قد ألزمناه وأسكتناه بما لا يصدق فى ذاته •

والحجة القرآنية بعد ذلك موضوعية أبدا لا تنال من أشخاص المخالطين مهما كانت عيوبهم الشخصية التى يمكن استغلالها ، لأن الله يعلم أن اثارة العيوب الشخصية يزيد غضب الخصم حتى ولو أدى لاحراجه واسكاته ، ولذا فلم نر نبيا من الأنبياء تعرض لأمور شخصية مع قومه ، أو مع من يعانده ويخاصمه ، وكثيرا ما تناول الأقوام شخص النبى بافتراءات شخصية ومع ذلك يأتى الرد بنفى ذلك عنه دون ابراز معايبهم الحقيقية التى يتصف بها الكبراء أو السادة أو غيرهم ، وفى بعض الحالات التى رد فيها من آذى شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان الرد مقصورا على نسبة ما قال اليه لا الى النبى (٣٦) ، والآيات التى نزلت فى أبى لهب وزوجته تحكى لنا القصة برمتها ، وتصدقنا فيما نقول •

---

(٣٦) فاذا قالوا شاعر قال [وما هو بقول شاعر] واذا نسبوا اليه الكهانة ردها القرآن عنه ، واذا قالوا هو مجنون أقسم الله أنه ليس كذلك ، واذا قال أبو لهب « تب لك ألهذا جمعتنا » نزل القرآن يقول « تبت يدا أبى لهب وتب » واذا قالوا هو أبتر قال الله « ان شانئك هو الأبتر » الى آخره •

ولا تلجأ الحجة القرآنية الى مناطق الضعف فى الانسان كما تفعل الحجة العقلية المعروفة بالغوغائية ، وانما يحدث القرآن الانسان مثيرا أرقى مراكز الادراك ، ومذكرا اياه بأجمل صورة خلقه الله عليها ، ولا يلقى شخص المخاطب من الاهانة الا اذا لج فى العناد فان الله يكشف له عن علة الداء مثل الهوى والكبر وسوء الفهم وعدم أعمال العقل بشكل حسن ، وقد يلحقه بالأنعام لغفلته وضلاله ، ولأنه تخلى عن مميزاته وأهمل مداركه التى حباه الله بها .

وأما ما يتعلق بسير الاحتجاج فقد سبق أن أشرنا الى ايقافها اذا تبين أنهم يلجون فى أمر واضح ، أو تتنوع لهم الأدلة ومع ذلك يلجأون الى التحايل والتزييف ، أو يجادلون بغير علم ، أو يخالفون أبسط قواعد العقل والمعرفة عندئذ لابد من التوقف عن مواصلة سير الاحتجاج ، ويودع صاحب الحق خصومه حال كونه يعلن على أسماعهم تمسكه بموقفه ، وأن المفاصلة تامة بين نصوع حجته وعقيدته وعمله وبين باطلهم وسوء أعمالهم(٣٧) .

مركز الحجة بين المصطلحات الاستدلالية :

لم يرد الدليل فى القرآن كثيرا ، ولم يطالب به الله المنكرين ، وهو عام شامل لجميع العلامات الحسية والعقلية والدلالة فيه لابد أن تتجه الى شىء غير الدليل ، فلا يدل الدليل على نفسه أو على صفة من صفاته ، وهذا كله بخلاف الحجة فان الله قد ساقها كثيرا فى القرآن الكريم بصورة لم تحدث مع الدليل ، ووصفها الله أحيانا بأنها بالغة وعلمها للأنبياء ، وهى تدل على الشىء فى نفسه أو فى صفة من صفاته كما تدل على غيرها ، ومن هذا الجانب تعلو على الدليل وحده .

---

(٣٧) راجع فى هذه النقاط : تفسير الفخر الرازى ج٢ ١٣٦ ، ج٤ ٨٧، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ج٧ ٢١٠ ، ج٨ ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ج١١ ١١١ ، ج١٢ ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ج٢٣ ١٥٨ — ١٥٩ ، وروح المعانى ج٣ ١٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٩٥ ج٧ ٢٠٤ ، ٢٠٨ .

ولا ترقى عن السلطان ولا البرهان لأنها ما زالت تتصف بصفات تنزلها من علياء القمة ، وتجعلها فى مرتبة تلى مرتبة الدليل فحسب ، وهذه الصفات هى : انها اسم لما يحتج به من حق وباطل ، تطلق على المجادلة والمخاصمة المحمودة والمذمومة ، كما تطلق على الشبهة ، وتوصف أحيانا بأنها صحيحة وبالغة ، وأخرى بأنها داحضة وفاسدة وتبنى على علم ، كما تبنى على غيره ، أو على ظن وتخريص ، أو على تقليد غير مفيد ، وتكون موضوعية كما تكون شخصية وغوغائية ، فليس لها اتجاه محدد فى الحق حتى نعلى من شأنها ، ولا فى الباطل حتى ننزلها عن الدليل ، ولما كانت بهذا الشكل من العموم لم يطالب المولى سبحانه المنكرين بأن يأتوا بها تدعيما لموقفهم ، على العكس ذمها على لسانهم لما بنيت عليه من ضعف أو فساد أو شبهة •

وبعد هذا ، واستنادا اليه نرى أنها تقع فى الدرجة الثانية بعد الدليل •

الفصل الثالث

السلطان والبرهان

دلالات كلمة سلطان :

على الرغم من أن كلمة سلطان وردت فى القرآن فى سبع وثلاثين آية ، وهذا العدد يفوق بكثير نظائره فى الألفاظ الأخرى من دليل وحجة وبرهان الا أننا لا نجد المعاجم اللغوية القديمة أفردت له نصيبا كبيرا من صفحاتها وموادها ، كما لم نجد المصطلح بارزا بشكل واضح ومحدد فى المصادر التى تحدثت عن اصطلاحات الفنون مثل كتاب التهاونى ، وكتاب الأحمد نكرى المسمى بـ « دستور العلماء » ونفس الشىء يقال بالنسبة للمعاجم الفلسفية ، فقد تعمد البعض اسقاطه من كتابه كما فعل جميل صليبه وغيره •

ويبدو أن كونه يأتى بمعنى مصطلحات مشابهة له فى المدلول والمفهوم ، وكونه مصطلحا قرآنيا فى الدرجة الأولى قد أهمله كتاب المعاجم الاصطلاحية خاصة غير المسلمين ، وأيضا فانه من دواعى أهمالها وهذا شنيع فى حد ذاته هو أنها لم تستخدم مصطلحا استدلاليا فى مجال الفلسفة أو علم الكلام ، ومع كل ذلك فقد تناولته بعض العقول والأقلام فألقت عليه ضوءا يحدد المراد منه •

وسوف نتناول هذه المعانى بتفصيل ، ومع كل معنى ما يزكيه من الاستعمال القرآنى ٠

المعنى الأول : السلطان قوة وشدة :

تحت هذا المعنى تدخل مشتقات ومفاهيم تكسو الكلمة بأثواب المهابة والعظمة ، أو التسلط والتمكين أو الحدة والقدرة والصلابة ، وفيه تكون اللفظة وصفا لليد والقوة البدنية ، فيقال السلط الشديد ، ووصفا للسان ، فنقول السلط اللسان الطويل ٠ وسلط لسانه صار ذا حدة ، والسلط النصل لا نتوء فى وسطه ، كما ترد وصفا للقوة المعنوية مثل سلطه أطلق له السلطان القدرة ، وسلطه عليه مكنه منه وحكمه فيه ، وتسلط عليه تحكم وتمكن وسيطر ، وتتبعه كلمة السلطة التى تعنى السيطرة والتحكم أيضا ، والسلطان الملك أو الوالى والقدرة (١) ، وسمى الأمراء سلاطين لأن بهم وبقدرتهم يتوصل الناس الى تحصيل الحقوق(٢) ، وإرجاعها من مغتصبيها ، أو أخذها من مظانها ، وبهم تتحصل المنافع البعيدة ٠

وفى هذا الاطار تأتى كلمة السلطان بمعنى التسلط فى القرآن الكريم ، وذلك فى ثلاثة مجالات : مجال استرداد الحقوق كقوله تعالى **[ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا]**(٣) فالسلطان هنا يعنى التحكم والتسلط من أولياء الدم على القاتل طلبا للقصاص والمؤاخذة(٤) ، وأما المجال الثانى فهو ورود الكلمة مع الشيطان فى تسلطه بالوسوسة على قلوب أوليائه فى الدنيا وتبريه من ذلك فى الآخرة ، وعدم قدرته على التسلط والوسوسة بالنسبة

---

(١) القاموس المحيط ج٢ ص٣٦٥ ، والمعجم الوسيط ج١ ٤٤٣
(٢) وتفسير الفخر الرازى ج٩ ٣٣ ، وتفسير القرطبى ج٢ ٦٩ ، مجموع الفتاوى ج١٢ ١٢
(٣) الأسراء ٣٣
(٤) تفسير البيضاوى ج٢ ٢٠١

لقلوب المؤمنين الصادقين من عباد الله المخلصين [انما سلطانه عـلى **الذين يتولونه والذين هم به مشركون**](٥) ويوم القيامة يقول لهـم [**وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فـلا تلوموني ولوموا أنفسكم**](٦) ومعناه أن تسلطى عليكم هو عبارة عن وسوسة ليس الا ، ولا قدرة لى على قهركم والجائكم الى ما أريـد من الكفر والمعاصى ، ولم أقدم لكم أدلة على تلك الدعوة الخبيثة التى بثثتها فى صدوركم ، وما دمت لا أملك قوة القهر والالزام ولا الدليل والبرهان فلا تلوموني أنا ولوموا أنفسكم على ما اقترفتم ، وبدليـل أننى لم أستطع اغواء المؤمنين ، ولم أجد سبيلا ولا قهرا لقـلوب المخلصين [**ان عبادى ليس لك عليهـم سـلطان الا من أتبعك من الغاوين**](٨) وحتى اذا ما وسوست لهم فغفلوا قليلا تذكروا وتابوا فرجعوا الى ايمانهم •

هناك مجال ثالث ينفى فيه الكبراء والسادة سلطانهم فى التأثير على الضعفاء والعبيد ، وذلك عندما يتلاومون فى الآخرة فيقولون بعض الظالمين للأخرين [**وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قـوما طاغين**](٩) حقا اننا دعوناكم وصددناكم ولكن لم يكن لنا سلطان القهر عـلى قلوبكم وضمائركم ، ولكنكم أنتم الذين طغيتم وضللتم •

والملاحظ على تلك الكلمة فى هذا المعنى أنها تثبت القوة والقدرة والشدة والتمكين والسيطرة فى اليد واللسان وعند الحاكم أو الوالى ، أو صاحب الدم فى القتل ، وحتى الشيطان له قوة الوسوسة ، ولكنهـا قوة معنوية ، والسلطان عندما يطلق على القوة المعنوية يتسلط على

---

(٥) النحـــل ١٠٠
(٦) ابراهيـــم ٢٢
(٧) تفسير القرطبى ج٩ ٣٥٦ — ٣٥٧ ، وتفسير البيضاوى ج٣ ١٥٩
(٨) الحجر ٤٢ ونظيرها فى : النحل ٩٩ ، الاسراء ٦٥
(٩) الصـــافات ٣٥

ظاهر الانسان ، أما باطنة فلا سبيل لبطش يد ولا لقدرة ملك ، ولالحيل ابليس على الاستيلاء عليه طالما أن صاحبه يستطيع تعقل الأمور ، وطالما أنه يملك طريقة الفهم والاقتناع بذاته ، ان قلب الانسان لا يكون محلا للتسلط والشدة والقدرة لدى العبيد ولكنه ملك لصاحبه ، بدليل أن المؤمنين المخلصين ما استطاعت جبابرة الأرض وسلاطينها ، وأبالسة الجن وشياطينهم أن يغيروا من ايمانهم ، او يبدلوا يقينهم ، وبدليل اعتراف هؤلاء جميعا بذلك يوم القيامة وهذا بعكس السلطان بمعنى الحجة فان له قدرة على التغيير من الكفر الى الايمان كما سيأتى :

المعنى الثانى : دلالة أصل الكلمة على الاستخلاص :

ومن بين مشتقات الكلمة لفظة السليط وتعنى أيضا كل دهن عصر واستخلص من حب ، ويمكن أن يضاء به السراج ، وفائدة ذكر هذا الاشتقاق وما يحمله من معنى هنا هو أنه يدل على أن كلمة سلطان التى ترد بمعنى الاستدلال انما تستخلص من مقدمات سابقة كما يستخلص الزيت من الحب ، ولهذا العملية جهدها وطريقتها وفنيتها ، وكذلك فانه تعد استخلاصه من مقدماته يصبح صالحا لانارة العقول كما أن الزيت بعد عصره يصير قابلا للاضاءة والاشتعال لانارة الأماكن المحسوسة ، من ثم لا يبتعد هذا المعنى الحسى عن معنى السلطان الاستدلالى ولكنه يخدمه .

أقول هذا لندرك من ناحية أخرى أن ألفاظ اللغة العربية بحسب أصل وضعها وان بدت فى المعاجم متباعدة المعنى ، متشعبة الدلالات الا أنها عند النظر الدقيق يمكن أن تتلاقى فى وشائج قربى تبتعد أو تدنو من بعضها ، ويمكن عند الامعان تحقيق ذلك ، والذين يتعجبون من كثرة المعانى الواردة على مادة واحدة فى المعاجم فراحوا يلومون طريقة علماء اللغة تلك انما لم يمعنوا النظر المطلوب .

المعنى الثالث : السلطان بمعنى الحجة والبرهان :

ويرد السلطان فى اللغة بمعنى الحجة والبرهان (١٠) ، وشاع استعماله بهذا المفهوم على ألسنة العلماء حتى قال ابن عباس [كل سلطان فى القرآن فهو الحجة](١١) ، وبه قال ابن نجم الحنبلى(١٢) ، ويقول ابن تيمية : السلطان [هو الحجة والعلم أو الحجة والبيان](١٣) ويعلل الراغب الأصفهانى تسميته بالحجة ، أو تسمية الحجة سلطانا بان الحجة عندما تقوى وتشتد وتهجم على القلوب وتتسلط عليها وعلى أهل العلم والحكمة تسمى فى تلك الحالة الشديدة والواضحة بالسلطان(١٤) ، وعليه فتكون كل حجة بالغة بينة سلطانا ، وكل سلطان مبين حجة بالغة ، وليس كل حجة على الاطلاق سلطانا ، لأنها قد تكون بمعنى الشبهة ، وبمعنى الجدل ، وقد تكون فاسدة أو داحضة ، واذا كانت بهذه المعانى فلا تهجم على القلوب وتتسلط عليها فلا تكون سلطانا بأى معنى من معانيه ، حتى ولو قصدنا الوسوسة الشيطانية لأن القرآن لم يسمها سلطانا ، وابليس نفسه ينفيها عن نفسه كماسبق، وهذا مكمن الفرق بين الحجة والسلطان كذلك.

واذ بان أن كل حجة على اطلاقها ليست سلطانا ، ولا تكون مرادفة للسلطان الا اذا كانت بالغة فقد لزم أن يكون كل سلطان مبين حجة بالغة أبدا .

ويعلل الألوسى سر تسمية الحجة سلطانا بأن الانسان يتقوى بها على الخصم ، ويتسلط(١٥) عليه تسلطا بيانيا واستدلاليا ، والفرق

(١٠) القاموس المحيط ج٢ ٣٦٥ ، والمعجم الوسيط ج١ ٤٤٣
(١١) روح المعانى ج٦ ١٧٧ ج٥ ١١٢
(١٢) استخراج الجدل : ٦٢
(١٣) مجموع الفتاوى ج١٢ ١٢
(١٤) المفردات ٢٣٨ ، وتفسير القرطبى ج٦ ٧
(١٥) روح المعانى ج٤ ٤٨

بين تعليل الراغب ، وتعليل الألوسى أن الأول نظر الى القوة فى الحجة باعتبار تسلطها على قلب المحتج وهجومها عليه بصرف النظر عن كون ذلك قد اقتصر على هذا المحتج أو تجاوزه الى غيره ، وأما الألوسى فقد اعتبر عنصر الغلبة على الخصم والقوة عليه ، وهذا يعنى أثــر الحجة القوية فى مضمار الخصومة ، على أنه عند النظر الجيد تزول الفوارق بين ما قاله الراغب وما قاله الألوسى ، ويمكن الجمع بينهمــا بأن يقال : اننى لا أنتصر على الخصم الا اذا أحسست بقوة الاحتجاج داخل ذاتى ، والا اذا أفعمت بالحجة واقتنعت اقتناعا قويا وأكيدا . وفى تلك الحالة احاجج بها فاستطيع بذلك تحقيق الانتصار والتفــوق على الخصم ، ومن هنا فتكون القوة فى ذاتى أولا ، ثم تخرج وتنتقل الى غــــيرى .

وقد يتسمى البرهان سلطانا لا لأن السلطان أرقى من البرهان ، ولكن لأن الأخير قد بلغ حدا من القوة يندفع به الباطل ويدحض(١٦) .

ولمــا جاز اطلاق الســلطان على الحجة والبرهان صــح تأنيثه وتذكيره ، ولا يخفى أن التأنيث باعتبار معنى الحجة ، والتذكير باعتبار البرهان ، ويرى الفراء أن التأنيث أفصح ويخالفه بعضهم ، ويقرر ابن عطيــة أن التذكير أشهر مستدلا بما ورد فى القرآن (١٧) ، حيث سيقت اللفظة على التذكير .

ومن جانبنا لا نرى بأسا فى تأييد الفراء . وذلك لأن المفسرين انفسهم غلب عليهم تأويل الســلطان بالحجة ، وجاء البرهان تبعا ، وغلبة هذا التفســير يتفق مع الحقيقــة من جهة أن البرهان أرقى من السلطان فلا يفسر الأخير به ، والحجة أدنى فيجوز أن يفسر السلطان بها مع قيــد صحتها وأن تكون بالغــة وهذا ما نصوا عليه كما أشرنا ،

---

(١٦) تفسير الفخر الرازى ح٩ ٣٣ .

(١٧) روح المعانى ح٦ ١٧٧ .

وفى حالة تفسير السلطان بالحجة تكون اللفظة مؤنثة فى المعنى مذكرة فى اللفظ .

وبعـد هذا كله فالمتتبع للآيات التى جاءت كلمة السلطان بينها يجـد المفسرين يؤولون اللفظة بالحجة والبرهان والدليل ، وهذا مجمل ما يقررونه ، ولا بأس أن نقف بعض وقفات مع السياق القرآنى من تلك المـادة التى معنا .

نظرات فى الكلمة داخل السياق :

أول ما يسترعى انتباهنا أن تلك الكلمة قد وردت بصورة أكثر من أى لفظة أخرى مثل الدليل أو الحجة أو البرهان وان جاءت تدل بين سياقها أن كل كلام محكوم فى قبوله بالسـلطان البين ، أو الحجة الواضحة ، والله سبحانه اذ يرسل الأنبياء يؤيدهم بسلطان مبين، وهم يدعونه دائما أن يمنحهم ذلك ، لقـد أعطى الله سيدنا موسى ذلك فقال **[ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين]** (١٨) **[قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما]** (١٩) وأمر الله النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعوه قائلا **[وقل رب أدخلنى مدخل صـدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سـلطانا نصـيرا** (٢٠) **]** وحدثته عن علاقته بأعدائه حربا أو سـلما فقال : **[ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ، ويكفـوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا]** (٢١) .

---

(١٨) المؤمنون ٤٥ .
(١٩) القصص ٣٥ وبمعنى ذلك جاءت اللفظة فى النساء ١٥٣ ، غافر ٢٣ ، الدخان ١٩ ، الذاريات ٣٨ .
(٢٠) الاسراء ٨٠ .
(٢١) النســاء ٩١ .

وسليمان عليه الصلاة والسلام لا يعفو عن هدهده حين افتقده الا عندما يأتيه بسلطان مبين (٢٢) ، حتى الكفار أنفسهم عنـدما تهجم عليهم شبههم يطالبون الأنبياء بذلك (٢٣) .

والمفسرون يتناولون تفسير السلطان فى هـذه المواضع وغيرها بالحجة المشروطة بالبينة ، ويرون أن تلك الحجة شاملة للنقلية والعقلية والعملية السلوكية ، كما تشمل الحجة القلبية التى تقذف فى قلوبنا ، وأيضا فالحجة تكون بالاعجاز ، وبالأمر الالهى ، وبالكتب النازلة من عنده ، ويؤكدون فى هـذا الصدد أن المعتد به فى باب التوحيد [هـو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة] (٢٤) .

وعبارة الألوسى هذه لم يقلها اجتهادا من عنده ولكن استنادا الى صيغ الآيات التى وردت فيها كلمة سلطان فقـد أحيطت الكلمة بألفاظ تسندها الى الله وحده مثل الأبناء والجعل والانزال والارسال ، ولم ترد مرة واحدة تسند السلطان بمعنى الحجة الى نبى من الأنبياء ، وعندما يخاطب الله سبحانه المشركين أو الكفار ويرد على مفترياتهم فى الشرك أو الولدية أو غيرهما ينبههم الى أنه لم ينزل بما يقولونه سلطانا ، وبالتالى فالمعتبر هو حكمه وانزاله لا مزاعمهم وافتراءاتهم ، واذ كان لم ينزل على ما يدعونه سلطانا فقد انعدمت الحجة النقلية التى هى الأسـاس والأصل الأول ، وزيادة فى احراجهم يطالبهم الحق أن يأتوا بسلطان مبين من جهتهم هم ، ولن يستطيعوا ، لأن الشريك والولدية وغيرها من المزاعم لا وجود لهـا أصلا حتى يستدل عليها ، ولمـا لم ينزل الله سلطانا وعجزوا هم عن اقامة دليل من عقولهم فيجب ترك تلك الأوهام والمزاعم الفاسدة (٢٥) .

---

(٢٢) النمل ٢١ .

(٢٣) ابراهيم ١٠ .

(٢٤) روح المعانى ج٥ ١٢٢ .

(٢٥) يقول سبحانه فى ذلك على سبيل المثال [سنلقى فى قلوب الذين كفـروا الرعب مما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا] آل عمران ١٥١ ،

ومما تجـدر الاشارة اليه بعد ذلك أن الحجة جاءت عامة شاملة للنقل والأمر الالهى والكتاب والاعجاز[٢٦] لكون المقصود منها هـو احقاق الحق ونصرته ، وهـذا التأييد يكون بحسب ما يقتضيه المقام والظروف، فقـد يكون المطلوب حجة عقلية يسـوقها الله فى كتابه ، وتتسم حينئذ بالنقلية لأنها وحى منقول عن الرسل ، وبالعقلية لكونها ترتكز على اقناع العقل بالأسلوب الذى يتبعه ، وبالطريقة التى تعتمد على مقدمات ونتائج •

وقد يكون السلطان أمرا الاهيا يفصل حكما من الأحكام كما جاء فى أحكام الحرب ، وأحيانا يكون السلطان حادثة اعجازية يؤيد الله بها نبيه ، وسواء كان السلطان حجة نقلية أو عقلية ، أو أمرا ، أو معجزة فهو يؤدى الى تثبيت القلب لمـا يهجم عليه بقوة النصرة والتأييد ، كما يؤدى الى تفوق صاحب الحق وتسلطه على الخصوم بما نال من سلطان الله وحجته •

وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا] الأنعـام ٨١ [قـل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغـير الحـق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سـلطانا] الأعراف ٣٣ [أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان] الأعراف ٧١ [قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض أن عندكم من سـلطان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون] يونس ٦٨ وفى يوسف ٤٠ ، الكهف ١٥ ، الحج ٧١ ، الروم ٣٥ الصافات ١٥٦ ، الطور ٣٨ ، النجم ٢٣ •

(٢٦) أنظر تفسير القرطبى ج٢ ٢٣٣ ج٤ ٢٣٣ ج٦ ٧ ج٧ ٢٩ ، ٣٠ ٢٣٧ ح٨ ٣٦١ ح٩ ١٩٢ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ ح١٠ ٣٣٦ ح١٢ ٩٥ ح١٤ ٣٣ ، ٣٤، وتفسير الكشاف ح٣ ٦٩ ، تفسير البيضاوى ح٢ ٤٧ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٢٧، ١٩٠ — ١٩٦ ح٣ ٨ ح٣ ١٣٤ ، ١٥٧ ح٤ ١١٥ ، ٦٦ ، ح٣ ٦٠ ح٤ ١٢٧ ح٥ ١٢ ، ٣٧ ، ٦٦ ، وتفسـير الفخر الرازى ح١٠ ٢٢٦ ، ح١٠ ٨٦ ، ٩٥ ح١٣ ٦٠ ح١٨ ١٣٩ ، ١٤٠ ح١٩ ٩٧ ح٢٢ ١٠١ ح١٩ ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ح٢١ ٣٣ ، ٩٧ — ٩٨ ، وروح المعانى ح٥ ١١٢ ، ح١ ٧ ح٧ ٢٠٦ ح١٢ ٢٤٥

منزلة السلطان الاستدلالية :

اذا تذكرنا الدليل وجدناه يطلق على العلامة والأمارة والقياس ، ولم نجد القرآن استخدمه كثيرا ، ولا طالب به المنكرين ، واذا استحضرنا بعده الحجة رأيناها كذلك تطلق على الشبهة والجدل بنوعيه ، ولم نعثر على آية واحدة تطالب البشر بأن يأتوا بحجة ، وهى عندما تقوى وتوصف بأنها بالغة يمكن أن نصعد بها الى الدرجة الأرقى وهى السلطان •

فالسلطان اذا منزلة ومكانة فى الاستدلال تلى الحجة مباشرة ، وهو يدل على القوة والشدة سواء أطلق على الملك أو الوالى أو الحاكم، أو أطلق على الدليل والحجة ، ومن شدته أنه يهجم على القلب بقوته ويغلب الخصوم ، ويدحض به الباطل كما يهزم السلطان القوى جند الشر وأعوان الرذيلة ، وأن السلطان يضاف الى الله فى القرآن بصورة لم تحدث من ذى قبل مع الدليل أو الحجة ، ومن ثم أمد به الأنبياء وعلمهم أن يطلبوه ، وكذلك لم يطلق السلطان على شبهة المنكرين كما أطلقت الحجة ، ولم يصفه القرآن بأنه داحض أو فاسد بل كل أوصافه ان تحقق أنه قوى ومبين •

ومع كل ذلك ما زال بالسلطان بعض الشوائب التى لا تعطيه المنزلة العليا فوق جميع أنواع الأدلة بما فيها البرهان ، ومن تلك الشوائب أنه يطلق على وسوسة الشيطان ونفثاته ، وأنه لا يحمل الوضوح الكامل الذى ليس فوقه وضوح بدليل أن الله قيده بوصف البين والمبين ، ولو كان كاملا بينا بذاته لم يحتج الى هذا القيد •

وتتحدد منزلته بدقة بعد الدليل والحجة فهو فى المرتبة الثالثة•

البرهان :

سنحاول من خلال الوضـــع اللغوى ، والاســتعمال القرآنى ، والتعريفات الاصــطلاحية أن نقف على مفهوم البرهان لغــة ودينا واصطلاحا ، وفى الوقت نفسه ندرك منزلته بين مصطلحات الاستدلال ومفاهيمه ، وهل هو جدير أن يتربع على قمتها كلها أولا ؟ وسوف نضع أيدينا فى كل لفظة تتعلق به على كونه أرقى هذه الألفاظ الأربعة .

هو أرقى من جهة اللغــة :

استرجع معى ما يرمى اليه الدليل من النصح والارشاد والسداد ، وما تعنيه الحجة من القصد والتردد والسبر والجدل ، وما وضعت له لفظة السلطان من القوة والغلبة والشدة تجــد أولا أن ترتيبنا لهذه الألفـــاظ على هذا النحو متفق تماما مع معانيها ، وذلك لأن من أراد الارشاد والنصح والسداد لزمه أن ينتقل الى القصد والتردد وأن يجادل ويحاور من ينصحه ويرشده ، فان هو فاز فى ذلك تحققت القوة والغلبة فصار صاحب سلطان وحجة .

وتجــد ثانيا أن لفظة البرهان منجهة اللغة أيضـــا هى أقوى وأسمى وأدق هذه الألفاظ لأنها تعنى البياض والضوء الشديد ، فيقال : بره الرجل بمعنى أبيض ، ورجــل أبره أى أبيض ، ويقـــال للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة ، ومن تلك اللفظة الدالة على البياض اشتق لفظ البرهان فهو البياض ، أو هو فعلان من البره أى الأبيض .

ولو تذكرنا بسرعة أن السلطان من السليط وهو الزيت أو الدهن تمكنا أن نحــكم على الفرق بين الدهن الصالح للاضاءة وبين الضوء ذاته ، فلا شك أن الضوء هو المظهر الحقيقى ، والفائدة المرجوة ، وأن الضوء يمكن أن يتحقق بدون دهن ، فيوجد الضوء ولا يوجــد زيته كضوء الشمس والقمر والنجوم وغيرها نقول ذلك حتى لا يدعى أحــد أن الدهن أصل فى الضوء فيكون السلطان أصلا للبرهان ، والأصل أقوى

من فرعه ، كلا ان الأمر كما ذكرنا من وقوع الضوء بزيت وبلا زيت ، وحتى لو كان الدهن أصلا فعندما نضيء السراج لا نتذكر شيئا سوى الضوء ، ولا يجذب انتباهنا سواه ، ولا يخطف أبصارنا الا ضوؤه ، ونحن ننسى تماما الدهن تحت الضـوء ، ولا تكاد تذكره الا فى لحظة انعدام الضوء لفقدان الدهن فى المصباح •

وكذلك من المعانى التى تحملها جذور الكلمة لغـة ادامة النظر مع سـكون الطرف فيقال برهم أدام نظره وسكن طرفه ، والبرهان يحتاج الى ادامة النظر ، وعدم الاشتغال بغير المنظور فيه •

ونصل الآن باللفظة الى صورتها الاشتقاقية التى دخلت بوزنها رحاب الكلمات الاصطلاحية وهى صيغة فعلان حيث نجـد أن برهان تعنى البياض كما قلنا وتعنى القطع أيضا ، ولذلك اختلفوا هل البرهان من البره بمعنى الضوء أو بمعنى القطع فاللفظة تشـملهما معـا ، والمعنيان يعطيان المصطلح مزيد قوة من حيث القطع وكونه بينا ، ومزيد جلاء من جهة كونه أبيض نيرا ، والبرهان من تلك الجهتين معا يبرىء علة الشك ، ويزيل اللبس ، ويحقق اليقين تماما كما قيل فى بعض معانية اللغوية: بره الرجل أى ثاب جسمه بعد علة [٢٧] •

واذا كانت الكلمة قد جاءت فى اللغة كذلك بمعنى الحجة كما جاء السلطان فان الحجة المقصودة فى اللفظة السابقة أقصى ما تصل اليه أنها بينة وبالغة ، أما الحجـة الواردة هنا مع البرهان فهى قاطعـة جلية ، والقطع والجلاء أقوى من مطلق بالغة •

ولذا حكم بعض علماء اللغة والمفسرين بأن البرهان أرقى أنواع الأدلة يقول أبو هلال العسكرى فى معانى البرهان ، ان دلالتـه هى الشهادة للمقالة بالصحة ، وهو بيان تام يشهد بصحة شىء أو يشهد

---

(٢٧) القاموس المحيط ج٤ ٢٠١ ، المعجم الوسيط ج١ ٥٣ •

لمعنى آخر بأنه حق فى نفسه ، وبلغ من قوة دلالته أنه لا يمكن أن توضع دلالة على خلاف ما هى دلالة عليه نحو دلالة الفعل على الفاعل فلا يمكن أن تجعل دلالة على أنه ليس بفاعل ، بخلاف الدليل فان دلالته قد تكون على خلاف ما جعل عليه نحو دلالة الاسم على المسمى ، ثم يقول بعد ذلك ومعه فهو اذا يقصد به قطع حجة الخصم(٢٨) .

ويقول الراغب الأصفهانى [فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبدا لا محالة] ويعتبره الألوسى الحجة النيرة القاطعة (٣٠) .

فلا غرو بعد ما سمعنا من الاعتبار اللغوى أن جعلنا البرهان قمة الأدلة كلها .

البرهان النقلى أتم جلاء :

وردت كلمة برهان فى القرآن الكريم فى ثمان آيات ، منها مايثبت وجوده ، ومنها ما يطالب به ازاء قضايا معينة وما جاء فى صدر الاثبات يتعلق بالبرهان النقلى ، وأما المطالب به فغالبا ما يقصد منه البرهان العقلى ، وفى هذه النقطة سوف نتناول النقلى ومعانيه .

يحدثنا الله عن وجوده ومجيئه فيقول [**يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا**](٣١) وهذا خطاب لأمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعم جميع البشرية لكونه أرسل الى الجميع ، وجاء فى شأن معجزتى اليد والعصا لموسى [**فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين**] (٣٢) وفى قصة

(٢٨) الفروق فى اللغة ٦١ ، ٦٣ .
(٢٩) المفردات ٤٥
(٣٠) روح المعانى ح٢ ٣٥٩ — ٣٦٠ ح٢٠ ٧٦ .
(٣١) النساء ١٧٤ ، ٣٤ .
(٣٢) القصص ٣٢ .

يوسف [ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه] (٣٣) .

وبالنسبة للآية الأولى فان العلماء قد صرحوا بأن المراد بالبرهان هو محمد صلى الله عليه وسلم ، واطلاق البرهان عليه لأنه جاء بالمعجزات الدالة على صدقه ، والقاطعة بنبوته(٣٤) ، ويقول الفخر الرازى [وانما سماه برهانا لأن حرفته التامة البرهان على تحقيق الحق ، وابطال الباطل] أو هو برهان فى طباعه وصفاته ومنطقه ، فذاته وصفاته ومسلكه كله يدل على أنه نبى مرسل(٣٥) .

وقيل هو القرآن أو الدين أو المعجزات ، ولقد أطلق الله لفظة برهان على المعجزة (٣٦) ، وثنى الكلمة لدلالتها على معجزتين من معجزات سيدنا موسى حسبما رأينا فى آية القصص السابقة ، وعند التأمل ندرك أن اطلاقه على الرسول أو القرآن أو الدين أو المعجزات اطلاق متقارب فى المعنى ، ومتحد فى الغاية ، وذلك لأن القرآن هو مصدر الدين الأول وقد حوى من البراهين ما جعله جديرا بهذا الاسم ، كما أن كتاب الله سبحانه فى بلاغته وفصاحته وأسلوبه ، واخباره بالغيوب يعتبر معجزة فى حد ذاته ، والمعجزة حجة قاطعة ، وبرهان جلى على صدق من أيد بها ، وقبل كل هذا ومعه فشخص النبى صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن وأيد بالمعجزات يعتبر برهانا لكماله وخلقه ، ولطريقته الاقناعية التى اعتمد عليها ، واطلاق البرهان على أى واحد من هذه كلها يشملها ويتضمنها .

يقول ابن تيمية : فكل ما دل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو برهان ، ومحمد هو الصادق المصدوق قد أقام الله على

---

(٣٣) يوسف ٢٤ .
(٣٤) تفسير القرطبى ج٦ ٢٧ .
(٣٥) التفسير الكبير ج١١ ١١٩ .
(٣٦) أنظر الكشاف ج١ ٣١٩ ، ج٢ ١٦٦ ، وتفسير القرطبى ج٦ ٢٧ ، وتفسير الفخر الرازى ج٢ ٢٤٨٣ ، وتفسير البيضاوى ج٢ ١٢١ ج٤ ١٢٧ .

صدقه براهين كثيرة ، وصار محمد نفسه برهانا فأقام من البراهين على صدقه ، فدليل الدليل دليل ، وبرهان البرهان برهان ، وكل آية له برهان (٣٧) ، حتى الأعمال والسلوك الصفاتية هي له برهان ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم جعلها كذلك فقال عن الصدق [الصدق برهان] وعن الصلاة [من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة] .

ومع أن البرهان يطلق على الوحى والدين والمعجزة فقد يطلق على الاشارات أو الدلالات أو الأصوات الحسية التى ترجع فى الحقيقة الى أمور النبوة ، وفضل الله عليهم فيما كما حدث مع يوسف عليه السلام فى قصة امرأة العزيز ، لقد عرض المفسرون لمعنى [**لولا أن رأى برهان ربه**] فقالوا رأى مكتوبا فى سقف البيت ولا تقربوا الزنا ، أو رأى يعقوب وجبريل ينهيانه ويزجرانه ، أو سمع أصواتا تزجره الى آخر ما قالوا ، وهذا التأويل دفع الألوسى أن يعطى للبرهان معانى الشهود القلبى فقال :

[لولا أن رأى برهان ربه أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله ، والمراد برؤيته لها كمال ايقانه ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين] (٣٨) .

واذا فالبرهان فى رحاب الوحى يعنى شخص الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ولم تطلق تلك الكلمة على غيره من الأنبياء لمكانته بينهم ، ولطريقته فى الاقناع ، ولخصائص رسالته التى تعتمد على بث اليقين فى النفوس من خلال البراهين ، كما يطلق البرهان على القرآن والدين والمعجزات والدلائل الحسية والمرئية والمسموعة الصادرة من

---

(٣٧) مجموع الفتاوى ج١٥ ٨٠ — ٨١ ج١٣ ١٠ .

(٣٨) روح المعانى ج٢ ٢١٣ وانظر الكشاف ج٢ ٢٤٨ — ٢٤٩ وتفسير الزمخشرى ج١٨ ١١٩ — ١٢٠ والبيضاوى ج٢ ١٣١ .

الله ، ويضاف الى البرهان الخبرى البرهان الشهودى كذلك ، وهـذا هو جماع الكلمة بمعانيها هنا .

اقـرار الوحى بالبرهان العقـلى :

طالب القرآن أهل الكتاب والمشركين والكفار بأن يأتوا ببرهان يثبت صحة دعاويهم ، فاذا ادعى اليهود والنصارى انه لن يدخل أحد الجنة الا من كان على دينهم (٣٩) طالبهم بالدليل ، أو اتخذ المشركون آلهة من دون الله استحثهم على أن يأتوا ببرهان يجابه الذكر الذى جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعليهم أن يقيموا برهانا على أن الآلهة تخلق ان زعموا ذلك (٤١) ، والا فان عجزوا وهذا مؤكد فليعلموا أن الله هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ولا اله معه يقدر على ذلك .

وفى هذه الآيات كما سبق أن ذكرنا تنبيه على أنه لا تقبل دعوى أو قضية أو اعتقاد الا ببرهان يثبت أو ينفى ، وكل قول لا دليل عليه فهو باطل ولا أساس له فى الواقع وحقيقـة الأمر ، ومطالبة القرآن بالاتيان بالبرهان يبطل التقليد ويصحح النظر .

والقرآن اذ يطالب المشركين بالذات بالبرهان والحال أن لا وحى عنـدهم فيلزم من ظاهر النص ومن مقتضى حال المخاطبين أن يكون المراد هو البرهان العقلى الذى يوقع اليقين بصحة ما يزعمون ، وحتى لو سرنا مع المفسرين فى قولهم ان القرآن يطـالب بالبرهان النقـلى

---

(٣٩) [وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين] البقرة ١١١ .

(٤٠) [أم اتخـذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى] الأنبيـاء ٢٤ [ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه] المؤمنون ١١٧ .

(٤١) أمن يبـدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السموات والأرض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين] النمل ٦٤ [سبق ذكر هذه النصوص ولذا دوناها بالهامش] .

والعقلى نقول : ليس لديهم نقل ثابت ، فلم يبق الا أن يأتوا ببرهان عقلى يدل على سلامة ما يدعون (٤٢) يقول ابن تيمية [والمقصود أن ذلك البرهان يعلم بالعقل] (٤٣) .

الاصطلاحيون يقرون أن البرهان أسمى :

تعرض الباحثون فى اصطلاحات الفنون ، والأصوليون والمناطقة والفلاسفة الى البرهان تعريفا وتقديرا ، وانتهوا من وراء ذلك الى أنه بيان الحجة الفاصلة القاطعة ، أو كما قال الأصوليون [ما فصل الحق عن الباطل وميز الصحيح من الفاسد بالبيان الذى فيه] ، وتقوم تلك الحجة الفاصلة عنـد المناطقة والفلاسفة على قياس مؤلف من قضايا يقينية سواء كانت بديهية أو نظرية ، أو مشهورة أو مسلمة ، وتنتج تلك القضايا قولا آخر يقينيا أيضا .

ويطلق قديما على الاستنتاج العقلى الذى تلزم فيه النتيجة عن المبادىء اضطرارا ، ولكنه صار عندالمحـدثين بمعنى الحجة العقليـة والتجريبية ، والمقصود بالتجريبية تلك التى تسـتند الى التجارب والحوادث مثل حجة العلماء الكيماويين والفيزيين ، ومثل حجة المحامى الذى يثبت صـحة دعواه بابراز بعض المسـتندات أو تبين بعض الحوادث .

ويذهب الشـيخ الرئيس ابن سـينا أن يقين البرهان معتبر فيه دائما ، ويرجع ذلك الاعتبارالى أن اليقين لا يحصل الا اذا اسـتدل بوجود السبب على وجود المسبب ، وهـذا الشرط متحقق على وجه الخصوص فى البرهان اللمى .

---

(٤٢) أنظر تفسير الكشاف ج١ ٨٨ ، ٣٠٠ ج٣ ٨ ، ٥٨ ، ١٤٩ ، تفسير القرطبى ج٢ ٧٥ ج١٢ ٢١٩ — ٢٢٠ تفسير الفخر الرازى ج٤ ٣ ، ج٢٢ ١٥٨ ج٢٣ ١٢٨ ج٢٤ ، تفسير الألوسى ج١٧ ٣١ ج٢ ٨ ، ج١٧ تفسير البيضاوى ج٤ ٣٨ ، ٧٢ ، ١٢٠ ، ١٣٢ .

(٤٣) مجموع الفتاوى ج٥ ٨١ .

وأما ابن رشد فيصل بين الاعتبار والبرهان بقوله : اوجب القرآن الاعتبار حيث قال « **فاعتبروا يا أولى الأبصار** » والاعتبار [ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه] وهذا هو القياس ، وانما حث الشرع عليه لكونه [أتم أنواع النظر وأنواع القياس وهو المسمى برهانا] ومن هنا يتفق الاصطلاحيون من المناطقة والفلاسفة على أنه أتم وأسمى صور الاستدلال(٤٤) ولذا جعلناه متربعا على قمة المصطلحات الخاصة بهذا الاستدلال .

والله تعالى أجل واعلم

نسأل الله سبحانه أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا ، وبرهانا لنا ، وضياء وشفعيا انه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(٤٤) انظر التهاوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ١٥٠ ، الأحمدنكرى : دستور العلماء ج١ ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٨٥ ، ابن رشد فصل المقال : ٣ جميل صليبا المعجم الفلسفى ٢٠٦ — ٢٠٧ ، مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفى ٣٣ .

مراجـع الكتـاب :

١ — القـرآن الكريم :
٢ — احياء علوم الدين — أبو حامد الغـزالى
٣ — أساس البلاغة — الزمخشرى
٤ — استخراج الجدل — ابن نجم الحنبلى ، تحقيق د. زاهر الألمعى
٥ — أصول الدين — عبد القاهر البغدادى
٦ — الامام الأوزاعى ومنهجه فى الفقه — عبد الرزاق الضفار — دار الرسالة بغداد ط ١ : ١٩٧٦ م
٧ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل — القاضى البيضاوى
٨ — البصائر النصيرية فى علم المنطق — الامام زين الدين الساوى
٩ — البيـان والتبيين — الجـاحظ
١٠ — تذكرة الحفاظ — الذهبى
١١ — تاريخ الجـدل — أبو زهـرة
١٢ — تهذيب اللغـة — الأزهرى
١٣ — تفسير القرآن العظيم — ابن كثـير
١٤ — جامع البيان فى تفسير القرآن — ابن جرير الطبرى
١٥ — التعريفات — الجرجانى
١٦ — الجامع لأحكام القرآن — أبو عبد الله القرطبى
١٨ — الحكمة العربية — د. عبد الله الشاذلى
١٨ — الحليـة — الأصـبهانى
١٩ — الدعـوة الاسلامية — توماس أرنولد
٢٠ — دستور العلماء — الاحمد نكرى
٢١ — الذيل على طبقات الحنابلة — ابن رجب الحنبلى ، تصـحيح محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية .
٢٢ — رحلة ابن جبـير — ابن جبـير
٢٣ — الرد على المنطقيين — ابن تيميـة
٢٤ — روح المعـانى — الألوسى

٢٥ — رسالة فى علم البحث والمناظرة ضمن رسالتين لطاش كبرى زادة ، تحقيق أبو عبد الرحمن بن عقيل — طبعة ١٣٩٧ هـ .
٢٦ — سنن الترمزى — الامام الترمذى
٢٧ — سنن ابن ماجه — الامام ابن ماجه
٢٨ — سيكولوجية القصة فى القرآن — التهامى نقرة — الجزائر رسالة الدكتوراة .
٢٩ — شرح السنة — الامام البغوى
٣٠ — شرح العقائد العضدية — الملا أحمد
٣١ — الشامل فى أصول الدين — الجوينى .
٣٢ — الشفاء — ابن الجوزى
٣٣ — شرح الأصول الخمسة — القاضى عبد الجبار
٣٤ — شرح صحيح مسلم — الامام النووى
٣٥ — شيخ الاسلام أبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم — الرازى — دائرة المعارف العثمانية ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م ، الطبعة الأولى .
٣٦ — الشفاء — ابن سينا
٣٧ — صحيح البخارى — الامام البخارى
٣٨ — صحيح مسلم — الامام مسلم
٣٩ — صفة الصفوة — ابن الجوزى
٤٠ — صيد الخاطر — ابن الجوزى
٤١ — العقد الفريد — أحمد بن محمد الأندلسى — تحقيق الدكتور : عبد المجيد الترحينى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى .
٤٣ — غرائب القرآن — النيسابورى
٤٤ — فصل المقال — ابن رشد
٤٥ — فتح البارى شرح صحيح البخارى — ابن حجر العسقلانى
٤٦ — الفروق فى اللغة — أبو هلال العسكرى
٤٧ — فريدة القصر وجريدة أهل العصر — عماد الدين الأصبهانى

٤٨ — الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى — د. محمد البهى

٤٩ — القاموس المحيط — الفيروزابادى

٥٠ — الكليات — أبو البقاء

٥١ — الكشاف — الزمخشرى

٥٢ — المستظرف — الأبشيهى

٥٣ — المصباح — ابن الجوزى

٥٤ — لسان العرب — ابن المنظور — مادة حور ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٠ هـ — ١٩٠٠ م .

٥٥ — مفاتيح الغيب — الفخر الرازى

٥٦ — المفردات — الراغب الأصفهانى

٥٧ — مجموع الفتاوى — ابن تيمية

٥٨ — المعرفة والتاريخ — أبو يوسف البسوى — الارشاد بغداد ، ١٩٧٥ م ، تحقيق الدكتور : أكرم ضياء العمرى .

٥٩ — مفتاح دار السعادة — ابن قيم الجوزية

٦٠ — المنتظم — ابن الجوزى

٦١ — معجم مقاييس اللغة — ابن فارس

٦٢ — منهج الدعوة الى الله — أمين أحسن اصلاحى

٦٣ — مقالات الاسلاميين — الأشعرى

٦٤ — المنطق — الشيخ محمد رضا المظفر — الطبعة الرابعة

٦٥ — المعجم الفلسفى — مجمع اللغة العربية

٦٦ — المصباح المنير

٦٧ — القسطاس المستقيم — الغزالى

٦٨ — منهج الحوار عند موسى — العبيد

٦٩ — مناهج الجدل — زاهر الألمعى

٧٠ — مقدمة الشفاء — فؤاد أحمد

٧١ — الموطأ — الامام مالك

٧٢ — نهاية الاقدام — الشهرستانى

مدخل الى الاستدلال القـــرآنى

الفهـــرست

الموضـــوع	صفحة

البـــاب الثانى

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧/٥٠١١